جامعة بنغازي

كلية الآداب

الدراسات العليا

قسم اللغة العربية شعبة الأدبيات

الرِّثاءُ عِنْدَ النِّسَاءِ الشَّوَاعِرِ مُنْذ العَصْر الجَاهِلِي حَتّى نِهَاية الدولةِ الأُمويّة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات
درجة الإجازة العالية " الماجستير"

إعداد الطالبة :

تركية عبدالرحمن عمر الشيباني

إشراف الدكتور :

طاهر عمران الطير

أستاذ الأدب العربي المساعد

العام الجامعي : 2011 ف - 2012 ف
الموافـــــق : 1432 هـ - 1433 هـ

الإهداء

أهدي هذا الجهد المُتواضع إلى مَنْ ناضلا لِأجلي

أبي و أمي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

{ ... وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(112)}

" سورة النِّساء من الآية 112 "

المقدمة

بسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير المربين وقدوة المصلحين وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واتبع خطوه واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد:

فإن هذه الدراسة تتناول أحد أغراض الشعر العربي وهو فن الرثاء وتحديداً شعر الرّثاء النِّسائي في العصرين الجاهلي و الإسلامي.

وقد لفت نظري شعر النساء من خلال ما قرأته من قصائد للخرنق بنت بدر والخنساء وليلى الأخيلية في أثناء دراستي في العصور القديمة ، وتساءلت عن حقيقة عدد شواعر العرب وشعرهن ، ومكانة الشواعر بين الشعراء الرجال في الحياة الأدبية ، لهذا قضيت فترة متتبعة لهذا الشعر ، وقد وقفت في عدد من مصادر الشعر العربي القديم على جملة من القصائد والمقطوعات التي تنصب على هذا الضرب من الشعر .

وقع اختياري بداية على دراسة شعر الرّثاء عند النساء في العصر الجاهلي ، الأمر الذي حملني على البحث المستمر عن شعر نساء الجاهلية ، ومن خلال البحث اتّضح لي أن هؤلاء الشواعر كان من بينهن من عاشت في الجاهلية ثم أدركت الإسلام ، أمثال الخنساء (تماضر بنت عمرو) وبنات عبد المطلب بن هاشم وغيرهن ، فقررت دمج العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام حتى تكتمل اللوحات الرثائية لهؤلاء الشّواعر، ومع استمرار البحث عن شعر الرّثاء النِّسائي في هذين العصرين تبين لي مرة أخرى أن لبعض هؤلاء الشواعر شعر رثائي في عصر صدر الإسلام وفي عهد الدولة الأموية أمثال ليلى الأخيلية وعاتكة بنت زيد وغيرهن من الرّاثيات ، فقررت دراسة شعر الرثاء عند النساء في العصرين الجاهلي والإسلامي .

وأشير إلى أن النِّساء الشواعر اللائي اشتهرن أمثال الخرنق بنت بدر، والخنساء (تماضر بنت عمرو) ، وليلى الأخيلية ، وتميزن على غيرهن من الشّواعر بوفرة ما دون لهن من أشعار من قبل الرواة ، ولهن دواوين ضمت جملة من القصائد والمقطوعات ، فقد اكتفى هذا البحث بدراسة بعض من قصائدهن للاستشهاد بها بجانب باقي النِّساء الشواعر؛ لأجل التتبع التاريخي لشعر الرثاء النِّسائي في الجاهلية والإسلام .

وبما أن الأشعار لا تفهم إلا من خلال دراسة الجوانب الحياتية التي عاشها الشاعر، فقد حرصت على إيراد المناسبة التي قيلت فيها قصائد الرثاء لدى النِّساء ؛ في محاولة لفهم الشعر وفهم العوامل المؤثرة فيه .

وحتى تكون دراسة الشواعر في العصرين الجاهلي والإسلامي شاملة لحياتهن وشعرهن ، ارتضيت أن يكون عنوان الرسالة :

" الرّثاءُ عِنْدَ النِّساء الشّواعر مُنذ العَصْر الجَاهِلِي حَتّى نهَاية الدّولة الأمويّة "

ليكون الموضوع أكثر إحاطة و شمولاً، وأقرب إلى الواقع بحثا.

الدِّراسات السّابقة :

تناولت الدراسات الأكاديمية شعر الرّثاء النِّسائي ومن بين هذه الدِّراسات رسالة بعنوان : (الرّثاء بين الخنساء وليلى الأخيلية) مقدمة من الباحثة ربيعة أبو القاسم الواعر، وذلك لنيل درجة الماجستير سنة 2001 ف بآداب الزاوية ، حيث أفردت لهاتين الشاعرتين دراسة وافية لشعرهما ، وانصب اهتمام هذه الدراسة على الموازنة بينهما .

كما تناولت رسالة أخرى بعض هذا الشعر بالدراسة وكانت بعنوان (الرّثاء في شعر الخوارج والشيعة في العصر الأموي) للباحث يونس إبراهيم موسى أبو مصطفى ، وذلك لنيل درجة الماجستير سنة 1997 ف بآداب بنغازي ، حيث كشف الباحث عن خصائص شعر الرثاء عند هذين الفرقتين لا سيما عند نسائها الشواعر .

كما تعرضت رسائل أخرى لشعر الرّثاء النسائي في دراسات تناولت الشعر النسائي في جميع أغراضه ومن بينها :

رسالة بعنوان (شواعر الجاهلية – مطبوعة) للباحثة رغداء مارديني ، وذلك لنيل درجة الماجستير سنة 2001 ف بآداب دمشق ، تناولت فيها الباحثة شعر المرأة عامة مع جمع ديوان لقصائد ومقطوعات بعض الشواعر، وقد استفدت من هذا الديوان في تصويب كثير من الأخطاء التي وقعت فيها بعض المصادر التي اعتنت بجمع شعر الرثاء النسائي .

ورسالة أخرى كانت بعنوان (الأسرة في شعر ما قبل الإسلام) للباحثة سعدية البرغثي ، وذلك لنيل درجة الماجستير سنة 1998 ف بآداب بنغازي ، حيث اشتملت هذه الدراسة على بعض الأبيات لبعض الشواعر في الرّثاء في محاولة لبحث دور النساء الشواعر في حياة أسر العصر الجاهلي .

وهناك أبحاث أخرى تناولت شعر النساء في دراسة خاصة لشعرهن منها :

ـ الشعر النسائي في أدبنا القديم ، مي يوسف خليف

ـ المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي

وقد استفدت من كتب التاريخ كالسيرة النبوية لابن هشام ، والمغازي للواقدي ، وتاريخ الطبري في معرفة تواريخ الحقب التي قيلت فيها أشعار النساء في الوقائع والأحداث التي مرّت بها الشواعر منذ العصر الجاهلي حتى نهاية الدولة الأموية ، كما استفدت من المراجع الحديثة التي اعتنت بجمع شعر النِّساء في ضبط القصائد وتصويب الأخطاء التي وقعت فيها بعض المصادر منها :

ـ أعلام النِّساء في عالمي العرب والإسلام ، عمر رضا كحالة .

ـ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، بشير يموت ، تحقيق عبد القادر محمّد مايو .

ـ شاعرات العرب ، عبد البديع صقر

وعندما قررت دراسة موضوع شعر الرِّثاء عند النِّساء في العصرين الجاهلي والإسلامي كان الأمل يحدوني في إضافة شيء جديد إلى الأبحاث السابقة لا سيما أن الرّثاء النِّسائي لم يحظ ببحث مستقل ، إنما كانت الدراسات تتناول شعرهن بكلّ أغراضه وببعض الأبيات للاستشهاد بها .

ونظراً لأن الدراسة راعت الجانب الفني والنفسي والتاريخي والاجتماعي ، فقد كان منهج البحث المنهج التكاملي ، وكانت خطة البحث تنحصر في هذه المقدمة وتمهيد ، ثم أربعة فصول يشتمل الفصل الأول على مبحثين ، في حين يشتمل كلّ من الفصول الثلاثة الأخرى على ثلاثة مباحث ، وإذا كنت قد وضحت في المقدمة سبب اختياري لهذا الموضوع ، والمنهج الذي سارعليه البحث ، فإني قد مهدت لهذه الدراسة بمفهوم الرّثاء وأشكاله ، وربطته في الفصل

الأول (بفِكْرة الحَيَاةِ والمَوتِ في العصرين الجَاهِلِي والإسلامِي) ، وذلك من خلال تقسيم هذا الفصل إلى مبحثين ، تناول المبحث الأول مفهوم الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، ناقشت فيه موقف الجاهليين من الحياة والموت واليوم الآخر، وتناول المبحث الثاني مفهوم الحياة والموت في الشعر الإسلامي، حاولت فيه تبين موقف المسلمين ومفهوم الحياة والموت لديهم .

أما الفصل الثاني فكان عن : (شعرالرّثاء عند الشّواعِر في العَصر الجَاهِلِي) ، وانقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، اهتم المبحث الأول بأهم مظاهر شعر الرّثاء النسائي ومميزاته ، واقتصر المبحث الثاني على دراسة شعر الرثاء عند النساء في العصر الجاهلي من خلال أثر المكانة الاجتماعية للمرأة الجاهلية وانتمائها الأسري لشعراء معروفين ، وكان المبحث الثالث عن البيئة الجاهلية في شعر الرثاء النسائي هذا ، وذلك من خلال بيان مظاهر الطبيعة فيه .

أمّا الفصل الثالث ، فقد كان عن (شِعر الرِّثاء عند الشواعر في العصر الإسلامي) في حقبتي صدر الإسلام والدولة الأمويّة ، وانقسم إلى ثلاثة مباحث :

تناول المبحث الأول دراسة مظاهر الرّثاء عند الشواعر في صدر الإسلام ، وخصص المبحث الثاني لدراسة مظاهر الرّثاء عند الشواعر في زمن الخلافة الأموية ، ثم كان المبحث الثالث عن آراء النقاد حول تأثر الشواعر بالإسلام ، وناقشت فيه تأثير الإسلام في شعر الرِّثاء عند النساء .

أما الفصل الرابع فقد بحثت فيه عن (الخَصَائِص الفنية في شِعر الرّثاء عند الشواعر في العَصرين الجَاهِلي والإسلامِي) ، وانقسم بدوره إلى ثلاثة مباحث :

اعتنى المبحث الأول بالأساليب عند الشواعر، وذلك من خلال الصور الشعرية ووحدة الموضوع والمطالع في شعرهن ، وتناول المبحث الثاني المعجم اللغوي الذي تحركت داخله الشاعرة الرّاثية في الجاهلية والإسلام ، وفي المبحث الثالث درست الأوزان والقوافي والموسيقا ووقفت عند بعض آراء الدارسين عن الأوزان ومناسبتها للأغراض الشعرية .

ولا يسعني في الختام إلا أن أقدم جزيل الشكر والتقدير إلى الدكتور طاهر عمران الطير الذي أسهم في بناء هذه الدراسة ، وأبدى ملاحظاته القيمة عليها ، ومنحني توجيهاته التي أسهمت في استكمال البحث ، كما أسجل شكراً جزيلاً وتقديراً عميقاً إلى الدكتورة هنية علي يوسف الكاديكي وإلى كلّ مَنْ أسدى إليَّ نُصحاً أو توجيهاً .

وختاما أقدم هذه الدراسة للمناقشة للاستفادة من ملاحظات المناقشين للوصول بالرسالة إلى مستوى مرض وسد ما بها من ثغرات ، وتدارك ما بها من هفوات.

والله من وراء القصد

التمهيد

مفهوم الرّثاء وأشكاله

أولاً : مفهوم الرّثاء

1- معنى الرّثاء لغة :

ورد الاستعمال اللغوي للرّثاء بصيغ ومعان كثيرة منها : أن " رث ا ـ (رَثَيْتُ) المَيّتَ من باب رَمَى و(مَرثية) أيضا و(رَثَوْته) من باب عَدَا إذا بكَيتَه وعَدَدت مَحَاسِنَه وكذا إذا نَظَمْتَ فيه شِعْراً و(رثّى) له رَقّ من الباب الأوّل بمَصْدَرَيْه ... " (1) .

ومن الرّثاء " رث أ ـ في مثل ((الرثيئة تَفْتأ الغَضَب)) وهى اللبنُ الحامض يُحْلب عليه فيخثرُ" (2) ، أى أن " ((رثا)) الرَثو الرثيئة من اللبن " (3) ، وجاء بمعنى آخر نحو " قولهم مرثو أى ضعيف العقل ... والرّثْيَة بالفتح وجعٌ في الركبتين والمفاصل ... والرّثْية الحُمْقُ وفي أمره رثية أى فتور" (4) ، والرّثْيَةُ " ... بالضم الرّقطة كبش أرثأ ونَعْجَة رَثّاءُ " (5) .

وقد وردت لفظة (رثا) عند الزمخشري وغيره بالهمز وفي ذلك قال الرازي " ... ربما قالوا رَثَأتُ الميت بالهمزة على خلاف الأصل ..." (6) ، وكذلك " قال الفَرّاء : رُبّما خرجت بهم فصاحتهم إلى هَمْز ما ليس بمهموز قالوا : لَبّأ بالحَجّ وحَلّأ السّويق ورثّأ المَيّتَ " (7) .

وذكرالزَّبيدي أن " رَثّأ مهموزٌ (لغةٌ فى رثى المَيت) المعتل ، رَثّأتُ الرجلَ بعد موته رَثْأً : مَدَحْته ، وكذلك رَثّأت المرأةُ زوجها ، في رَثّتْ ، وهى المَرْثِيَّة " (8) .

---

(1) محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرّازي ، مختار الصحاح ، تح محمود خاطر ،(د . ب) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د . ت) ، ص 233

(2) جارالله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، تح عبدالرحيم محمود ، ط1 ، القاهرة ، مطبعة اولاد اورفاند ، 1953 م ، ص 154

(3) جمال الدين محمد بن مكرّم الأنصاري المعروف بابن منظور ، لسان العرب ، (د . ب) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (د . ت) ، جـ 19 ، ص 21

(4) نفس المصدر ، جـ 19 ، ص 21 - 22

(5) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، بيروت ، دارالجيل ، (د . ت) ، جـ 1 ، ص 16 والرُّقطة : سواد يشوبُهُ نقط بياض أو بياض يشوبُهُ نقط سواد ، (اللسان : جـ 9 ، ص 175)

(6) مختار الصحاح ، ص 233

(7) نفس المصدر ، ص588 - 589

(8) محمّد مرتضى الحسيني الزّبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تح عبدالستار أحمد فرّاج ، (د . ب) مطبعة حكومة الكويت ، 1385هـ – 1965 م ، جـ 1 ، ص239

2- معنى الرّثاء اصطلاحاً :

انتقل لفظ الرّثاء من معناه اللغوي ـ أي المعاني اللغوية السالفة الذكر ـ إلى معنى اصطلاحي كما تنتقل ألفاظ اللغة الأخرى فأصبح يدل على بكاء الميت ومدحه أدبياً بشقي الأدب النثري والشعري ، ويرى العسكري أن المرثية ماهي إلا مديح للميت [1] ، ومن هنا أصبح الرّثاء من الأغراض الشعرية التي يعبر بها عن الحزن وقد عرف النويهي الرّثاء بأنّه "... تصوير حزن الشاعر لموت إنسان ، واستثارة نفس الحزن في السامع أو القاريء ... " [2] .

وتتحقق صور التداخل بين الرّثاء والمدح حين يمدح الشاعرالخلال الحسنة التي كان يتصف بها المرثي ، يقول ابن رشيق " وليس بين الرثاء والمدح فرق ؛ إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل «كان» أو ((عدمنا به كيت وكيت)) " [3] .

ثانياً : أشكال الرّثاء

للرّثاء أنواع مختلفة منها رثاء النفس والرّثاء الأسري والرثاء القبلي ، يتخذها الشاعر وسيلة للبوح بما يعانيه من ألم الأحزان ، حيث ينبع الرّثاء من أعماق النفس عند إلمام النائبة وفقد الإعزاء ، ويمثل الآلام الكامنة في الوجدان في صورة ألفاظ وعبارات محرقة ؛ ليصبح بذلك قالباً إنسانياً حياً للمعاني التي يتضمنها.

1- رثاء النفس :

يرثي الشاعر نفسه قبل موته في قصيدة يذكر فيها المصيرالمحتوم للأحياء ، كقول الممزق العبدي :

هَلْ لِلْفتى مِنْ بَنَاتِ الدّهْرِ مِنْ وَاق أمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمامِ المَوْتِ مِنْ رَاق

---

(1) ينظر أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، الصناعتين ، تح على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، (د . ب) ، دار إحياء الكتب العربية ، 1952م ، ص 137

(2) محمد الدسوقي النويهي ، ثقافة الناقد الأدبي ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1949 م ، ص 338 .

(3) أبوعلى الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تح محمّد محيى الدين عبدالحميد ، ط 2 ، (د . ب) ، مطبعة السعادة بمصر ، 1955م ، جـ 2 ، ص147.

قدْ رَجَّلُوني وَمَا رُجِّلتُ مِنْ شَعَتٍ وَأَلْبَسُوني ثِيَاباً غَيْرَ أَخْلاق
وَرَفَعُونِي وَقَالُوا : أَيُّمَا رَجُلٍ وَأَدْرَجُونِي كَأَنّي طَيّ مِخْرَاق
وَأَرْسَلُوا فِتيةً مِنْ خَيْرهم حَسَبَاً لِيُسْنِدُوا في ضَرِيح التُّرْبِ أَطْبَاقِي
هَوّنْ عَلَيْكَ وَلا توْلَعْ بإشْفَاق فإنّمَا مَالُنا لِلْوَارثِ البَاقِي
كَأَنّنِي قدْ رَمَانِي الدّهْرُ عَنْ عُرُضٍ بنَافِذَاتٍ بلا رِيْشٍ وَأفْوَاق[1]

2ـ الرّثاء الأسري :

يتخذ هذا النوع من الرّثاء طابعاً خاصاً ، وتختلف شدة الحزن فيه باختلاف صلة القرابة التي تربط بين الرّاثي والمرثي ، صادرعن قلوب يقطعها الأسى ، وهو من أكثر الأقوال صدقاً وقد "... قال الباهليّ : قيل لأعرابيّ : ما بالُ المراثي أجَودَ أشعاركم ؟ قال : لأنّا نقول وأكبادُنا تحترق " [2] ، وخير مثال مرثية أبي دُ وَيْب الهذلي حين قال :

أمِنَ المَنُون وَرَيْبها تَتَوَجّعُ وَالدّهْرُ لَيْسَ بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَع
قالَتْ أُمَيْمَةُ: مَالجسْمكَ شَاحباً مُنْذُ ابْتَذَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ
أمْ مَا لِجَنْبكَ لايُلائِمُ مَضْجَعَاً إلّا أقضّ عَلَيْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ
فَأَجَبْتُهَا : أمّا لِجِسْمي أنّهُ أوْدَى بَنِيّ مِنَ البلادِ فَوَدّعُوا
أوْدَى بَنِيّ وَأَعْقَبُونِي غُصّةً بَعْدَ الرّقادِ وَعَبْرَةً لا تُقْلِعُ [3]

---

(1) المفضل بن محمد بن يَعْلي الضبي ، المفضليات ، تح أحمد محمد شاكر وعبدالسّلام محمد هارون ، ط 6 ، القاهرة ، دارالمعارف ، 1964 م ، ص300 ، (ذكر المحقق في هامش المفضليات ، ص 299 أن الأبيات تنسب ليزيد بن خذاق وأنهم زادوا بيتاً آخر : وقسّموا المال وارفضت عوائدهم وقال قائلهم مات ابن خذاق .
(2) أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيّن ، تح عبدالسّلام محمد هارون ، ط1 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (د . ت) ، جـ 2 ، ص320
(3) المفضل الضبي ، مصدر سابق ، ص 421.

3- الرّثاء القبلي :

من المعروف أن رثاء الأموات من أبناء القبيلة و شيوخها ورثاء الملوك والأمراء مصيبة عامة ، والحزن على المرثي يتقاسمه الجميع ، فتأتي قصائد الرّثاء أقلّ حرارة وأضعف تأثيراً من المراثي التي تقال في حالة الانفعال القوي عند الرّثاء الأسري ، وما يقوله الشاعر من رثاء على أبناء القبيلة ، إنما يعود لإحساسه برابطة الدم والعصبية التي تربطه بهم " والقبيلة هى عماد الحياة في البادية ... والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو (النسب)" [1] يقول أبودُ وَا د الإياديُّ :

لاأعُدّ الإقتارَ عُدْماً ولكنْ فَقْدُ مَنْ قد رُزِئتُهُ الإعْدَامُ
سُلِطَ الدّهْرُ وَالمَنُونُ عَلَيْهم فَلَهُمْ في صَدَى المَقابر هَامُ
فعَلَى إثْرهم تَسَاقطُ نَفْسي حَسَرَاتٍ وَذِكْرهم لي سَقَامُ [2]

وهذا الرّثاء قد اشتهرت به القصائد التي قيلت في أيام العرب " فقد يكون الدافع إليه حزن الشاعر لفقد شخص تربطه به عصبية وولاء ، وقد يكون المرثي فرداً سيداً أو جماعة تمثل قوم الشاعر الذين ذهبوا وقتلوا وشردوا وتبدد شملهم " [3] .

والرّثاء من حيث ارتباطه بوجدان الشاعر يتمثل في ثلاثة أشياء هي :

الندب – التأبين – العزاء .

1- الندب : الندب هو البكاء على الميت ، وذكر مناقبه ، وهو في أصله إنما يكون على الأهل والأقرباء ؛ لإظهار الحزن والحرقة " فإذا رثى الجاهلي ميتاً لا يوهم القاريء أن السماء

---

(1) د. جواد على ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط1 ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1970 م ، جـ 4 ، ص 313.

(2) أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي ، الأصمعيات ، تح أحمد محمد شاكر وعبدالسّلام هارون ، ط 3 ، مصر، دار المعارف ، (د . ت) ، ص187 - 188.

(3) مصطفى عبد الشافي الشوري ، شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، (د . ط) ، بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، 1983 م ، ص 103.

أطبقت على الأرض ، وأن الشمس كسفت ، والدنيا لبست الحداد ، ونحو ذلك ... ولكنه يقول قول جليلة بنت مرة زوجة كليب بن ربيعة وهي ترثيه وقد قتله أخوها جساس بن مرّة :

يا قتيلاً قوّضَ الدّهْرُ به سَقْفَ بَيتيّ جَمِيعَاً مِنْ عَلِ

هَدَمَ البَيْتَ الذي اسْتَحدَثْتُهُ وانثنى في هَدْم بيتي الأوّلِ" [1]

فالرّاثية تشعر بتصدع شطرمن الكيان وتمزق الشمل وبعثرة الجمع الملتئم لأهلها ، وكانت النِّساء من أكثر النّاس إظهاراً للندب ، وإن كانت قصائد الشعراء لا تخلو من ذلك ؛ لأن " ... في إسْبَال العَبْرة ، وإطلاق الزّفْرَة ، والإجهاش بالبكاء والنشيج ، وإعلان الصياح والضجيج ، تَنْفِيساً عن بُرَحَاءِ القلوب ، وتخفيفاً من أثقال الكُروبِ " [2] ، ولكن النِّساء كنّ يبالغن في الندب حيث " تعفِّر النِّساء رؤوسهنّ بالتراب وبالرماد وبالطين ويلطمن خدودهن بأيدهن ، ... ويسرن مع الجنازة ... وترافقهن النادبات والمولولات ، ويندبن الميت ويولولن عليه ، يسرن حافيات مبالغة في إظهار الحزن... [و] أن من عادات الجاهليين حمل النار مع الجنازة تصطحبها اصطحاب النائحة لها " [3] .

وذكر البغدادي أن أول من فعل ذلك من النساء ابنتا داود بن هبالة ـ أحد ملوك العرب ـ ، كانت له " ... ابنتان يقال لهما أمرعة وأشعرة ، وكان خلّفهما بالشام ، فقدِم عبدالعاص التنوخى الشام ، فبعثت إليه أمرعة تسأله عن أبيها ، فعرّض لها فلم تفهم ... ثم أرسلت إليه أشعره فحكى لها فلم تفهم ... ففهمتا قولَه فشقّتا جيبَيْهما ، وحَلَقتا رؤوسهما ، فهما أوّل من فعل ذلك من العرب " [4] .

---

(1) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، (د . ب) ، دار الهلال ، 1957 م ، جـ 1 ، ص 37
والبيتان عند أبي العباس محمّد بن يزيد المبرد ، التعازي والمراثي ، تح محمّد الديباجي ، دمشق ، مطبعة زيد بن ثابت ، 1396هـ - 1976م ، ص 291

(2) أبو إسحاق إبراهيم بن على الحصري ، القيرواني ، زهر الآداب ، تح محمّد محيى الدين عبدالحميد ، ط 4 ، بيروت ، دار الجيل ،1972 م ، جـ 3 ، ص857

(3) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ 5 ، ص 156

(4) أبو جعفر محمّد بن حبيب البغدادي ، أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء (رسالة نشرت ضمن كتاب نوادر المخطوطات) ، تح عبد السلام هارون ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1370هـ - 1954 م ، ص 129 .

وقد نهى الإسلام عن مثل هذه الأفعال ، وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُود ، وَشَقّ الجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعوى الجاهِلِيّة " [1] .

فالإسلام لم يمنع البكاء والتعبير عن الحزن في المصائب التي تلم بالبشر ، إنما دعاهم إلى تهذيب النفوس والصبرعند الصدمة الأولى فالقلب يحزن والعين تدمع " والمراثي وأسبابها باقية مع الناس أبداً ، إذ كانت الفجائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب ، ولا يفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها ... " [2] .

2- التأبين :

التأبين هو رثاء الأموات الذين لا تربط الرّاثي بهم أيّ صلة قرابة ، وهو أقلّ تأثيراً من الندب ، ففيه تجلد عند نزول النوائب وحزم لدى الرزية ، وأصل التأبين هو مدح المرء سواء أكان حيا أم ميتاً ثم أصبح رثاء الأموات وذكرمحاسنهم ، ولم يكن التأبين مقتصراً على الأبطال فحسب ،إنما كانو يؤبنون الأشراف والسادة [3] ، وبذلك تتضح الرابطة العصبية التي تظل أعمق غوراً وأكثر استمراراً وعلى مداها تتوقف درجة التأبين في قصائد الرّثاء الذي هو الإشادة بمناقب المرثي ، وذكر منزلته وإشاعتها بين الناس ، سواء أكان ذلك في رثاء الفرد أم في رثاء القوم .

3- العزاء :

العزاء هو الصبر على المحن والتفكير في ماهية الموت ، وليس الاستغراق في الحزن ، فالموت والفناء قدر كلّ الأحياء ولابد من مواجهة المصير الحتوم ، و في ذلك تكون الدّموع سبيلا إلى السلوى والعزاء بمشاركة الآخرين أحزانهم ، والاقتناع بضآلة البشرأمام مصائب الزمان ، قالت امرأة صابرة عن موت ابنها " ... ماميَّزَ أحدٌ بين صبر وجزع إلا وجد بينهما

---

(1) أبوعبدالله محمّد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، تح محمد محمّد تامر ، القاهرة ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، 2004م ، جـ 1 ، ص 292 .

(2) المبرد ، التعازي و المراثي ، ص 271

(3) ينظر د. شوقي ضيف ، الرثاء ، ط2 ، القاهرة ، دار المعارف بمصر، 1955 م ، جـ 2 ، ص 13.

منهاجاً غير متقارب ، أمّا الصبر : فَحَسَنُ العلانية ، محمودُ العاقبة ، وأما الجَزَع : فصاحبه غير معوض عوضاً ، ولو كانا رجلين في صورة ، لكان الصبر أولاهما بالغلبة على الحسن في الخلق، والكرم في الطبيعة " [1] .

فبالصبرينال الإنسان العزاء عند اشتداد المصائب ، يقول العسكري " ولا أعرف في التعزي عن المصيبة كلاماً أحسن تقسيماً من قول الأعرابي ومات له ثلاثة بنين في يوم واحد فدفنهم وعاد الى مجلسه فجعل يتحدث كأن لم يفقد واحداً فليمَ على ذلك فقال : ليسوا في الموت ببدع ولا أنا في المصيبة بأوحد ولاجدوى للجزع فعلام تلومونني ... " [2] .

وقد يفيض الكيل عند آخرين من شدة ما بهم من الحزن لعدم المقدرة على الصبروالتحمل ، فلا يجدون سبيلا لمواجة المصائب ، فليلجأون إلى أفعال تناقض أحزانهم ، قيل " ومات بنون لامرأة تباعاً فكلمناها ، فحدثتنا ساعة ثم ضحكت فقالت لها امرأة : (أتضحكين !) أجنون بك أم فَنَدٌ ! قالت : لا وأبيك ، ولكنّ الشرّ لم يجِد لي مزيداً " [3] ، وعلى ذلك يظل الرّاثي في شوق وحنين للمَرْثي بعد الغياب والفقد ، ويظل على ذكراه ، وإن كان الألم يخفّ رويداً رويداً مع مرورالوقت وطول المدة والنسيان .

وقد حثّ الإسلام على الصبر عند نزول المصائب ، وذكر أن منادياً خاطب المسلمين يحثهم على الصبر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الله عزاءً عن كلّ مُصيبة وخَلَفاً من كلّ هالِكٍ ودركاً من كل ما فات ، فبالله فَثِقُوا ، وإياه فارجوا ، إنما المُصاب مَن حُرِمَ الثّوابُ..." [4] ، وما ذلك إلا رحمة من الله تعالى على عباده الصالحين لقوله تعالى : **{ الَذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (155)}**[5].

---

(1) أبوالحسن بن على محمّد المدائني ، التعازي ، تح إبتسام مرهون الصفار وبدري محمّد فهد ، النجف ، مطبعة النعمان ، 1970 م ، جـ 2 ، ص 66

(2) أبوهلال العسكري ، ديوان المعاني ، القاهرة ، مكتبة القدس ، 1352هـ ، جـ 2 ، ص172

(3) المبرد ، التعازي و المراثي ، ص 237.

(4) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، 1376 هـ - 1957 م ، جـ 2 ، ص 259

(5) سورة البقرة ، آية 155 .

الفصل الأول :

فكرة الحياة والموت في العصرين الجاهلي والإسلامي

المبحث الأول :

مفهوم الحياة والموت في الشعر الجاهلي

كان الإنسان في العصرالجاهلي يفتقد النظرة المتأملة لمفهوم الحياة والموت ؛ لتخبط الناس بين مفاهيم مختلفة لحقيقة الوجود والفناء ، وانحصر تفكير البعض في مسألة الخلود والسعي إليه ، ظناً منهم أن الخلود إنما يتحقق من أفعال يقومون بها في حياتهم ، وبذلك يعوزهم التأمل لمعرفة كنه الحياة وما بعدها ، والتفكير في ماهيتها ، فمنهم من كان يعتقد أن لا حياة بعد الموت ، ويرى أن البقاء يكون في تخليد ذكره بعد موته ، وآخرون يقرون بأن هناك آخرة يحشر الإنسان فيها .

فالذين لا يؤمنون بالبعث يزعمون أن لا حياة بعد الممات ، وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم ، قال تعالى :**{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوٰتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌمُّبِينٌ (7) }**[1] ، فمثل هؤلاء ينشدون الخلود الدنيوي ، ويرون أن على الإنسان أن يغرق نفسه في مبَاهج الدنيا ، مادام الموت متربصاً بهم ، وأولعوا بتصوير آثار هذه الحياة التي أحسوا بها من خلال تصورهم الخاطيء لها ، يقول طرفة بن العبد البكري :

فَدَرْنِي أَرَوّي هَامتِي في حَيَاتِها مَخَافَةَ شُرْبٍ فِي المَمَاتِ مُصَرّد

كَرِيمٌ يُرَوي نَفْسَهُ في حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنَا صَدَى أَيّنَا الصّدِى[2]

يرى الشاعر أن التمتع بملذات الحياة وإفناء المال يجلب الخلود حين يمدحه الناس بعد موته ، وعليه أن يرتوي من نعيمها مادام الموت آتٍ لامحالة ، فالخلود في نظرهم هو إتلاف النفس في المروءة والكرم وأن الروح الماثلة في السّخاء ماتزال باقية ولن تزال ، وهذا الخلود خلود معنوي يسعى له الجميع .

كما أنهم يرون أن في أخذ الثأر إدراكاً للخلود يناله المرثي بعد موته ، ويعزى مفهوم الخلود عند الجاهليين إلى جذور عقائدية ، إذ يعتقد البعض أن الروح لا تفارق الجسد بعد دفن

---

(1) سورة هود ، آية 7

(2) ديوانه ، تح مكس سلغسون ، شالون ، مطبع برطوند ، 1900 م ، ص 30

الميت [1] ، في حين يعتقد آخرون أن القتيل إذا لم يؤخذ بثأره يخرج من قبره طائر وهوالهامة يصيح بطلب السقيا حتى يُثأر له من القاتل ، وفي ذلك يقول ذوالأصبع العدواني :

ياعَمْرو إلّا تَدَعْ شَتْمي وَمَنْقصَتي أضْرِبْكَ حَيثُ تَقُولُ الهَامةُ اسْقُوني[2]

فإذا أُخذ بثأر القتيل ، فإن تلك الهامة تهدأ وتسكن. [3]

تلك كانت آراء الجاهليين عن الروح ، والحقّ أن الروح لايعلم عن أمرها إلا خالقها ، قال تعالى:**{ *وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِرَبّى وَمَاأوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إلّا قَلِيلا(85)}**[4]

أما الذين يؤمنون بأن هناك آخرة يحشر الناس فيها ، فإنهم يقومون بعقر الإبل على قبر الميت ؛ ليستعين بها يوم البعث ، والعقر للميت معتقد جاهلي " وقد اختلف العلماء في سبب عقرهم للإبل على القبور فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما يعقره من الإبل فى حياته وينحره للأضياف ، وقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك اعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام ، وزعم أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك ، لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى اذا بليت فكأنهم يثأرون لهم فيها " [5] ومهما يكن من أمر ، فإن الإنسان الجاهلي كان يلتمس من بعض المعتقدات ما يحقق له الخلود في الحياة الدنيا ، وهناك خلود آخر ينشده ويراه مطلباً لغاياته وهو الإشادة له بالبطولة والشجاعة في وقت الحرب بمجاهدة النفس على القتال ؛ لأن الحرب هى أساس حياة المجتمع القبلي ولحمته وهذا الخلود تحدث عنه الشاعر عَدِيّ بن الرَعْلاء الغَسّانيّ فقال :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إنّمَا المَيْتُ مَيّتُ الأحياء

---

(1) ينظر جواد علي ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ 2 ، ص 151

(2) ينظر أبوعلي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ، الأمالي ، ط 3 ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 2000م ، جـ 1 ، ص 129

(3) ينظر ابن قتيبة الدينوري ، المعاني الكبير في أبيات المعاني ، ط1، الهند ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، 1949م ، جـ 2 ، ص 1008

(4) سورة الإسراء ، آية 85

(5) جواد علي ، مصدر سابق ، جـ 5 ، ص 161

إنّمَا المَيْتُ مَن يعيشُ ذَلِيلا سَيّئاً بَالُهُ قَلِيل الرّجَاء [1]

والموت قتلاً في الحروب أمر يسعى له الجميع ويتمنونه " ولم يكونوا يرهبون شيئاً مثل الموت حَتْف الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع "[2] ، والرجل يفني عمره في القتال حتى أن ما حوله يحس بما كان يعانيه من قسوة ومشقة في أيام حياته ، وعن ذلك يقول العسكري : " وما كان الميت يكدّه في حياته فينبغي ألّا يذكر أنه يَبْكِي عليه مثل الخيل والإبل ... وإنما يذكر اغتباطهم بموته ، وقد أحسنت الخنساء حيث تقول :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ طَلْقَةٌ واسْتَرَاحَتْ فَلَيْتَ الخَيْلَ فارسُهَا يَرَاهَا " [3]

فالخيل عند الخنساء قد استراحت من العناء الذي كانت تلاقيه من الإجهاد من قبل صاحبها ، وعدم بكاء الخيل فكرة رفضها بدوي طبانة حيث يرى أن الخيل يجب أن تبكيه لفقدها الفارس السيد في قومه [4]، كما قالت الخنساء بما يناقض قولها الأول :

مَنْ كَانَ يَوْمَاً باكياً سَيّداً فَلْيبكِهِ بالعَبَرَات الحِرَارْ

وَلْتَبْكِهِ الخَيْلُ إذَا غُودِرَتْ بسَاحَةِ المَوْتِ عَدَاةَ العِثَارْ[5]

والعصر الجاهلي كان عصراً قبلياً يكثر فيه القتل " على ذلك كان يعيش العرب في جاهليتهم ... مفطورين على القتال ، مطبوعين على الحرب ... وكانت البطولة موزعة عليهم بين كبير وصغير وشيوخ ونساء حتى تكاد القبيلة... لم تعرف فى بيوتها واحداً لم يجرح أو لم يكن ذا صلة قريبة أو بعيدة بيوم من الأيام ... لقد كانوا جميعاً ينهضون بعبء القتال وقد فهموه أنه جزء من حياتهم الطبيعية ولذلك بات عاراً عندهم أن يموت المرء على فراشه... " [6] لئلا يفوته شرف الحصول على الخلود وتأكيد وجوده .

---

(1) الأصمعي ، الأصمعيات ، ص152

(2) د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ط 19 ، القاهرة ، دار المعارف ، (د . ت) ، ص64

(3) الصناعتين ، ص 131 - 132

(4) ينظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، القاهرة ، مطبعة مخيمر، 1954 م ، ص 303

(5) ديوانها ، دار بيروت ، دار صادر ، 1383 هـ - 1963 م ، ص 68 - 69

(6) د. زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ، ط2 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1970 م ، ص 40 - 41

وأكثر ما كان يخشاه الجاهليون في اعتقادهم تحكم الدّهْر بهم ويحملونه مسؤولية موت البشر وفنائهم ، وكانوا يشعرون تجاهه بالخوف والفزع عند نزول الشدائد ، تقول الخنساء :

تَبْكِي خُنَاسُ على صَخْرٍ وَحُقّ لَهَا إذْ رَابَهَا الدّهْرُ إنّ الدّهْرَ ضَرّارُ [1]

فالدّهر في نظرهم له السيطرة على حياتهم ومصيرهم ، وقد ذكر الله تعالى الذين يعتقدون أن للدّهر تدخلاً في مصير النّاس وبيّن حقيقة ابتعادهم عن طريق الحقّ في قوله تعالى : **{ وَقَالُواْ مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَالَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (23) }** [2] .

وكان من معتقدات الجاهليين أن أقوى الحيوانات افتراساً لايتسنى لها الوقوف أمام الدّهر وتعجز عن صده وردعه ، فكان ذلك يشعرهم بالضعف والانهزام .

فالموت أمرمكتوب على الجميع ولكلّ أجله " وأحكم بيتٍ قالته العربُ في وصف الموت بيتُ أميّة بن أبي الصّلت حيث يقول :

يُوشِكُ مَنْ فَرّ مِنْ مَنِيتِهِ في بَعْضِ غرّاتِه يُوافِقُهَا
مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُت هَرَماً لِلمَوتِ كَأسٌ وَالمَرْءُ ذائِقُها " [3]

فالمعنى في قول الشاعرأن الموت لامفرمنه وإن لم يمت الإنسان فتياً فسوف يموت هرماً .

وجاء في شعر فاطمة بنت الأحجم أن لا مفرمن الموت ، ولو كان المرء سيداً في قومه ، قالت في حيرة وهي تنادي إخوتها بعدم البعد عنها ، ثم تفهمت أنّ البُعد صار حقيقياً ، وأيقنت أنّ كلّ حي سوف يورد حوض الموت :

إخْوَتِـــي لا تَبْعَدُوا أبـداً وَبَلَى واللهِ قــدْ بَعِدُوا

---

(1) ديوانها ، ص47.
(2) سورة الجاثية ، آية 23.
(3) أبوعمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، تح أحمد أمين ، وآخرين ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، (د . ت) ، جـ 3، ص 182- 183.

لَو تَمَلَّتْهُمْ عَشِيرَتُهُمْ لاقِتِنَاءِ العِزّ أو وَلَدُوا
هانَ مِنْ بَعْضِ الزّرِيّة أو هَانَ مِنْ بَعْضِ الّذي أجِدُ
كُلّ مَاحَيٍّ وَإنْ أمِرُوا وَارِدُو الحَوْضِ الّذي وَرَدُوا [1]

وعرجت حليمة الحضرية تذكر شدة تخوفها من أن تأتي المنية زوجها، ولكن بعد وفاته فلتصب المنية من بدا لها ، قالت :

لَقَدْ كُنْتُ أخْشَى لو تَمَلَيْتَ خِشيَتي عَلَيْكَ اللّيالي مَرّهَا وانفِتَالَهَا
فأمّا وَقَدْ أصْبَحْتَ فِي قبْضَةِ الرّدَى فَشَأنُ المَنَايا فَلْتُصِبْ مَنْ بَدَالَهَا[2]

وللشاعرتين هِنْد وجُمْعَة بِنْتَي الخُس بن حابس أقوال عن الموت في الجاهلية ووصف حياة الإنسان الفانية ، قالت هِنْد :

لَقَدْ أيْقَنَتْ نَفْسُ الفَتَى غَيْرَ بَاطِلٍ وَإنْ عَاشَ حِيناً أنّه سُوفَ يَهْلِكُ
وَيَشْرَبُ بالكَأسِ الذعَافِ شَرَابُهَا وَيَرْكَبُ حَدّ المَوْتِ كُرْهَاً وَيَسْلُكُ
وَكَمْ مِنْ أخِي دُنْيَا يُثَمِّرُ مَالَهُ سَيُورِثُ ذَاكَ المَالَ رَغْمَاً وَيَتْرُكُ
عَلَيْكَ بأفْعَالِ الكِرَامِ وَلِينِهِم وَلاتَكُ مِشْكَاسَاً تَلِجُّ وَتَمْحَكُ
وَلاتَكُ مَزّاحَاً لَدَى القَوْمِ لُعْبَةً تَظَلُّ أخَا هُزْءٍ بِنَفْسِكَ تُضْحِكُ
تَخُوضُ بِجَهْلٍ سَادِرَاً فِي فكاهةٍ وَتَدْخُلُ فِي غيّ الغُواة وَتُشْرِكُ
ألا رُبّ ذِي حَظٍ يُبَصّرُ فِعْلَهُ وَآخَرَ مَصْرُوفٍ عَنِ الحَظِ يُوْفَكُ[3]

---

(1) أبوتمام حبيب بن أوس الطائي ، ديوان الحماسة ،(د . ب) ، طبعة محمّد سعيد الرافعي ، مطبعة السعادة ، 1331هـ 1913م ، جـ 1 ، ص 378

(2) مجهول ، مجموعة المعاني ، تح عبدالمعين الملوحي ، ط 1 ، دمشق ، دارطلا س ، 1988 م ، ص 305 - 306 وفيه قالت أعرابية.

(3) أبوالفضل احمد بن أبي طاهر، المعروف بابن طيفور ، بلاغات النساء، تح أحمد الألفي ، القاهرة ، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ، 1908م ، ص 63 - 64 ، الذعاف : السّمّ ، السّادر: الذي لايبالي بما يفعل .

وقالت جُمْعَة :

رَأَيْتُ بَنِي الدّنيا كَأَحْلامِ نَائِمٍ وَكَالفَيءِ يَدنُو ظِلُّهُ ثُمّ يَقْلصُ

وَكُلّ مُقِيمٍ فِي الحَيَاةِ وَعَيْشِهَا فَلا شَكّ يَوْمَاً أنّهُ سَوفَ يَشْخَصُ

يَفِرّ الفَتَى مِنْ خَشْيَةِ المَوْتِ والرَّدَى وَللمَوْتِ حَتْفٌ كُلّ حَيّ سَيَغْفِصُ

أتَاهُ حِمَامُ المَوْتِ يَسْعَى بِحَتْفِهِ وَقَدْ كَانَ مَغْرُوراً بِدُنْيَا تَرَبّصُ

كَأَنّكَ فِي دَار الحَيَاةِ مُخَلّدٌ وَقَدْ بَانَ مِنْهَا مَنْ مَضَى وَتُقُنّصُوا

لَقَدْ أفْسَدَ الدُّنْيَا وَعَيْشَ نَعِيْمِهَا فَجَائِعُ تَتْرى تَعْتَرِي وَتُنْغِّصُ

لا رُبّ مَرْزُوق بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ وَآخرَ مَحْرُوم يَجِدّ وَيَحْرِصُ[1]

ويتضح أن الجاهليين كانوا على دراية بحتمية الحياة والموت ؛ لأنّه أمر واقع أمامهم ، وإن تباينت المفاهيم لديهم ، ولكنهم يجهلون حقيقة ما وراء انقضاء الأجل .

---

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 63.
سيغفصُ : سيأخذه فجأةً .

المبحث الثاني :

مفهوم الحياة والموت في الشعر الإسلامي

كان الإنسان في العصر الجاهلي وقبل ظهور الإسلام إذاً في صراع حول مفهوم الحياة والموت وكان يتحدث عن الدّهر وتحكمه في الحياة والمصير، معتقداً أنّ له القدرة على الأحياء في هذه الدنيا ، ظاناً أن الحياة هي حياة دنيوية ، ولا يؤمن بحياة أخرى بعد الموت ، و يتحد الموت بالنهل من متاعها ، ويتمنى مثل هذه المتع لموتاه في القبور، من خلال الدعاء لهم بالسقيا ، وإن آمن بعضهم بالبعث بعد الموت فعلى طريقتهم حتى أنهم كانوا لا يعقرون الإبل على قبور موتاهم ، بل يتركونها بجانب القبر دون أكل وشرب حتى تموت ، وهذه الناقة تسمى البلية عند الجاهليين[1] اعتقاداً منهم أن الآخرة رحلة شاقة تتطلب وجود مثل هذه الإبل ليركبوها يوم البعث .

وقد تغيرت تلك النظرة المضطربة لمفهوم الحياة والموت التي كانت سائدة في العصر الجاهلي بمجيء الإسلام ، إذ أحدث انقلاباً كبيراً في حياة الناس ، وأضفى على النفوس أمناً وطمأنينة ، وهذا التغيير لم يكن في البداية بالأمرالهين على الناس حتى تشربت نفوسهم نفحات الإيمان ، وبات المسلمون منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يتطلعون إلى الخلود الذي ينتظرهم في جنان النعيم ، وقد كان الإسلام بحقّ نعمة للإنسانية ، **قال تعالى :**
{ ... اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً (4) } [2] **.**

وبذلك مضى المسلمون يعبدون الله حقّ عبادته ويرجون نعيمه ورضوانه ، وقد شعروا بعد إسلامهم أن لهم سنداً قوياً من الله تعالى ، وفي ذلك أنس وطمأنينة لا يشعر بها إلا من آمن بكلّ جوارحه إيماناً صادقاً بعيداً عن الأهواء والتزيف ، **قال تعالى : { الَّذِينَءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (29) }** [3]**.**

---

(1) ينظر ابن قتيبة ، المعاني الكبير في أبيات المعاني ، جـ 3 ، ص 1210
(2) سورة المائدة ، من الآية 4
(3) سورة الرعد ، آية 29

وما الرّثاء الذي قيل في وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام إلا بيان للمآثر الإسلامية السامية ، وبيان لمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد رثى كعبُ بن مالك الأنصاري حمزةَ بن عبد المطلب وحث أخته صفية بنت عبد المطلب على بكائه ، قال :

صَفِيةُ قُوْمِي ولا تعجزي وَبَكِّي النِّسَاءَ عَلَى حَمْزَة
وَلا تَسأمِي أن تُطِيلِي البُكا عَلَى أسَدِ اللهِ فِي الهَزّة
فَقَدْ كَانَ عِزَاً لأيْتَامِنَا وَلَيْثَ المَلاحِمِ فِي البزّة
يُرِيدُ بذَاكَ رضَا أحْمدٍ وَرَضْوَانَ ذِي العَرْشِ وَالعِزّة [1]

وقد "... وجد الشاعرفي الرثاء عزاء مستمداً من عار محتوم ينصب على الخصم ألا وهو خزى عذاب جهنم ، وقد يشعر الشاعر نقيض ذلك ، بعزاء كلي لوثوقه بأن الأموات الذين يرثيهم مأواهم جنات النعيم " [2] ، وهُم الشهداء الذين يموتون في سبيل الله ، قال عنهم **جلّ شأنه : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (153) }**[3]

فهؤلاء المؤمنون سيفوزون برضوان الله ، وينعمون بالجنة التي وعد بها سبحانه وتعالى الصالحين من عباده ، يقول كعبُ بن مالك :

وَقَتْلاهُم فِي جِنَانِ النّعِيمِ كِرَامُ المَدَاخِلِ وَالمخرَج
بمَا صَبروا تَحْتَ ظِلّ اللواءِ لِوَاءِ الرّسُولِ بذِي الأضْوج[4]

كما رثى حسان بن ثابت الأنصاري الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمَاً رَزِيّة هَالِكٍ رَزِيّة يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمّدُ
تقطّعَ فِيه مُنْزلُ الوَحي عَنْهُمُ وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيَنْجِدُ

---

(1) ديوانه ، تح سامي مكي العاني ، ط1 ، بغداد ، منشورات مكتبة النهضة ، 1386هـ - 1966م ، ص 216
(2) بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، تح إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، 1973 م ، جـ 2 ، ص332
(3) سورة البقرة ، آية 153
(4) ديوانه ، ص 187

يَدُلّ عَلَى الرّحْمَنِ مَنْ يقتدي به وَيُنْقِذ مِنْ هول الخزايا وَيُرْشِدُ

إمَامٌ لَهم يَهْديهمُ الحَقّ جَاهداً مُعلِمُ صدقٍ إنْ يُطيعُوه يَسْعدُوا[1]

فقد كان لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقعها الشديد على كافة المسلمين عامة وعلى أهل بيته خاصة ، قالت ابنته فاطمة رضي الله عنها :

مَاضَرّ مَنْ قدْ شَمّ تربة أحمدٍ أنْ لا يَشُمّ مُدْ الزّمَانِ غَوَالِيا

صُبّتْ عَلَيّ مَصَائِبٌ لو أنّهَا صُبّتْ عَلَى الأيَامِ صِرْنَ لَيَالِيا [2]

ومثلما بكت ابنته فاطمة رضى الله عنها عليه " بَكت أمّ أيْمَن فقيل لها : يا أم أيمن أتبكين على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؟ فقالت : أمَا والله ما أبكي عليه ألّا أكون أعلم أنّه ذهب إلى ماهو خيرٌ له من الدّنيا ، ولكن أبكي على خبرالسماء انقطع " [3] .

أما في العصر الأموي فقد اختلف مفهوم الحياة والموت عند المسلمين عمّا عُرف عنّه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من استشعار الحقّ ؛ لانقسامهم إلى فرق دينيه وسياسية سواء في فترة الصراعات القبلية أو فترة الصراعات السياسية ، فغدت نظرتهم للحياة والموت نظرة جزئية غلبت الآلام والأحزان على نفوسهم ، وهذا ما نراه عند فرقة الخوارج حيث كانُوا يتهافتون على حياض الموت مستصغرين الدّنيا ومهونين من شأنها ، ويرون أن الموت سوف ينقلهم إلى دار الخلود ، وانتظار الخلود الذي وراء هذه الحياة التي يحيونها يبعث في نفوسهم الأمل ، والموت بالنسبة لهم هو الدين الحقيقي الذي ينتصرون به على الحياة ؛ لتقصير المسافة بين الله والبشر[4] ، ولذلك أصبح رثاؤهم يتميز بكثرة الألفاظ التي تعبرعن شدة التعلق بالموت ، وهم في رثائهم هذا كانوا يمجدون الموتى ، ولا يرثونهم بمعنى الرّثاء بمفهومه الحزين الباكي عند غيرهم سواء في ذلك عند رثاء ذويهم

---

(1) ديوانه ، تح عبد الرحمن البرقوقي ، (د . ب) ، مطبعة السعادة ، (د . ت) ، ص 92- 93

(2) ابن سيد الناس ، منح المدح ، تح عفت وصال حمزة ، ط 1 ، دمشق ، دار الفكر ، 1988م ، ص358 وفيه نُسب الشعر لفاطمة رضي الله عنها كما نُسب فيه لعلي بن أبي طالب.

(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 311

(4) ينظر د. إحسان عباس ، ديوان شعر الخوارج ، ط 4 ، بيروت، القاهرة ، دار الشروق ، 1402هـ - 1982م ، ص 23 .

أوعند رثاء أنفسهم ، ونجد مثل هذا التهافت على حياض الموت عند النِّساء الخارجيات حين بيَّنّ موقفهن من مفهوم الحياة والموت ، تقول أمّ حكيم حباً في الموت و زهداً في الحياة :

أحمِلُ رَأسَاً قدْ سَئِمْتُ حَمْلَهُ

وَقدْ مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهُ

ألا فتىً يَحْمِلُ عَنِي ثِقلَهُ (1)

أما الشيعة الذين فجعوا جميعاً لمقتل علي بن أبي طالب وابنه الحسين ، فقد تحول رثاؤهم من ألفاظ لينة تتحدث عن الاستشهاد والنصر والفوز برضوان الله ونعيم الآخرة إلى ألفاظ شديدة تعبر عن الغضب والحزن على مقتلهما ، وأثرت الأحداث في حياتهم ، فظهرت في شعرهم صور تمثل ذلك الواقع الذي كان يمارس على أبناء آل البيت ممّا أدى إلى " إصباغ أدبهم بالحزن العميق ، والنوح و البكاء وذكرى المصائب والآلام " (2) .

هذا الاتجاه في الرثاء عند بعض الفرق الإسلامية يعد انحرافاً عن المفهوم الحقيقي للحياة والموت ، وعن النهج الذي أمرالله عزّوجل باتباعه ، وأوصى رسوله صلى الله وعليه وسلم به.

وعن الحياة والموت يقول أحد التابعين حين قيل له " كيف أصبحتَ ؟ قال : في أجلٍ منقوصٍ ، وعَمَلٍ محفوظٍ والموتُ في رقابنَا ، والنارُمِنْ ورائنا ، ولا ندري ما يفعَلُ الله بنا " (3)

وذكر الصحابي النعمانُ بن بشيرالأنصاري حال الإنسان مع الموت فقال : " مثل الإنسان والموت مثل رجل له ثلاثة خلاّن ، قال أحدهم : أنا مالك خد مني ما شئت ، وأعط ما شئت ، وقال الآخر : أنا معك أحملك وأضعك ، فاذا متّ تركتك ، وقال الآخر: أنا معك أدخلُ وأخرج معك حَيِيتَ أو مُتّ أمّا الأول فمالهُ ، وأمّا الثاني فعشيرته ، وأما الثالثُ فعمله يدخلُ معه ويخرجُ معه " (4) .

---

(1) أبو الفرج الأصبهاني على بن الحسين ، الأغاني ، (د. ط) ، (د. ب) ، دار إحياء التراث العربي ، (د . ت) ، جـ 6 ، ص 150

(2) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ط 11 ، بيروت ، دارالكتاب العربي ، 1975م ، ص275

(3) أبوحيّان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، تح إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء ، (د .ت) ، جـ 2 ، ص 435

(4) نفس المصدر ، جـ3، ص 428

ولئن كُرِهَ الموت ، فذلك ليس حباً في الحياة ونعيمها ، بل لأجل الزهد فيها ، والتفرغ لعبادة الله ، لا سيما في آخر العمر ، قيل " ... دخل الوليدُ بن عبد الملك المسجدَ ، فَخَرج كلّ من كان فيه إلّا شيخاً قد حَنَاه الكِبَر ، فأرادوا أن يُخْرِجُوه ، فأشار إليهم أن دَعُوا الشيخ ؛ ثم مضى حتى وَقَفَ عليه فقال له : يا شيخُ ، تحِبّ المَوْت ؟ قال : لا يا أميرَ المؤمنين ، ذَهَبَ الشَّبَاب وشَرّه ، وأتَى الكِبَر وَخَيْرُه ، فإذا قمتُ حَمِدْتُ الله ، وإذا قعدتُ ذكرتُه ، فأنا أحِب أن تَدُوم لي هاتان الخَلتان" [1]

وهذا كله إنما يدل على قوة الإيمان في نفوس المؤمنين ، الذين اتبعوا النهج القويم وسلكوا الطريق المستقيم ، فلم تكن الحياة عندهم نعيماً يقبل عليه الإنسان ، بل كانت دفاعاً عن دين خالد وعقيدة سمحاء ، وقد أصبح الموت بالنسبة لهم أمراً مرغوباً للدفاع عن دين الله والاستشهاد في سبيله ، بعد أن فهموا القصد من وراء الحياة ، وأن الخلود الحقيقي والدائم عند الله في جنات النعيم يوم القيامة .

---

(1) ابن عبدربه ، العقد الفريد ، جـ 3 ، ص 193 .

الفصل الثاني:

شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الجاهلي

المبحث الأول:

مظاهر شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الجاهلي ومميزاته

أولاً : الحث على أخذ ثأر قتلى أيام العرب

ثانياً : وصف وقائع أيام العرب وشجاعة المرثي

إن قول الشعر يعتبر من الحالات العاطفية التي تمكن الإنسان من التعبيرعن مكنونات نفسه بما أودع الله فيه من أسرار الحياة ، من انفعالات وعواطف وأحاسيس ، تظهر على سلوك البشر كلّ حسب الطبيعة التي جبل عليها ، ويَمُرُّ الإنسان في كلّ مراحل حياته بالكثير من الأحداث بخيرها وشرها ، ولا يستطيع المرءُ تجاهل ما قد يحدث له من تأثيرات إيجابية أو سلبية ، فيجد نفسه مضطراً للتعايش معها بكلّ تبعاتها ، لاسيما إن كانت المواقف مليئة بالأحزان والآلام ، فالشعرعندئذٍ حاجة ملحة لمن ينشد التعزية والصبر، وبذلك يكون الرثاء عندما يتعلق الأمر بالموت هو الغرض الذي يلجأ إليه الشاعر؛ لتصوير انطباعاته حول الشيء الذي أثر في وجدانه داخل إطار المصائب التي تلحق بالبشر وتؤثرعلى حياتهم .

ولاشك أن الرثاء مختص من حيث الأساس ببكاء الموتى وتصويرالحالة النفسية التي أدت اليها فاجعة الوفاة ، ولكن هناك متطلبات أخرى للرثاء تتعدى النواح وذرف الدموع تسفر عن الحاجة الملحة لذكر ما يتصل بالمرثي في حياته .

أولاً : الحث على أخذ ثأر قتلى أيام العرب

بالنظر إلى شعر الرثاء النسائي نلمح فيه قضايا وموضوعات نسجتها الشواعر تحمل أفكارا عن العادات والقيم الجاهلية ، ومن بين تلك الموضوعات التي رُصدت في شعرهن مبدأ الأخذ بالثأر الذي كان يعدُّ تركه سبَّة وعاراً ، فكانوا يثأرون من غرمائهم ، ويستغيثون بالقبائل الأخرى ويرفضون الديات ، وكان للمرأة نصيب الأسد في تحميس أبناء القبيلة للظفر بالثأر من الأعداء وعدم التقاعس عنه ، لذا نجد لديها جملة من المقطوعات تحث فيها الرجال على ذلك في الحروب والغارات وقد سجلت المصادر شعراً لنساء شواعر كان قد همَّ ذويهن بقبول فدية القتيل فواجهن ذلك بالرفض والاستنكار .

والشعر النسائي الذي بين أيدينا ، كان أكثره قد قيل في الوقائع الحربية والأيام التي قامت بين القبائل ، أو في القبيلة الواحدة ، وكانت العصبية القبلية من أهم عناصر الحياة العربية في العصر الجاهلي ، وكثرت الحروب بين القبائل ، وقد رصدت المرأة في شعرها أهم المعالم والصور الحربية سواء في شعر الأيام الجاهلية أو ما كان من تعصب دموي ، وهو ما حفز الشواعر لإطلاق الزفرات والآهات من منطلق التناحر وتعدد الخصومات .

توجد لوحات فنية متعددة في كتب التراث تنسب للمرأة سواء أكانت شاعرة بحق أو أن تلك الوقائع حركت وجدانها لتعبرعن حيرتها وجزعها في لحظة التفجع على قتلى

أيام العرب في العصر الجاهلي .

ولعل أولى تلك المشاهد الحربية التي أفرزت المقطوعات الشعرية النسائية حرب البسوس وقد تعددت الروايات حول تفاصيل سبب نشوبها ، إلا أن المجمع عليه أن هذه الحرب التي استمرت أربعين عاماً ، كانت بسبب ناقة البسوس بنت مُنقذ التميميّة ـ خالة جساس وجليلة ابني مرة ـ السراب وفصيلها ـ ، الذين قتلهما كليب بن ربيعة ، زوج جليلة بنت مرة .

فقد بدأت البسوس بالتحريض على أخذ الثأر وحين رأت الناقة " ... قَذفت خِمَارها عن رأسها وصاحت واذلاه ! واجاراه ! "[1] .

وبعد سماع جساس بن مرة لنداء خالته البسوس ، هبَّ لأخذ الثأر، فقتل كليباً ومن ذلك اليوم نشبت الملحمة التاريخية بين قبيلتي بكر وتغلب ، وقد أزهقت فيها العديد من الأرواح في ظل العصبية القبلية ، فثارت قبيلة تغلب لمقتل كليب وتوعدت قبيلة بكر بالويل والثبور ، فما كان من جليلة زوجة كليب إلا أن تطلق زفرة الحزن على هذا التمزق الذي هم فيه حين طردتها أسماء أخت كليب بن ربيعة من مأتم أخيها ، قالت :

يا أبْنَةَ الأقْوَامِ إنّ شِئْتِ فلاَ ... تَعْجَلي بالَّوْمِ حَتَّى تَسْألي
فإذَا أنْتِ تَبَيَّنْتِ التي ... عِنْدها اللَّوْمُ فلُومي وأعْذِلي
إنْ تَكُنْ أُخْتُ امرِيءٍ ليمَتْ عَلَى ... شَفَقٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فافعَلِي
قَتْلُ جَسَّاسٍ عَلَى وَجْدي بهِ ... قامِعٌ ظَهْري وَمُدْنٍ أجَلي[2]
لَوْ بعَيْني فدِيَتْ عَيْنٌ سوَى ... أُخْتِها فانفقأتْ لَمْ أحْفِلِ
تَحْمِلُ العَيْنُ قَذَى العَيْنِ كَمَا ... تَحْمِلُ الأمُّ قَذَى ما تَفْتَلي
يا قَتِيلاً قوَّضَ الدّهْرُ بهِ ... سَقْفَ بَيْتَيَّ جَمِيعاً مِنْ عَل
هدَمَ البَيْتَ الذي أستَحْدثْتُهُ ... وَبَدا في هَدْمِ بيتِي الأوَّل
وَرَمَانِي قَتْلُهُ مِنْ كَثَبٍ ... رمْيَةَ الْمُصْمَى بهِ المُسْتَأصَل
يا نِسَائِي دُونَكُنَّ اليَوْمَ قَدْ ... خَصَّني الدّهْرُ برُزْءٍ مُعْضِلِ
خَصَّنِي قَتْلُ كُلَيبٍ بلَظىً ... مِنْ وَرَائِي وَلَظىً مُسْتَقْبلي
لَيْسَ مَنْ يَبْكِي لِيَوْمَيْن كَمَنْ ... إنَّما يَبْكِي لِيَوْمٍ يَنْجَلِي

---

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ 5 ، ص 203
(2) في التعازي والمراثي للمبرد " ومغن أجلي " ، صوابه من الأغاني ، جـ 5 ، ص 62

درك الثَّأر شَافِيهِ وفي ... دَرَكي ثْأريَ ثكلُ المُثْكِل
ليْتَهُ كَانَ دَمِي فاْحتَلَبُوا ... دركاً مِنْهُ دَماً مِنْ أكْحَلِي
جَلَّ عِنْدي فِعْلُ جَسَّاسٍ فيَا ... حَسْرَتَا عَمَّا انْجَلَتْ أو تَنْجَلي
إنَّني قاتِلــةٌ مَقْتُولة ... فَلَعَلَّ اللهَ أنْ يَرْتَاحَ لِي[1]

جسدت الشاعرة من خلال شعرها معاناتها المزدوجة ، بين قتيل ومقتول ، والقتيل هو زوجها والقاتل أخوها ، سندها بعد الزوج ، وعلى ذلك تكون المعاناة مضاعفة وقاسية عليها ، يقول ابن رشيق : " ... ما أشجى لفظها وأظهر الفجيعة فيه ... "[2] ، والكارثة التي حلت بهم ستصيب القبيلتين بكر وتغلب ، وذلك لأن طلب الثأر لكليب من قبيلتها ، أمر كان قد توعد به أهله فالمصاب جُلُّ عظيم ، وإن كنا لا نلمس في أبياتها حثاً لأخذ الثأر؛ لأن القاتل هو أخوها فهي تقول إن درك الثأر يشفي غليل من يطلبه ودركها ثأرها سينتهي بها لملازمة الحزن ، ولكنها تتوقع أخذ الثأرمن أخيها ، وقد ذكرعبدالرؤوف مخلوف " أن ليس الأمرفي هذه القصيدة أنها ترثي زوجها، ولا أن فقده هو وحده الذي أجج في قلبها النار ، ففاض لسانها بذلك الشعر ... فالأزواج عند النساء كثير ، إنما الأمر هنا أمر الموقف المتشابك ، والشر المتوقع ، والثأر المنتظر " [3].

أما جساس قاتل كليب فقد كان مغتراً بنفسه ، فبعد أن عاد لقومه لقيته أمه فقالت " ... ما وراءك ؟ قال : ورائي ، والله ، أني قد طعنته طعنةً لَتَشْتَغِلَنَّ منها شيوخ وائل رقصاً ، قالت : أقتلتَ كليباً ؟ قال : نعم ، قالت واللهِ لوَدِدْتُ أنك وإخوتك كنتم مِيتُّمْ قبل هذا ، ما بي إلاّ أن يتنـــاكد بي أبنـــاء وائل " [4] إلا أن ابن كليب كان قد أخذ بثأر أبيه من خاله جساس ، حيث ذكر ابن حبيب أن كليباً زوج جليلة بنت مرة قُتل " وهي حامل ... فولدت أخت جساس غلاماً فسمته الهجْرس ، فرّباه جساسٌ فلم يعرف أباً غيره ، وزوجه ابنتَه ، ... [وكان] بين الهجْرس وبين رجلٍ من بكر ابن وائل كلام ، فقال له البكري ما أنت بمنته حتى نلحِقك بأبيك ... [ثم] أخذ الهجرس يوسط رمحه ثم قال " فرسي وأدُنيه ، ورُمحي ونَصلْيه ، وسيفي وَغَرْبَيْه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه " ثم طعن جساساً ، فقتله ولحق بقومه ، فكان آخر قتيل في بكر بن وائل " [5] .

---

(1) المبرد ، التعازي والمراثي ، ص291 - 292 ، وفيه أن الشعر لماوية بنت مرة والمُثكلُ :التي لازمها الحزنُ ، والأكحلُ : عرقٌ في الذراع يُفصدُ .
(2) العمدة ، جـ 2 ، ص 153
(3) ابن رشيق ونقد الشعر ، ط1 ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، 1973م ، ص 459
(4) المبرد ، مصدرسابق ، ص 296 - 297
(5) ابن حبيب ، أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام ، ص131 - 132

فقد كان أخذ الثأر مطلباً ملحاً عند القبائل العربية ، وإليه يسعى الجميع ، وقد دارت رحى الحرب في أغلب القبائل والعشائر ، فبينما نجد قبيلة تحرض على أخذ الثأر ، نجد قبيلة أخرى تعاني ويلاته ، فيدفع بهم إلى قول الشعر كلٌّ حسب عواطفه وانفعالاته .

وفي وقعة حاجر بعد انقضاء حرب داحس والغبراء ، قتل حصن بن حذيفة بن بدرالفزاري الذبياني ـ ابن سيد قبيلة ذبيان ـ ، فقالت أخته هند :

تَطاوَلَ لَيْلي لِلْهُمُوم الحَوَاضر ... وَشَيَّبَ رَأسِي يَوْم وَقْعَةِ حَاجِر
لَعَمْري وَمَا عُمْري عَلَيَّ بِهَيِّنٍ ... ولاحَالِفٌ بَرٌّ كَآخَرَ فَاجِر
لَقَدْ نَال كُرْزٌ يَوْمَ حَاجرَ وَقْعَةً ... كَفَتْ قَوْمَهُ أُخْرَى اللَّيالي الغَوَابر
فَللَّهِ عَيْنَاً مَنْ رَأى مِثْلَهُ فَتىً ... تَنَاوَلَهُ بالرُّمْح كُرزُ بنُ عَامِر
فَيَا لبني ذُبْيانَ بَكُّوا عَمِيدَكُمْ ... بِكُلِّ رَقيق الحَدِّ أبْيَضَ بَاتِر
وكُلِّ رُدَيْني أصَمَّ كُعُوبُهُ ... يَئُوءُ بنَصْلٍ كَالعَقِيقَةِ زَاهِر
وكُلِّ أسِيلِ الخَدِّ طاوٍ كَأَنَّهُ ... ظَلِيمٌ وَجَرْدَاءِ النَّسَالَةِ ضَامِر
فَإن أنْتُمُ لم تُصْبحُوا القَوْمَ غَارةً ... يُحَدِّثُ عَنْهَا وَارِدٌ بَعْدَ صَادِر
وَتَرْمُوا عُقَيْلاً بالَّتي لَيْسَ بَعْدَهَا ... بَقَاءٌ فَكُونُوا كَالإماءِ العَواهِر[1]

كان أخذ الثأر عند الشواعر بمثابة نموذج دال على دموية الحروب الجاهلية ، وقد " كانت العرب ، إذ قتل منها شريف ، لا تبكي عليه ولا تندبه النساء إلى أن يقتل قاتله ، فإذا فعل ذلك خرجت النساء وندبته "[2] ، ومن البديهي أن تعكس نتائج هذه الحروب ، شاعرية المرأة ، وأن تظهر مدى براعتها في فنون القول ، لاسيما في شعر النساء من القبيلة الواحدة .

ومن الأيام التي ظهرت فيها أشعار النساء ، يوم شعب جبلة الذي عزم فيه لقيط بن زرارة التميمي ـ سيد بني تميم وشاعرها ـ على أخذ ثأر أخيه معبد بن زرارة من بني عامر بن صعصعة[3]، فلقي لقيط مصرعه بطعنة من شريح بن الأحوص[4]، فقالت ابنته دختنوس وقد جزت قرونها حزنا على مقتل أبيها[5] :

---

(1) ابن طيفور، بلاغات النساء ، ص 16 - 17 .
(2) جمال الدين بن نباتة المصري ، مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، تح عمر موسى باشا ، (د . ب) ، (د . ن) ،1972 م ، ص 134 .
(3) ينظر أبوعبيدة معمر بن المثنى التميمي ، شرح النقائض جرير والفرزدق ، تح محمد إبراهيم حوّر ووليد محمود خالص ، ط 2، أبوظبي، منشورات المجمع الثقافي ، 1998 م ، جـ 2 ، ص414 .
(4) ينظر ابن رشيق ، العمدة ، جـ 2 ، ص204 .
(5) ينظر أبوعبيدة ، مصدر سابق ، جـ 3 ، ص 1031

ألاَ يالَهَا الوَيْلاتُ وَيْلاتُ مَنْ بَكَى ... لِضَرْبِ بَنِي عَبْسٍ لَقِيطاً وَقَدْ قضَى
لَقَدْ ضَرَبُوا وَجْهاً عَلَيْهِ مَهَابَةٌ ... وَمَا تَحْفِلُ الصّمّ الجَنَادِلُ منْ رَدَى
فَلَوْ أَنَّكُم كُنْتمْ عَدَاةَ لَقِيتُمُ ... لَقِيطاً صَبَرْتُمْ لِلأَسِنَّةِ وَالقَنَا
غَدَرْتُمْ وَلَكِن كُنْتُمُ مِثْلَ خُضَّبٍ ... أَصَابَ لَهَا القَنَّاصُ مِنْ جَانِبِ الشَّرَى
فَمَا ثَأرُهُ فِيكُمْ وَلَكِنَّ ثَأرَهُ ... شُرَيْحٌ أَأَرْدَتْهُ الأَسِنَّةُ أَمْ هَوَى
فَإِنْ تُعْقِبِ الأَيَّامُ مِنْ عَامرٍ يَكُنْ ... عَلَيْهِمْ حَرِيقاً لا يُرَامُ إِذًا سَمَا
لِيَجْزِيَهُم بالقَتْلِ قَتْلاً مُضَعَّفاً ... وَمَا فِي دِمَاءِ الحُمْسِ يامَالُ مِن بَوَا
وَلَوْ قَتَلَتْنَا غَالِبٌ كَانَ قَتْلُهَا ... عَلَيْنا مِنَ العَار المُجَدِّع للعُلا
لَقَدْ صَبَرَتْ لِلْمَوتِ كَعْبٌ وحَافَظَتْ ... كِلابٌ وَمَا أَنْتُم هناكَ لِمَنْ رَأى[1]

بكت دختنوس هزيمة أبيها أمام الأعداء ، وكان من قبل يتمتع بالشجاعة والإقدام ، وقد وجهت لومها لمن مثل به بعد موته فهي عازمة على أخذ ثأره ولو بعد حين .

ومن أخبار الأيام الأخرى التي ذكرت فيها أبيات الشواعر يوم النِّسار ، وكان بين بني تميم وأبناء عمومتهم بني ضبَّة وبني عبد مَنَاة ، وكان قد أصابت بنو ضبَّة نفراً من بني تميم فعزمت تميم على محاربتهم ، وكان بنو عامر بن صعصعة حلفاء تميم[2] ، فقتل قدامة الذائد بن عبدالله بن سلمة بن قشير[3] من بني عامر، فقالت أخته الفارعة ترثيه سائلة الله أن يشفي غليلها :

شَفَى الله نَفْسِي مِنْ مَعْشَرٍ ... أَضاعُوا قدامَةَ يوم النِّسَار
أَضَاعُوا فَتَىً غَيْرَ جَثَّامَةٍ ... طويلَ النِّجادِ بَعِيدَ المَغَار
يُنَبِّي الفَوَارِسُ عَنْ رُمْحِهِ ... بطَعْنٍ كأفواه كعْب المِهَار
وَفَرَّتْ كِلابٌ على وَجْهِهَا ... خَلا جَعْفَرٍقبل وَجهِ النّهَار[4]

أثنت الشاعرة على شجاعة المرثي وعدم تقاعسه عن خوض المعارك والاستبسال فيها .

---

(1) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 11 ، ص 145 ، الخُضَّبُ : النّعام ، والقَنَاصُ : الصَّيَّادُ ، والشرى : موضع تنسب فيه الأُسدُ ، ارْدَاهُ : أهلكهُ ، عامر : بني عامر بن صعصعة ، الحُمسُ : الشجعان ،البواء : السواء بنوغالب: بطن من بني عامر بن صعصعة ، كعب وكلاب : من بطون قيس بن عيلان .
(2) ينظر أبوعبيدة ، النقائض ، جـ 2 ، ص 414 - 415
(3) ينظر نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 557
(4) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 179 ، والجثامة : النؤُومُ ، والمُهْرُ : ولد الفرس

وترثي النساء الشواعر الأموات من غير أبناء عشيرتهن ـ لسبب ما ـ كما حدث مع صفية بنت الخرع التَّيْميّة حين قتل رجلٌ من اليمن النعمانَ بن جسَّاس رئيس الرّباب يوم الكلاب الثاني ، وكان النعمانُ أسيراً عند بني تيم قبيلة الشاعرة [1] ، فقالت في رثائه :

نِطاقُهُ هُنْدُوَانِيّ وَجُبّتُهُ فِضْفَاضَةٌ كَأَضَاةِ النّهْيِ مَوْضُونَه
غَابَتْ تميمٌ فلم تَشْهَدْ فوَارسُهَا ولم يكونوا غدَاة الرّوْع يُحْزُنَه
لَقد أخذنا شِفاءَ النّفس لو شُفِيت وَمَا قتلنا به إلّا امرَءا دُونه[2]

فالشاعرة رثت رجلاً من غير أبناء قبيلتها ، وقد ظهر واضحاً اعتزازها بأخذ ثأره من قاتله .

ثم كان يوم المروت الذي قُتل فيه بجير بن عبدالله بن سلمة بن قشير ـ من بني عامر ـ على يد قاتله قعنب بن عتَّاب بن هرميّ بن رياح بن يربوع [3] ، فقالت ابنة بُجَيْر ترثيه :

فمَا كَعْبٌ بكَعْبٍ إنْ أقامَتْ وَلَمْ تَثْأَر بفارسِهَا القتِيل
وَدَحْلُهُمُ يُنَادِيهِمْ مُقِيماً لَدَى الكَدّام طلاب الذحُول[4]

وبهذه العبارات تتكرر صيغ الرثاء المتمثلة في الحث على أخذ الثأر ، فالشاعرة حرضت في رثائها أبناء القبيلة على الثأر من قاتليه ، وقد أرسلت زفرة حارة تهيج فيها حمية الرجال وتنادي بالانتقام من العدو وغسل العار الذي لحق بالقبيلة .

وفي أيام أخرى للقبائل الجاهلية ظهرت عدة مقطوعات للنساء الشواعرمنها ماقالته عاصية البولانية ترثي أبناء قومها وتطالب بثأرهم ممن قتلوا وشردوا قبيلتها :

أعَاصِيَ جُودِي بالدُّمُوع السَّواكِبِ وَبكِّي لَكِ الوَيْلاتُ قَتْلَى مُحَارب
فَلَوْ أنَّ قَوْمِي قَتَّلَتْهُمْ عِمَارَةٌ مِنَ السَّرَوَاتِ والرُّؤُوس الذوَائِب
صَبَرْنَا لِمَا يَأتي به الدَّهْرُ عَامِداً وَلَكِنَّمَا أثْأَرْنَا في مُحَارب
قبيلٌ لِئَامٌ إنْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِم وَإنْ يَغْلِبُونَا يُوجَدُوا شَرَّ غَالِب[5]

---

(1) ينظر أبوعبيدة ، النقائض ، جـ 2 ، ص 332 ، جـ 1 ، ص322
(2) نفس المصدر ، جـ 1 ، ص326
(3) ينظر نفس المصدر ، جـ 2 ، ص557 .
(4) أبوعُبيد ، عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، معجم مااستعجم ، تح مصطفى السّقا ، بيروت ،عالم الكتب ، (د . ت) ، جـ 3 ، ص 118 - 119 ، الكدّام : هو كدام بن نُخيلة المازنيُّ ، وثب على بجير ثم أتى قعنب فقتل بجيراً ، أبوعبيدة ، النقائض ، جـ 1، ص235
(5) أبوتمام ، ديوان الحماسة ، جـ 2 ، ص248 ، ومحارب : قبيلة محقورة عند العرب ، السروات : الرؤساء .

فالشاعرة بقدرما رثت أبناء قبيلتها ، أخذت تهجو القبيلة التي هاجمتهم ، ووصفتهم بالضعف والجبن ، ورثاؤها هذا يوضح الصراع القبلي والعداوات التي كانت بين القبائل الجاهلية في الحروب التي نشبت بينها .

وتوعد المرأة رجال قبيلتها بالإقبال على أخذ الثأر جاهدة أن تنمي في نفوسهم قيم القوم ، ويتجلى هذا الدور في إضرام نار الحرب من خلال ما تنشده من أشعار تحض على الانتقام والدفاع عن القبيلة بمفهوم الجاهليين للمروءة العربية .

ومن ذلك ما قالته ابنة تميم بن الأختم في رثاء أبيها حين قتله ابن عمه عقبة بن هبيرة الأسدي ، وقبول قومه الدية من القاتل[1] :

إنْ يُقْتَلْ عُقَيْبَةُ يَا لَقَوْمٍ ... يَسُرُّ مَعَاشِراً وَيَسُلُّ دَاءْ
وإنْ يَسْلَمْ عُقَيْبةُ يَا لقومٍ ... يكُنْ خَدَماً لِعُقْبَةَ أوْ إمَاءْ
لَحَا اللهُ التي تحْتَاجُ مِنَّا ... وَعُقْبَةُ سَالِمٌ مِنَّا ردَاءْ[2]

وقالت :

أعُقَيْبَةُ لا ظَفِرَتْ يَدَاكَ ألم يكُنْ ... دَرْكٌ لحِقّكَ دُوْنَ قتْلِ تَمِيم
أعُقَيْبُ لو نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ ... كالسَّيْفِ أهْوَنُ وَقْعَةَ التَّصْمِيم
فَلَيَلْحَقَنَّكَ في الْعَشِيرَةِ لامة ... وَلَتَقْتَلَنَّ بِهِ وَأنْتَ دَمِيمُ[3]

ومن الشعرالتحريضي الذي يعني بالتشفي وأخذ الثأر ، ما قالته ابنة مرة بن عاهان الحارثي ـ سيد بني الحارث ـ :

إنَّا وباهلة بن يَعْصُرَ بَيْنَنا ... دَاء الضَّرَائِر بغْضَةً وتقافي
مَنْ يَثْقفُوا منا فليس بوائلٍ ... أبَداً ، وَقَتْلُ بني قُتَيْبة شَافي
ذَهَبَتْ قُتَيْبة في اللقاءِ بفَارسٍ ... لا طَائِشٍ رَعْشٍ ولا وَقَافِ[4]

---

(1) ينظر ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 180 .
(2) الموضع نفسه .
(3) الموضع نفسه ، وفي البيت إقواء وهو اختلال الروى بكسر وضم وهو عيب قافوي .
(4) أبو محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغندجاني ، فرحة الأديب ، تح محمد علي سُلطاني ، دمشق، دار النبراس ، 1980م ، ص 141

وكما رثت ابنة مرة أباها ، رثته مارية بنت الديان ، تستنكر قتله وتحرض قومها على أخذ الثأرلسيدهم ، قالت :

قُلْ للفوارسِ لا تَنِلْ أعْيَانَهُمْ ... مِنْ شَرّ مَا حَذِروا وَمَا لَمْ يُحْذَر

التَّاركينَ أبَا الحُصَيْنِ وَرَاءَهُمْ ... والمُسْلِمينَ صلاءَةً بنَ العَنْبر

لَما رَأيْتُ الخَيْلَ قدْ طافتْ بهِ ... شَنَجِتْ شِمَالُكَ في عِنَانِ الأشْقَر

وَلَقدْ بَكَيْتُ على شَبَابِكَ حِقْبَةً ... حتَّى كَبِرْتَ وَلَيْت أنْ لَمْ تَكْبَر

يَا مَعْشَرَ الأبْنَاءِ إنْ فُزْتُمْ بهَا ... فُوزَ الزَّبيْرَةِ جَمْعُنَا لَمْ يُثْأَر

فَأَبُوكُمُ قَروٌ شَرَى كُهْلانَكُمْ ... وَعَمُودُكُمْ صُلْبٌ كَريمُ المَكْسَر[1]

وعلى نفس النهج يمكن أن نضم هذه الأبيات لبنت حكيم بن عمرو العبدي في ميدان الرثاء القبلي ، فيكشف عن موقف المرأة الشاعرة في تهديد قومها قبل الأعداء بتلك النعوت التي تجعل الرجال في حالة من الذلِّ والضعف أسوة بنساء القبيلة حين تقول :

أيَرجُو رَبيعٌ أنْ يَؤوبَ وَقَدْ ثَوَى ... حُكَيْمٌ وأمْسَى شِلوهُ بمطبَق

فَإنْ كُنْتُمْ قَوْما كِراماً فَعَجِّلُوا ... لَهُ جُرأةً من بَأسِكُمْ ذَاتَ مَصْدَق

فَإنْ لم تَنَالُوا نَيْلَكُمْ بسُيُوفِكُمْ ... فَكُونُوا نِسَاءً في الملاءِ المخَلَّق

وَقُولُوا رَبيعٌ رَبَّكُمْ فاسْجُدوا لَهُ ... فَمَا أنْتُمُ إلاَّ كَمِعْزَى الجَبَلَق[2]

فأخذ الثأركان هو الهاجس الذي يسيطر على عقولهم ، وكان يسلب منهم أمنهم واستقرارهم ، ويجعلهم يعيشون حالة الترقب والخوف ، وأعتقد أن ذلك يصدر منهم لأسباب قد تراها النساء تهاوناً على حياة الجميع عندما تقبل دية القتيل ، وكأنَّهنَّ بذلك يتقين شرَّ الأعداء خوفاً من التمادي في القتل واستمراره مرات عديدة دون رادع ، أو أن هذا الحرص ينبع من خشيتهم أن تكون الديات مشجعاً لهم على القتال .

---

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 172 ، وفيه أنها مارة بنت الديان
وقد ورد اسمها في كثير من المصادر مارية بنت الديان .
(2) أبو عبادة البحتري ، الحماسة ، ط1 ، مصر ، المطبعة الرحمانية ، 1929 ، ص 35 .

ومن المواقف التي ذكرت عن الدية ، والتي تنم عن التمادي في القتل قيل إنه " ... مرضت عجوزٌ من بني نمير فأتوها بعطاء ابنها ، وكان غائباً ، فقالوا : هذا عطاء ابنك ، وقد نقصناه درهمين ، قالت : ولِمَ ؟ قالوا : قَتلَ رجلٌ من بني نُميرٍ رجلاً من بني سَلول ، فحملنا الدّية شيئاً تراضوا به ، فتناولت درهمين آخرين ، فألقتهما إليهم وقالت : قولوا له يقتل آخرَ ، وادفعوا هذين في الدية ، فضحكوا وخرجوا فما غابوا حتى ماتت " [1] .

ثانياً : وصف وقائع أيام العرب وشجاعة المرثي

بما أن الحرب تمثل دعامة أساسية في حياة الجاهليين ، فإننا نجد في الشعر النسائي في قصائد ومقطوعات الرثاء حديثاً يتصل بوصف المعارك والأدوات والمعدات الحربية ، عكست فروسية المرثي في ميادين القتال وبيَّنت وقائع الصراع الذي عانت ويلاته الكثير من القبائل العربية في تلك الحروب التي خاضتها " وكان بذلك شعرهم الجاهلي أصدق وصفاً للحرب من شعرالحرب الذي بعد الجاهلية "[2] ، وبجانب عرض الشاعرة لتفاصيل الوقائع ، فهي تمدح شجاعة المرثي لإحساسها بمرارة الفقد ، ومن بعده لن تكون إلا أسيرة ذكراه والتعزي بذكره .

مر بنا أن أغلب الشعر الرثائي قيل في الأيام الجاهلية ، لذا فإننا نجد بعض الأبيات للشواعر وقد وصفن خوض المرثي لغمار الحرب ، لتلتقي خيوط موقف النساء من أخذ الثأر ، بموقفهن في وصف تلك الوقائع وأسلحتها لتنسج لوحة فنية متكاملة لحروب العصرالجاهلي .

ولَميَّة بنت ضرار الضَّبيّة [*] ـ ابنة سيد قبيلة بني ضبَّة ـ رثاء في أخيها قَبيصَة قالت فيه تصف شجاعته وفروسيته في يوم الكلاب الثاني :

مَا بَاتَ مِنْ لَيْلَةٍ مُدَّ شدَّ مِئْزَرَهُ قُبَيْصَةُ بنُ ضِرَار وَهْوَ مَوْتُورُ
لا تَعْرِفُ الكَلِمُ العَوْرَاءُ مَجْلِسَهُ ولا يَذُوقُ طعَاماً وَهْوَ مَسْتُورُ
الطاعِنُ الطعنةَ النجلاءَ عن عُرُضٍ كَأَنَّها قَبَسٌ باللَّيْلِ مَسْعُورُ[3]

---

(1) المبرد ، التعازي والمراثي ، ص 256 .
(2) زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ، ص55
(*) ذكرها أبو تمام ميّة بنت ضرار ، وجاءت عند البحتري أميّة بنت ضرار ، وعند ابن طيفور حمدة بنت ضرار .
(3) البحتري ، الحماسة ، ص 434 ، والعوراءُ : الكلمة القبيحة والفِعلة القبيحة .

جاءت أبيات الشاعرة إطاراً فنياً جمعت فيها مختلف المُثل العليا ، وتحدثت فيها عن دورالمرثي في الحروب ، وفي موضوع آخر قالت :

لا تَبْعَدَنَّ وكُلُّ شَيءٍ ذاهِبٌ ... زَيْنَ المَجَالسِ والنَّديِّ قبيصَا
يَطْوي إذَا ما الشُّحُّ أبْهَمَ قُفْلَهُ ... بَطْناً مِن الزَّادِ الخَبيثِ خَمِيصَا[1]

وقتل بسطام بن قيس ـ سيد قبيلة شيبان ـ من بني بكر بن وائل في يوم الشقيقة ، وكان قاتله رجل من بني ثعلبة اسمه عاصم بن خليفة الصبَاحي[2] ، وقد كان بسطام شاعراً ، ولأمه ليلى بنت الأحوص قصيدة قالت فيها :

لِيَبْكِ ابنَ ذي الجَدَّين بَكْر بن وَائل ... فَقَدْ بَانَ مِنْهَا زيْنُهَا وَجَمَالُهَا
إذَا مَا غَدَا فِيهِمْ غَدَوا وَكَأَنَّهُمْ ... نُجُومُ سَمَاء بَيْنَهُنَّ هِلالُها
فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأى مِثْلَهُ فَتَىً ... إذَا الخَيْلُ يَوْمَ الروْع هَبَّ نِزَالُهَا
عَزِيزُ المِكَرِّ لا يُهَدُّ جَنَاحُهُ ... وَلَيْثٌ إذَا الفِتْيَانُ زَلَّتْ نِعَالُهَا
وَحَمَّالُ أثْقَالٍ وَعَائِدُ مُحْجَرٍ ... تَحُلُّ إلَيْهِ كُلَّ ذَاكَ رِحَالُهَا
سَيَبْكِيكَ عَانٍ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَفُكُّهُ ... وَيَبْكِيكَ فُرْسَانُ الوَغى وَرِجَالُهَا
وَتَبْكِيكَ أسْرَى طالَمَا قَدْ فَكَكْتَهُمْ ... وَأرْمَلَةٌ ضَاعَتْ وَضَاعَ عِيَالُهَا
مُفَرِّجُ حَوْمَاتِ الخُطُوبِ وَمُدْرِكُ الـ ... حُرُوبِ إذَا صَالَتْ وَعَزَّ صِيَالُهَا
تَغَشَّى بِهَا حِيناً كَذَاكَ فَفَجِّعَتْ ... تَمِيمٌ بِهِ أرْمَاحُهَا وَنِبَالُهَا
فَقَدْ ظَفِرَتْ مِنَّا تَمِيمٌ بِعَشْرَةٍ ... وَتِلْكَ لَعَمْري عَشْرَةٌ لا ثُقَالُهَا
أصِيبت بِهِ شِيْبَانُ والحَيُّ يشْكُرٌ ... وَطَيْرٌ يُرَى أرْسَالُها وَحِبَالُهَا[3]

بكت أم بسطام السيد المقتول ، وحثت القبيلة على بكائه فالخسارة التي حلت بهم عظيمة وقد كان وسط القوم كالهلال بين النجوم ، وكان عطوفاً على الأرامل وأبنائهن ، والفارس المقدام وقت النزاع كما تقول أمه في أبياتها .

---

(1) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 436
(2) ينظر عزالدين أبي الحسن علي بن محمد ، المعروف بابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تح عمر عبدالسلام تدمري، ط2 ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1320 هـ - 1999 م ، جـ 1 ، ص 550
(3) نفس المصدر ، جـ 1 ، ص 551 - 552 .

أما الشواعر اللائي لم يتم تحديد المناسبة التي رثين فيها القتلى ولم تعرف الوقائع التي أفرزت شعر الرثاء النسائي ، فقد سجلت لهن مرثيات وصفن فيها المرثي في الحروب ، ووصفن معاناة القوم من بعده ، وهو الذي كان يقودهم ويدافع دونهم ، كقول أُمّ قَيْس الضَّبِّيَّة :

مَنْ لِلْخُصُومِ إِذَا جَدَّ الضَّجَاجُ بِهِمْ ... بَعْدَ ابنِ سَعْدٍ وَمَنْ لِلضُّمَّرِ القُودِ
وَمَشْهَدٍ قَدْ كَفَيْتَ الغَائِبِينَ بِهِ ... فِي مَجْمَعٍ مِنْ نَواصِي النَاسِ مَشْهُودِ
فُرَّجْتَهُ بِلسانٍ غَيْرِ مُلْتَبِسٍ ... عِنْدَ الحِفَاظِ وَقَلْبٍ غَيْرِ مَزْؤُودِ
إِذَا قَنَاةُ امْرِيءٍ أَزْرَى بِهَا خَوَرٌ ... هَزَّ ابنُ سَعْدٍ قَنَاةَ صُلْبَةَ العُودِ[1]

وصورت ريطة بنت العباس دور أخيها في أثناء الحرب ، فقالت :

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ ... لَنِعْمَ الفَتَى أَرديتُمُ آلَ خَثْعَمَا
وَكَانَ إِذَا ما أَوْرَدَ الخَيْلَ بيشَةً ... إِلى جَنْبِ أَشْرَاجٍ أَنَاخَ فَأَلْجَمَا
فَأَرْسَلَهَا رَهْواً رِعَالا كَأَنَّها ... جَرَادٌ زَهَتْهُ رِيحُ نَجدٍ فَأَتْهَمَا[2]

ولدُرْنَى بنت سيَّاربن صَبْرة رثاء في أخويها تحدثت فيه عن بطولاتهما وفخرها بهما ، فقالت :

أَبَى النَّاسُ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا هُمَاهُما ... وَلَوْ أَنَّنَا اسْطَعْنَا لَكَانُوا سِوَاهُمَا
هُمَا أَخَوا فِي الحَرْبِ مَنْ لا أَخَاً لَهُ ... إِذَا خَافَ يَوْمَاً نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا
إِذَا افتقرا لم يَجْثِمَا خَشْيَةَ الرَّدَى ... وَلَمْ يَخْشَ رزءاً مَنْهما مَوْلَيَاهُمَا
إِذَا استغنيا حُبَّ الجَمِيعِ إِليهِمَا ... وَجَادَ على الأَدنَيْنِ فَضْلُ غِنَاهُمَا
هُمَا يَلْبَسَانِ المَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ ... شَحِيْحَانِ ما اسطَاعَا عليه كِلاهُمَا
وقد زَعَمُوا أَنِّي جَزِعْتُ عَلَيْهِمَا ... وَهَلْ جَزَعٌ أَنْ قُلْتُ وَا بأَبَاهُمَا
وَأَهلي فِدَاء العَاصِمَيْنِ كليهما ... وَلا عِشْتُ إِنْ كَانَ الفؤادُ قَلاهُمَا
إِذَا هَبطا الأَرْضَ المُخَوَّفَ بها الرَّدَى ... يُسَكِّنُ مِنْ جَأْشَيْهِمَا مُنْصُلاهُمَا
ولا يَلْبث العَرْشَانِ يُسْتَلُّ مِنْهُمَا ... عِظَامُ الرواسي أَنْ يَمِيلَ غَمَاهُمَا[3]

---

(1) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1، ص 438 - 439 ، والقود : الطوال العنق من الخيل ، والزؤدُ : الذعرُ

(2) صدر الدين على بن أبي الفرج بن الحسن البصري ، الحماسة البصرية ، تح عادل سليمان جمال ، 1420 هـ - 1999م ، الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ، جـ 2 ، ص738

(3) الغندجاني، فرحة الأديب ، ص51 ، وفي ديوان الحماسة لأبي تمام نسبت الأبيات لعمرة الخثعمية ، جـ 1 ، ص449 - 451 .

فالشاعرة في أبياتها هذه تعدد صفات أخويها وتبكيهما بالحرقة التي سيطرت على المرثية النسائية في معظم صورها ومعالم الصدق فيها ، وقالت امرأة ترثي إخوتها :

يَا عَيْنُ إلاَّ مَا بَكَيْتِ بني حَمَلٍ ... فَوَارسَ أبْطالاً على شِدَّةِ الوَهَل
لَعَمْري وَمَا عُمْري عليّ بهَيِّنٍ ... لَقَدْ ذَهَبَتْ مِنَّا غَنِيٌّ على مَهَل
فَإنْ تُقِدِ الأيامُ عَنمَ بن واقد ... وأسماءَ تَتْقَفْهُ الرماحُ عَلَى عَلَل[1]

فما أشدُّ حاجة هؤلاء الشواعر لبكاء الأخوة وما أعجب هذه التلقائية في تعبيرهن ، والجدير بالذكر أن معظم المقطوعات والقصائد الرثائية عند النساء ، كانت قد قيلت في رثاء الأخوة أكثر من غيرهم ، وقد حصر بروكلمان شاعرية النساء في الرثاء على بكاء الأخوة ، قال " على أن إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة كما كان لائقاً بنسائها ، وخاصة بالأخوات ... " [2] .

ووصفت امرأة من طيء شهامة المرثي في رثائها ، فقالت :

تأوَّبَ عَيْني نُصبُهَا واكْتِئَابُهَا ... وَرَجَّيْتُ نَفْسَاً راثَ عَنْهَا إيَابُهَا
أعَلِّلُ نَفْسي بالمُرَجَّمِ غَيْبُهُ ... وَكَادَبْتُهَا حتَّى أبَانَ كِذَابُهَا
أَلَهْفي عَلَيْكَ ابنَ الأشَدِّ لِبُهْمةٍ ... أَفَرَّ الكُمَاةَ طَعْنُهَا وَضِرَابُهَا
متَّى يَدْعُهُ الدَّاعي إليه فإنَّهُ ... سَمِيعٌ إذَا الآذَانُ صُمَّ جَوَابُهَا
هو الأبْيَضُ الوَضَّاحُ لو رُمِيَتْ بهِ ... ضَوَاح من الرّيّانِ زَالتَ هِضَابُهَا[3]

هزت ويلات الحرب وجدان الشاعرة ، فبكت فقيدها بحرقة ، وعلى قلة أبياتها ، فإنها جاءت صورة تحمل الطابع الجاهلي من حيث اللغة والأسلوب ، ولعل في هذا دلالة واضحة على أن النِّساء الشواعر قد كان لهن باع طويل في قرض الشعر حيث يأتي الإلهام من الفطرة الغريزية ، ولامرأة من بني الحارث وصف آخر:

فَارسٌ مَا غَادَرُوهُ مُلحمَا ... غَيْرَ زُمَّيلٍ ولا نِكْسٍ وَكِل
لو يَشأ طَارَ بهِ ذُو مَيْعَةٍ ... لاحِقُ الآطالِ نَهْدٌ ذو خُصَل

---

(1) الغندجاني ، فرحة الأديب ، ص 46
(2) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، تح عبدالحليم النجار ، ط 4 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1959 ، جـ 1 ، ص 48 .
(3) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 461 .

غَيْرَ أنَّ البأسَ مِنْهُ شِيمَةٌ وَصُرُوفُ الدّهْرِ تَجْرِي بالأجَلِ[1] .

وقالت ريطة بنت عاصم رثاء في قتلى قومها بني عامر إحساساً منها بما تعانيه النساء من الثكل مساندة منها ووفاء لعشيرتها :

وَقفْتُ فَأبْكَتْني بدَار عَشِيْرَتي عَلَى رُزْئِهِنَّ البَاكِياتُ الحَوَاسِرُ
غَدَوا كَسُيُوفِ الهِنْدِ وَرَّادَ حوْمَةٍ مِنَ المَوتِ أعْيَا وِرْدَهُنَّ المَصَادِرُ
فَوَارِسُ حَامُوا عَنْ حَرِيمي وَحَافَظُوا بِدَار المَنَايَا والقَنَا متَشَاجِرُ
وَلَوْ أنَّ سَلْمَى نَالَهَا مِثْلُ رُزْئِنَا لَهُدَّتْ وَلَكِنْ تَحْمِلُ الرُّزْءَ عَامِرُ
كَأنَّهُمُ تَحْتَ الخَوَافِقِ إذْ غَدَوا إلى المَوْتِ أسدُ الغَابتين الهَوَاصِرُ[2]

تحدثت النِّساء عن دور الرجال في وقت الحرب " وكان من أولئك النسوة شاعرات ، يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال ، فكن يشاركن الرجال في الشعور الحماسي تلقاء الحرب ونكباتهـا وما كن في ذلك أقل إجادة من الشعراء الرجال ، في براعة **الوصف** للخيـل والقتال ... "[3]

تلك كانت الأسباب التي ساهمت في دفع حركة الشعر لدى النساء ، ونبوغهن في فن الرثاء ، فشعرهن يعد من أروع شعر المقطعات ، يعبر عن مبلغ الأسى والحزن الذي تحسه الشواعر ويصور الصراع القبلي الذي ملأ نفوسهن بالغيظ والحنق ، ويمكن القول إن شعر النساء قد ارتبط في معظمه بالحماسة واتصل بها " واتصاله بالحماسة يأتي من خلال اتجاهين ... اتجاه يعبر الشعراء فيه عن وجدانهم القبلي حيث يرثون قتلاهم الذين صرعوا في الحروب حاضين الأفراد على أخذ الثأر لهم ... واتجاه ... نلاحظ فيه مزجاً بين العاطفتين القبلية والذاتية ، وذلك حين يفقدون عزيزاً له أثر في القبيلة ، وبفقد خاص هو فقد الإنسان الذي يرى عزيزاً لديه قد رحل ... حيث يمتزج الرثاء الصادر من وجدان قبلي بالرثاء الصادر من وجدان ذاتي وحيث تلتحم الحماسة بالبكاء " [4] .

وعلى ذلك يكون مبدأ الأخذ بالثأر من أهم حوافز الشعر ، كما أن من حوافزه تصوير ووصف الجانب الملحمي البطولي للذين عنت الشواعر برثائهم .

---

(1) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ1 ، ص463
(2) نفس المصدر ، جـ 1 ، ص 459 - 460 ، سلمى : أحد جبال طيّئ .
(3) زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ، ص 42.
(4) د. محمّد عثمان علي ، دراسات في أدب العرب قبل الإسلام ، (د. ط) ، (د.ب) ، دار الكتب ، 1990 م ، ص190 - 192

المبحث الثاني:

مكانة المرأة الشاعرة في العصرالجاهلي وأثرها في شعرالرثاء

أولاً : مكانتها الاجتماعية والأدبية

ثانياً : انتماؤها للأسر الفنية

كانت المرأة في العصر الجاهلي ، عند بعض القبائل تشغل حيزاً مهماً في إطار الأسرة والقبيلة ، وكانت مناط اهتمام لمن حولها ، فهي الأم والأخت والزوجة والابنة ، لاسيما إذا كانت من بنات الأشراف " وللمرأة الشريفة ذات السؤدد حظ في المجتمع لا يدانيه حظ المرأة الحرة الفقيرة ، فسؤددها حماية لها ودرع يصونها من الغض من منزلتها ومكانتها ، وأسرتها قوة لها تمنع زوجها من إذلالها أو إلحاق أي أذى بها ، وهي نفسها فخورة على غيرها لأنها من الأسر الكريمة "[1] .

أولاً : مكانتها الاجتماعية والأدبية

تغنى الشعراء كثيراً بذكر النساء وحسن خلقهن ، فأصبحت أغراض الشعر لديهم في أغلبها تتحدث عن المرأة ووصف كل ما يتصل بها في حياتها " ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم ، بل كانت في المكان المصون وكان الشاعر يستلهمها [في] شعره " [2] ، ويصف فيه عفتها وحياءها ، يقول الشنفري الأزدي :

لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي لا سَقُوطاً قِنَاعُهَا ... إِذَا مَا مَشَتْ ولا بِذَاتِ تَلَفُّتِ
تَبِيتُ بُعَيْدَ النَّوْمِ تُهْدِي غَبُوقَهَا ... لِجَارَاتِهَا إِذَا الهَّدِيَّة قَلَّتِ
تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَهَا ... إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالمَذَمةِ حُلَّتِ
كَأَنَّ لَهَا فِي الأَرْضِ نَسِياً تَقُصّهُ ... على أُمِّهَا ، وإِنْ تُكَلِّمْكَ تَبلتِ[3]

ويصف جمالها كقول المرقش الأكبر :

عَلَى أَنْ قَدْ سَمَا طَرْفِي لِنَارٍ ... يُشَبُّ لَهَا بِذِي الأَرْطَى وَقُودُ
حَوَالَيْهَا مَهاً جُمّ التراقي ... وَآرامٌ وغِزْلانٌ رُقُودُ
نَوَاعِمُ لا تُعَالِجُ بُؤْسَ عَيْشٍ ... أَوَانِسُ لا تُرَاحُ ولا تَرُودُ

---

(1) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ 4 ، ص 616 .
(2) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص 214 .
(3) المفضل الضبي ، المفضليات ، ص 108 - 109
(4) نفس المصدر ، ص 223 .

يَرُحْنَ مَعَاً بطاءَ المَشي بُدَّاً عَلَيْهِنَّ المَجَاسِدُ والبُرُودُ[4]

فتتضح المكانة الاجتماعية التي حظيت بها المرأة في عالمها الأسري والقبلي من خلال الاهتمام بها والنظر إليها بالتقدير والاحترام .

وكذلك حظيت المرأة بمكانة مرموقة في الحياة الأدبية في العصر الجاهلي عند بعض القبائل وكانت لها مساهمات فعالة بين الشعراء ، ولولا إغفال الرواة لشعرها ؛ لوصل الكثير من الآثار الأدبية للنساء .

فالمرأة هي الناقدة والخطيبة والفصيحة والشاعرة ، ومن الناقدات " ... من كان الشعراء يتقاضون إليها لتحكم في أيهما أشعر ، كما فعلت جندب زوجة امرىء القيس إذ حكمها بينه وبين علقمة الفحل ، فحكمت حكماً يدل على ذكاء ومعرفة " [1] ، ومن الخطيبات هند وجُمعة بنتا الخس ابن حابس وقد قيل إنهما ذهبتا إلى " عكاظ في الجاهلية فاجتمعتا عند القلمّس الكناني [أحد حكام العرب القدماء] فقال لهما إني سائلكما لأعلم أيكما أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن للصفة اتقاناً قالتا سلنا عما بدالك فستجد عندنا عقولاً زكية وألسنة قوية وصفة جلية "[2] ، ومنهن من جمعت إلى ذلك فصاحة الشعر، وقد برزت العديد من النساء في نظم القصائد بمختلف أغراضه ، واكتملت لديهن حاسة تذوق فنون القول " فاسترسل النساء في قرض الشعر وحفظه وروايته ، وسارت المرأة مع الرجل في ميادين الفصاحة والبلاغة شوطاً بعيداً ، ونبغ من النساء عدد لا يحصى من الشاعرات المجيدات " [3]

وبالرغم من ذلك ، فإن الرواة والنقاد لم يهتموا فيما يبدو بكل شعر المرأة ، ولعلهم قد خصوا بعض الشواعر بنوع من الاهتمام وأهملوا الأخريات وما وجد من شعر للنساء ، فهي أبيات قليلة ، ومن غير المعقول أن تنظم هؤلاء الشواعر عدداً ضئيلاً من الأبيات وقد تمتعن بشاعرية ظهرت جلية من خلال الشعر الذي دوّن لهن في المصادر التي اعتنت بشعر النساء .

ومن المحتمل أن تكون الحصيلة الشعرية عند النساء في العصر الجاهلي والذي يليه فيها من الكثرة والجودة التي تنصف المرأة لأن تتساوى مع الشعراء الرجال من حيث الكمية والإجادة ،

---

(1) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ 1 ، ص 40 .
(2) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 58 - 59 .
(3) عبدالحميد فايد ، المرأة وأثرها في الحياة الأدبية ، (د . ط) ، (د.ب) ، جامعة بيروت العربية ، 1977 م ، ص 28 .

وربما كان للمرأة الشاعرة بجانب هذه المقطوعات قصائد طوال أسوة بقصائد الشاعرات اللائي حظيت أشعارهن بنوع خاص من الاهتمام كالخرنق بنت بدر والخنساء وليلى الأخيلية ، اللاتي أتيح لشعرهن أن يُجمع في دواوين تضم جملة من القصائد .

وبما أنه قد وُجِد للنساء شعرٌ ظهرعلى مسرح الحياة الفنية ، فهو دليل على اتساع مكانتهن الشعرية " فقد ينتج العصرالواحد واحدة لها نبأ عظيم تهتدي بمنارعقلها الخلقي إلى معالم العلوم ، فتسابق بلا سابقة تعليم ، وقد سمعنا بمن سارت عنهن الرواة في العصور الأولى ، ورأينا من مآثرهن شاهداً عدلاً بأن لهن اليد الطولى ...[منهن الخرنق بنت بدر] والخنساء وليلى الأخيلية وغيرهن من مشهورات الإسلام والجاهلية ... فإن وجودهن بين أحياء العرب أو قربهن من عصورهم ساعدهن على قوة الملكة وانطلاق لسان البيان " [1] .

والشعر كما هو معروف منه ما دون ومنه ما لم يلق حظاً من الاهتمام والتدوين ، وفي ذلك قال عمرو بن العلاء : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلاّ أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير " [2] ، وهو ما يؤكده المبرد في قوله " وأشعار المراثي كثيرة ، وإنما نختار عيوناً من جميعها ومن الشيء أحسنه " [3] ، وهذا الإهمال لتدوين شعر النساء ، كان قد تحدث عنه بعض الباحثين وتساءلوا لماذا لم يهتم الرواة قديماً بشعرهن اهتمامهم بشعر الرجال ، قال الريسوني بعد أن تكلم عن شاعرية المرأة إن " هناك جمعاً غفيراً من أصحاب الأخبار ، ومن عنوا بجمع الشعر العربي ووضعوا الكتب والتواليف في سبيل صيانة ما جادت به القرائح العربية ... ولكنهم ولّوا اهتمامهم للرجال ... فغفلوا أو تغافلوا عما غرسته أنامل المرأة ... " [4] .

وقد لخصت مي يوسف خليف مكانة المرأة الشاعرة بين الشعراء فقالت " وتكثر الأمثلة التي تنتهي بنا إلى مزيد من الاستكشاف لمكانة المرأة في عالمها بوجه عام ، ويهمنا منها أيضاً ذلك الوجه الخاص لتلك المكانة التي أسهمت بدورها في حركة الشعر من حولها ، حتى لنستطيع أن نتبين حجم هذا الإسهام ، ونتوقف عند طبائعه التي تحكيها لنا المصادر والمراجع ، حين نجد

---

(1) ديوان عائشة التيمورية ـ حلية الطراز ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة الكتاب العربي ، 1952 م ، ص 281 .
(والنص من حديث سليم بك رحمي عن الشاعرة عائشة التيمورية) .
(2) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، تح محمود محمد شاكر ، القاهرة ، مطبعة المدني ، 1974، جـ1 ، ص 25 .
(3) المبرد ، التعازي والمراثي ، ص 73
(4) محمد المنتصرالريسوني ، الشعر النسوي في الأندلس ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (د.ت) ، ص 24 .

في الأخبار ما يشير إلى الاعتداد بمكانة المرأة الشاعرة ابتداء من شهودها منتيدات الشعراء ، إلى مراسلات الشعراء لها ، إلى اجتماعها بالشعراء والخلفاء والأمراء ، ... ، إلى المجالس الأدبية التي تقوم بإدارتها ، إلى ما تستنشده من الشعراء بين يديها ، إلى تخصيص أخبار الشعراء بما كان من موقف الشاعر منهم من خلال امرأة شاعرة مثله ، إلى الحوار الذي يدور بين الشاعر والمرأة ، إلى ألوان من تهاجيها مع الشعراء ، إلى تظرفها أحياناً بالشعر ، إلى إجازتها على ما تسمعه أو تستنشده منه ، إلى دقة الاستفسار لديها عن شعر معين أو قصيدة محددة ، إلى زواج الشعراء والشاعرات ، إلى شهادة الشعراء للشاعرة ، إلى اجتماعها بالنساء أو إيوائها للرجال أو إنشادها شعرها ، أوتفوقها على الشاعر، أوتحولها إلى ناقدة للشعرإلى جانب كونها مبدعة فيه "[1].

وللإنصاف لشاعرية الرجال ، فإن المرأة لم تبلغ حداً من الجودة في أشعارها ، فهي ليست كالشعراء من حيث الكيف والكم في جميع أغراض الشعر ، ولكن على قلة الشعر المدون لها لا يمكن تجاهل القدرات الإبداعية للنساء في قرضه ، يقول الريسوني " ... لذلك راحت بجانب الرجل تَسْتَنْدي [كذا] القريحة لتهمس بالشعر ، فهمست به همسات رائعة ملذة أثبتت قدراتها على الخلق الجميل ، والإبداع الحيّ الخالد ، الذي جعلها تتفوق في بعض الأحيان على الرجل ، والدلائل على ذلك لا تحصى ، فاستمع إلى أبي نواس الشاعرالعباسي ... يقول : (أجهدت نفسي على أن تقع في الشعر (عينُ أبَاغ) فامتنعت عليّ فقلت (عيني أبَاغ) فذلك حيث أقول :

فَمَا نَجَدتْ بالماءِ حتَّى رَأيْتَها معَ الشَّمْس في عَيْني أبَاغ تَغُورُ

في حين تلقى (عين أباغ) مقاليدها صاغرة طائعة لامرأة من شيبان حين تقول :

وَقالُوا شَاعِراً مِنْكُم قتَلْنَا كَذَلكَ الرُّمْحُ يَكْلفُ بالكَريم
بعَيْن أباغ قاسَمْنَا المَنَايَا فكَانَ قسِيمُهَا خيْرَ القسِيم"[2]

كما مدح ابن الأثير قصيدة جليلة بنت مرة ووصفها بالجودة ، حين قالت :

يا ابنَة الأقْوَام إنْ شِئْتِ فلا تَعْجَلي باللَّوْم حَتَّى تَسْألي
فإذَا أنْتِ تَبَيَّنْتِ الذي يُوجبُ اللَّوْمَ فلُومي واعذِلي

---

(1) د. مي يوسف خليف ، الشعر النسائي في أدبنا القديم ، الفجالة ، مكتبة غريب ، (د . ت) ، ص 16.
(2) نفس المرجع ، ص 23 - 24 ، والبيتان في ديوان الحماسة لأبي تمام ، جـ 1 ، ص 365
وفيه ماجدا بدل شاعرا .
(3) ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، ط1، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، 1380 هـ - 1960م ، ق2 ، ص17

قال : " وهذه الأبياتُ لو نَطق بها الفحولُ المعدودُون من الشعراء لاسْتُعْظِمَتْ ، فكيف امرأة وَهي حزينة في شرح تلك الحال المشار إليها "[3].

ثانيا : انتماؤها للأسر الفنية

تتبع شاعرية المرأة ومكانتها الأدبية من انتمائها للأسر التي حظيت بنبوغ أبنائها فنياً وانتسابها للشعراء الفحول الذين سجل لنا التاريخ كماً وافراً من إنتاجهم الشعري ، فجادت قرائح النساء وتميزن في الحياة الأدبية ؛ لتشابه الخصائص الفنية بين الشواعر وذويهن ، وسأبرز دورهن في شعرالرثاء في إطار هذا الانتماء الأسري .

1- شواعر آل الرسول صلّى الله عليه وسلم في الجاهلية :

من أكثر الأسر التي حظيت بتدوين شعر نسائها ، ما كان من أسر السادة والأشراف التي نبغ فيها أكثر من شاعر وشاعرة على نحو ما كان من وفرة الشعر عند آل الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلم ، فهو محمّد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب ، وينتهي نسبه إلى معد بن عدنان[1] .

نبغ في هذا البيت الشريف كثير من الشعراء والشواعر في قول الشعر في العصر الجاهلي ، وكذلك لهم العديد من الشعر الرثائي في العصر الإسلامي ، وسنأتي على ذكر شعر الرثاء عند نساء هذا البيت بعد إسلامهن في الفصل الثالث عند الحديث عن رثاء الشواعر في العصر الإسلامي .

ونبدأ بذكر قصائد ومقطوعات النساء الشواعرلآل الرسول عليه السّلام في العصر الجاهلي بأبيات تخمر بنت قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ترثي أباها ، قالت :

طرَقَ النّعي بُعَيْدَ نَوْم الهُجّد فنعى قصيا ذا النّدَى والسُّؤدَد
فنعى المُهَذّبَ مِنْ لؤيّ كُلِّهَا فانْهَلّ دَمْعِي كَالجُمَان المُفرَد
فأرقتُ مِنْ حزنٍ وَهمّ دَاخلٍ آرَقَ السّلِيم لِوَجْدِهِ المُتَفَقّد[2]

---

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، القاهرة ، مطبقة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، 1358 م ، جـ 1 ، ص 36 .
(2) نفس المصدر ، جـ 1 ، ص 53 .
(*) أورد ابن هشام في السيرة النبوية ، تح مصطفى السقا وآخرين ، ط2 ، مصر ، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، 1995م، أبياتا لقصي بن كلاب ، جـ 1، ص97 وأخرى لعبد المطلب بن هاشم ، جـ 1 ، ص50.
كما وردت في كثير من المصادر عدة قصائد لشعراء بيت آل الرسول صلى الله عليه وسلم .

فقول الشعر ليس بغريب عن الشاعرة فهو منذ الجدِّ الأعلى لؤي بن غالب [*] وامتد إلى ما بعده في العصور التالية للعصر الجاهلي ، ومن الرثاء ما كان في شعر للشفاء بنت هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب قالت ترثي أباها :

عَيْنُ جُودي بعَبْرَةٍ وَسُجُومِ ... وأسفحِي الدَّمْعَ للجَوَاد الكَرِيم
عَيْنُ واستعْبري وَسُحِّي وَحُمِّي ... لأبيكِ المُسَوَّدِ المَعْلُوم

هَاشِمِ الخَيْرِ ذي الجَلالةِ والحَمْـ ... ـدِ وذي البَاعِ والنَّدَى والصّمِيم
رَبيع للمُجْتَدِينَ وَمُزْنٍ ... وَلِزَارٍ لِكُلِّ أمْرٍ جَسِيم
شَمَّري نَمَاهُ للْعزِّ صَقْرٌ ... شَامِخُ البَيْتِ من سَرَاةِ الأدِيم
شَيْظَميّ مُهَذَّبٍ ذي فُضُولٍ ... أبْطَحِيٍّ مِثْلِ القَنَاةِ وَسِيم
صَادِقِ البأسِ في المَوَاطِنِ شَهْمٍ ... مَاجِدِ الجدِّ غَيْرِ نِكْسٍ ذَمِيم
غَالِبِيٍّ مُشمِّرٍ أحْوَذِيٍّ ... بَاسِقِ المَجْدِ مَضْرَحِيٍّ حَلِيم[1]

ولأختها خالدة بنت هاشم بن عبد مناف رثاء في أبيها قالت فيه :

بَكَرَ النَّعِيُّ بِخَيْرِ مَنْ وَطِيءَ الحَصَى ... ذِي المَكْرُمات وَذِي الفَعَال الفَاضِل
بالسِّيد الغَمْر السَّمَيدَع ذي النُّهَى ... ماضي العزيمةِ غَيْرِ نِكسٍ وَاغِل
زَيْنِ العشِيرَةِ كُلّها وَرَبيعِهَا ... في المُطْبقاتِ وفي الزَّمَانِ المَاحِل
بأخِي المَكارمِ والفوَاضِلِ والعُلى ... عَمْرو بن عبدِ مَنَافٍ غَيْرِ البَاطِل
إنْ المُهَذبَ من لُؤَيٍّ كُلِّهَا ... بالشَّأم بَيْنَ صَفَائِحٍ وَجَنَادِل
فابكِي عليه ما بَقِيتِ بعَوْلَةٍ ... فَلَقَدْ رُزِئْتِ أخَا ندى وَفَوَاضِل
وَلَقَدْ رُزِئْتِ قَرِيعَ فِهْرٍ كُلِّهَا ... وَرَئِيسَهَا فِي كُلّ أمْرٍ شَامِل[2]

وعلى قدرما بكت خالدة فقيدها مدحت خصاله ونسبه الذي يفتخر به أبناء القبيلة ، ولها أبيات أخرى قالت فيها :

بَكتْ عَيْنِي وَحُقّ لَهَا بُكَاهَا ... وَعَاوَدَهَا إذا تُمسِي قَذَاهَا
أبَكِّي خيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَمَنْ لَبسَ النِّعالَ وَمَنْ حَذاهَا
أبكِّي هَاشِمَاً وبني أبيهِ ... فَعِيلَ الصَبْرُ إذ مُنِعَتْ كرَاهَا

وَكنْتُ غَدَاة أذكرُهُم أرَاهَا ... شَدِيداً سُقمُها بَادٍ جَوَاهَا
فلو كَانَتْ نفوسُ القومِ تُفدَى ... فَدَيْتُهُمُ وَحُقّ لها فِدَاهَا[3]

---

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 1 ، ص60 .
وعند ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 186 نسبت الأبيات لخالدة بنت هاشم .
الشيظمي : الطويل الجسم ، المضرحي : الرجل السيد الكريم .
(2) الموضع نفسه .
(3) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 186.

فهذه الأسرة الفنية التي تمتد جذور الشعر فيها إلى الجدِّ الأعلى لؤي بن غالب ، كان قد أتاح لنسائها الشواعرأن يصبح حضورهن قرين عدد دال من الشعراء ، فهن من نساء الطبقة الفنية اللائي سرعان ما برز من بينهن من كانت مولعة بنظم الشعر في هذه الأسرة أسوة برجالها ، ولهذه الشاعرة ابنة ساهمت في قرض الشعر وهي فاطمة بنت الأحجم بن دندنة قالت في الرثاء :

يا عَيْنُ بكِّي بني سَعْدٍ وَمِثْلَهُمُ ... أبكي إذَا أعْوَزَ اللَّحمَ [الأياسيرُ؟]
شُمٌّ أنوفهُمُ غُلْبٌ رقابُهُم ... كَأنَّ أوجُهَهُم حُسناً دنانيرُ
كَأنَّ عَينيّ لمَّا أنْ ذكَرْتُهُمُ ... غصنٌ يُرَاحُ من الطَّرفاءِ ممطورُ[1]

فالشاعرة كأمها ، كأنما الشعر يورث للأبناء ، فقد استطاعت أن تساهم في قرض الشعر وأن تكون شاعرة بين شواعر قرابتها من النساء ، وقالت ترثي أباها وقد قتل في حرب الفجار :

يا عَيْنُ بَكِّي عِنْدَ كُلِّ صبَاح ... جُودِي بأرْبَعَةٍ عَلَى الجَرَّاح
قدْ كُنْتَ لي جَبَلاً أَلُوذ بظِلِّهِ ... فتَرَكْتَنِي أضْحَى بأجْرَدَ ضَاح
قدْ كُنْتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ مَا عِشْتَ لي ... أمْشِي البَرَازَ وكُنْتَ أنْتَ جَنَاحي
فاليَوْمَ أخْضَعُ للذليل وَأتَّقي ... مِنْهُ وأدْفَعُ ظالمِي بالرَّاح
وَأغُضُّ مِنْ بَصَرِي وَأعْلَمُ أنَّهُ ... قدْ بَانَ حَدُّ فوَارسي ورِمَاحِي
وَإذَا دَعَتْ قمْرِيَّة شَجَناً لَهَا ... يَوْمَاً عَلَى فَنَنٍ دَعَوتُ صَبَاحِي[2]

مما يلفت النظربراعة الشاعرة في تصوير حياتها النفسية في كل أطوارها بصدق ، وقد كانت تحتمي بظل المرثي فأصبحت تخضع للذليل وتتقي شر الأعداء بنفسها ، وكأن القارىء لهذه الأبيات يحس بنفثات الشاعرة وهي تعرب عن عواطفها بحرارة ، فليس لها إلا الاعتراف بالذل والمهانة والاستسلام لهما ، واقتراباً من الإسهامات الشعرية النسائية لهذه الأسرة نجد بعض الشواعر من بنات عبد شمس بن عبد مناف منهن سبيعة قالت :

أعَيْنَيَّ جُودَا بالدّمُوُع السَّواكب ... على خَيْرِ مَيْتٍ من لؤيِّ بنِ غَالِب
أعَيْنَيَّ لا تَسْتَحْسِرا عن بُكَاكُمَا ... على مَاجِدِ الأعْراق عَفِّ المَحَاسب
أبي الحارثِ الفيَّاض ذي الحِلْمِ والنُّهى ... وَذي الباع والأفضَال غَيْر تكاذُب[3]

---

(1) أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم ، الأشباهُ والنظائر ، تح السيد محمد يوسف ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1965 م ، جـ 2 ، ص 331 .
(2) أبوتمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 376 - 377 .
(3) أحمد بن يحيي المعروف بالبلاذري ، أنساب الأشراف ، تح محمد حميد الله ، (د . ب) ، دار المعارف بمصر ، (د . ت) ، جـ1 ، ص 86

وقالت ترثي عمها المطلب بن عبد مناف :

أعَيْنَيَّ جُودَا عَلَى المطَّلِبْ ... بوَبْلٍ وَمَاءٍ لَهُ مُنْسَكِبْ
أعَيْنَيَّ واسْحَنْفِرَا وانْدُبَا ... حَلِيفَ النَّدَى وَقَرِيعَ العَرَبْ
أخَا الجُودِ والمَجْدِ والمعْضِلاتِ ... إذَا انْقَطع الدَّرُّ بَعْدَ الحَلَبْ
وأكْدَي المَسَامِيحُ والمُنْعِمُون ... مِنْ أهْلِ الفَعَالِ وَأهْلِ الحَسَبْ[1]

ولأميمة رثاء في ابن أخيها أبي سفيان بن أمية ومن مات معه في حرب الفجار قالت فيه :

أبَى لَيْلُكَ لا يَذْهَبْ ... وَنِيطَ الطَّرْفُ بالْكَوْكَبْ
وَنَجْمٌ دُوْنَهُ الأهْوَا ... لُ بَيْنَ الدَّلْو والعَقْرَبْ
وَهَذَا الصُّبْحُ لا يأتي ... وَلا يَدْنُو وَلاَ يَقْرُبْ
بعَقْرِ عَشِيرَةٍ مِنَّا ... كِرَامِ الخِيمِ والمَنْصِبْ
أحَالَ عَلَيهِمُ دَهْرٌ ... حَدِيدُ النَّابِ والمِخْلَبْ
فَحَلَّ بهِمْ وَقَدْ أمِنُوا ... وَلَمْ يُقْصِرْ وَلَمْ يَشْطُبْ
وَمَا عَنْهُ إذَا ما حلْ ... لَ مِنْ مَنجي ولا مَهْرَبْ
ألا يَا عَيْنُ فَابْكِيهِمْ ... بدَمْعٍ مِنْكِ مُسْتَغْرِبْ
فَإنْ أبْكِ فَهُمْ عِزِّي ... وَهُمْ رُكْني وَهُمْ مَنْكِبْ
وَهُمْ أصْلي وَهُمْ فَرْعي ... وَهُمْ نَسَبي إذَا أنْسَبْ
وهم مَجْدي وَهُمْ شَرَفي ... وَهُمْ حِصْنِي إذَا أرْهَبْ
وَهُمْ رُمْحي وَهُمْ تُرْسي ... وَهُمْ سَيْفي إذَا أعْضَبْ
فَكَمْ مِنْ قَائِلٍ مِنْهُمْ ... إذَا مَا قَالَ لَمْ يَكْذِبْ
وَكَمْ مِنْ نَاطِقٍ فِيهِمْ ... خَطِيبٍ مِصْقَع مُعْرِبْ
وَكَمْ مِنْ فَارِسٍ فِيهِمْ ... كَمِيٍّ مُعْلَمٍ مِحْرَبْ
وَكَمْ مِنْ مِدْرَهٍ فِيهِمْ ... أرِيبٍ حُـوَّلٍ قُلَّـبْ
وَكَمْ مِنْ جَحْفَلٍ فِيهِمْ ... عَظِيمِ النَّارِ والمَوْكِبْ
وَكَمْ مِنْ خضْرمٍ فِيهِمْ ... نَجِيبٍ مَاجِدٍ مُنْجِبْ[2]

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 187 .
(2) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 22 ، ص 74 - 75 ، المستغرب : الغزير ، والمحرب : الخبير بأمور الحرب ، والحُوّل القلب : المحتال

وامتداداً لهذه الروح الفنية نجد قصائد لبنات عبدالمطلب بن هاشم أميمة ، صفية ، برة ، أم حكيم ، أروى .

قام عبدالمطلب بحث بناته على رثائه وهو يُحْتَضَر، وأمرهن أن يودعنه قبل الرحيل ؛ لأنه كان واثقاً من إجادة بناته لفن الشعر؛ لانتمائهن لهذه المدرسة الشعرية ، فقمن برثائه الواحدة تلو الأخرى ، ومن ذلك ما قالته أميمة بنت عبدالمطلب :

ألاَ هَلَكَ الرَّاعي العَشِيرَةَ ذُو الفقْدِ ... وَسَاقِي الحَجِيجِ والمُحَامي عَنْ المَجْدِ
وَمَنْ يُوْلِفُ الضَّيْفَ الغَرِيبَ بُيُوتَهُ ... إذَا مَا سَمَاءُ النَّاس تَبْخَلُ بالرَّعْدِ
كَسَبْتَ وَلِيداً خَيْرَ مَا يكْسِبُ الفَتَى ... فَلَمْ تَتْفكَكْ تَزْدَادُ يا شَيْبَةَ الحَمْدِ
أبو الحَارث الفَيّاضُ خَلّى مَكَانَهُ ... فَلا تَبْعَدَنْ فَكُلُّ حَيّ إلى بُعْدِ
فَإنِّي لَبَاكٍ مَا بَقيتُ وَمُوجَعٌ ... وَكَانَ له أهْلاً لِما كَانَ مِنْ وَجْدي
سَقَاك وَليُّ النَّاس في القَبْرِ مُمْطِراً ... فَسَوف أبَكّيه وَإنْ كَانَ في اللَّحْدِ
فَقَدْ كَانَ زَيْنَاً لِلْعَشِيرة كُلِّهَا ... وَكَانَ حَمِيداً حَيْثُ مَا كَانَ مِنْ حَمْد[1]

رثت أميمة أباها بأوصاف السيد الذي كان ظلاً لقبيلته ، ومنه قول صفية بنت عبدالمطلب :

أرِقْتُ لِصَوْتِ نَائِحَةٍ بلَيْلٍ ... عَلَى رَجُلٍ بقارعَةِ الصَّعِيدِ
فَفَاضَتْ عِنْدَ ذَلِكُمُ دُمُوعِي ... عَلَى خَدِّي كَمُنْحَدِرِ الفَرِيدِ
على رَجُلٍ كَرِيمٍ غير وَغْلٍ ... لَهُ الفَضْلُ المُبينُ على العَبِيدِ
عَلَى الفَيَّاضِ شَيْبَةَ ذِي المَعَالي ... أبيكِ الخَيْرِ وَارثِ كُل جُودِ
صَدُوق في المَوَاطِنِ غَيْرِ نِكْسٍ ... ولا شَخْتِ المُقَامِ ولا سَنِيدِ
طويل البَاعِ أرْوَعَ شَيْظَمِيٍّ ... مُطَاعٍ في عَشِيرَتِهِ حَمِيدِ
رَفِيعِ البَيْتِ أبْلَجَ ذي فُضُولٍ ... وَغَيْثِ النَّاسِ في الزَّمَنِ الحَرُودِ
كَرِيمِ الجَدِّ لَيْسَ بذي وُصُومٍ ... يَرُوقُ عَلَى المُسَوَّدِ وَالمَسُودِ
عَظِيمِ الحِلْمِ مِنْ نَفَرٍ كِرَامٍ ... خَضَارِمَةٍ مَلاوثَةٍ أسُودِ

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ 1 ، ص 172 - 173 .
(2) نفس المصدر ، جـ 1 ، ص 169- 170 ، ولاشخت المقام : الدقيق الضامر، وخضارمة وملاوثة : الجود والقوة.

فَلَو خَلَدَ امْرُؤٌ لقديمِ مَجْدٍ ... وَلكِنْ لا سَبِيلَ إلى الخُلُودِ
لَكَانَ مُخلَّداً أخْرَى اللَّيالي ... لِفَضْلِ المَجْدِ والحَسَبِ التَّليد[2]

وماقالته برة بنت عبد المطلب :

أعَيْنَيَّ جُودَا بدَمْعٍ دِرَرْ ... عَلَى طيِّبِ الخِيمِ وَالمُعْتَصَرْ
عَلَى مَاجِدِ الجِدِّ وَارِي الزّنَاد ... جَمِيلِ المُحَيَّا عَظِيمِ الخَطَرْ
عَلَى شَيْبَةَ الحَمْدِ ذي المَكْرُمَاتِ ... وَذِي المَجْدِ والعِزِّ والمُفْتَخَرْ
وَذِي الحِلْمِ والفَضلِ في النَّائِبَاتِ ... كَثِير المَكَارِمِ جَمِّ الفَجَرْ
لَهُ فَضْلُ مَجْدٍ عَلَى قَوْمِهِ ... مُنِيرٍ يَلُوحُ كَضَوءِ القَمَرْ
أتَتْهُ المَنَايا فَلَمْ تُشوِهِ ... بِصَرْفِ اللَّيالي وَرَيْبِ القَدَرْ[1]

فعددت برة هي الأخرى أوصاف السيد التي كان والدهن يتمتع بها ، وتشابهت الألفاظ والمعاني في شعر بناته ، وانسكبت معاني شعرهن في قالب الرّثاء الأسري الذي تتضح فيه الرابطة القوية بين الأباء والأبناء ، ومثله في شعرهن الرّثاء الذي جاء في قول أمّ حكيم بنت عبد المطلب ـ الملقبة بالبيضاء ـ ترثي أباها :

ألا يا عَيْنُ جُودِي وَاستَهلي ... وبَكِّي ذا النّدى والمَكْرُمَاتِ
ألا يا عَيْنُ وَيْحَكِ أسْعِفيني ... بدَمْعٍ مِنْ دُمُوعٍ هَاطِلاتِ
وَبَكِّي خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا ... أبَاكِ الخَيْرَ تَيّار الفُرَاتِ
طويل الباع شَيْبَةَ ذا المَعَالي ... كَرِيم الخِيمِ مَحْمُود الهِبَاتِ
وَصُولاً لِلْقرابَةِ هِبْرِزيّا ... وَغَيْثاً فِي السِّنِين المُمْحِلاتِ
وَلَيثاً حِينَ تَشْتَجِرُ العَوَالي ... تَرُوقُ لَهُ عُيُونُ النّاظِرَاتِ
عُقِيلُ بَنِي كِنَانَةَ وَالمُرَجّى ... إذَا مَا الدّهْرُ أقبلَ بالهَنَاتِ
وَمفْزعها إذا مَا هَاجَ هَيْجٌ ... بدَاهِيةٍ وَخَصْمَ المُعْضِلاتِ
فَبَكِّيه وَلا تَسَمِي بحُزْنٍ ... وَبَكِّي مَا بَقِيَتْ البَاكِيَات[2]

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ 1، ص 170- 171، ونسبها ابن سعد في طبقاته جـ 1، ص 100 لأميمة بنت عبدالمطلب.
(2) نفس المصدر ، جـ 1 ، ص 171 - 172

أخذت أم حكيم تحث عينيها على المزيد من الدُّموع ، ثم مدحت أباها بصفات السيد الكريم مبينة شدة الحزن .

وقول أروى بنت عبدالمطلب ترثي أباها قبل موته :

بَكَتْ عَيْني وَحُقَّ لَهَا البُكَاءُ ... عَلَى سَمْحٍ سَجِيَّتُهُ الحَيَاءُ
عَلَى سَهْلِ الخَلِيقَةِ أبْطَحِيٍّ ... كَرِيمِ الخِيمِ نِيَّتُهُ العَلاءُ
عَلَى الفَيَّاضِ شَيْبَةَ ذِي المَعَالي ... أبِيكِ الخَيْرِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
طَوِيلِ البَاعِ أمْلَسَ شَيْظَمِيّ ... أغَرَّ كَأنَّ غُرَّتَهُ ضِيَاءُ
أقَبِّ الكَشْحِ أرْوَعَ ذي فُضولٍ ... لَهُ المَجْدُ المُقَدَّمُ والسَّنَاءُ
أبيّ الضَّيْمِ أبْلَجَ هِبْرزِيٍّ ... قَدِيمِ المَجْدِ لَيْسَ لَهُ خَفَاءُ
وَمَعْقِلِ مَالِكٍ وَرَبِيعِ فِهْرٍ ... وَفَاصِلِها إذَا الشُّمسَ القَضَاءُ
وَكَانَ هُوَ الفَتى كَرَماً وَجُوداً ... وَبَأْساً حِينَ تَنْسَكِبُ الدِّمَاءُ
إذا هاب الكُماة المَوْتَ حتَّى ... كَأنَّ قُلُوبَ أكثرِهِمْ هَوَاءُ
مَضَى قُدُماً بِذي رُبَدٍ خَشِيبٍ ... عَلَيْهِ حِينَ تُبْصِرُهُ البَهَاءُ[1]

فبكت أروى كذلك في شعرها المجد التليد لأبيها ، وذكرت شجاعته وهو يمضي نحو العدو في أروع صور القوة والإقدام .

وما قالته عاتكة بنت عبدالمطلب :

أعَيْنَيَّ جُودَا وَلَا تَبْخَلا ... بِدَمْعِكُمَا بَعْدَ نَوْمِ النِّيَامْ
أعَيْنَيَّ واسْحَنْفِرا واسْكُبَا ... وَشُوبَا بُكَاءَكُمَا بالتدَامْ
أعَيْنَيَّ واسْتَخْرِطا واسْجُمَا ... عَلَى رَجُلٍ غَيْرِ نِكْسٍ كَهَامْ
عَلَى الجَحْفَلِ الغمرِ فِي النَّائِبَاتِ ... كَرِيمِ المَسَاعِي وَفِيّ الذِمَامْ
عَلَى شَيْبَةَ الحَمْدِ وَارِي الزِّنَادِ ... وَذِي مَصْدَقٍ بَعْدَ ثَبْتِ المَقَامْ
وَسَيْفٍ لَدَى الحَرْبِ صَمْصَامةٍ ... وَمُرْدِي المُخَاصِمِ عِنْدَ الخِصَامْ
وَسَهْلِ الخَلِيقَةِ طَلْقِ اليَدَيْنِ ... وَفٍ عَدْمُلِيٍّ صَمِيمٍ لُهَامْ
تَبَنَّكَ فِي بَاذِخٍ بَيْتُه ... رَفِيعُ الذُّؤَابَةِ صَعْبُ المرام[2]

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ1 ، ص 173.
الأبطحي : أي من قريش البطاح ، الشيظمي : المقول الفصيح ، أقب الكشح : ضامر البطن ، والكشح : الخصر .
(2) ابن هشام ، مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 171 .
اسحنفرا : اسحنفر المطر وغيره : كثر صبه ، الالتدام : ضرب النساء وجوههن في النياحة.
الكهام : الرجل الكليل المسن ، الجحفل : الرجل العظيم ، العدملي : الضخم .
اللهام : الكثير الخير ، تبنك : تأصل وتمكن

فالشاعرة في أبياتها هذه أخذت تلح وتعيد الإلحاح على عينيها لتجودا بما تستطيع من الدّموع في سبيل الرجل الكريم ؛ لتظهر صدق الحزن لديها .

وعلى هذا النحو تكاملت المعاني عند بنات عبدالمطلب ، فقد ضمت أبياتهن كلَّ خصال السيد الذي يرأس القبيلة ، ولابد أن نلاحظ بصفة عامة أن شعرهن قبل وفاته قد بعث في نفوسهن ضرباً من التسامي والإحساس بالفقد ، فإذا هن يرثينه بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة ، ولأروى بنت الحارث بن عبد المطلب رثاء في أبيها ، قالت :

عَيْنيّ جُودا بدمْع غَيْر مَمْنُون ... إنّ انْهمَالاً بدَمْع العَيْن يَشفِيني
إنّي نسِيتُ أبا أرْوى وَذكرتهُ ... عَنْ غَيْر مَا بُغضةٍ مِنّي ولا هُون
مَا زالَ أبْيضَ مِكْرَاماً لأسْرَتِهِ ... رحب المَحَاسِن فِي خِصبٍ وفِي لِين
مِنْ آل عَبْدِ مَنافٍ إنّ مَهْلِكَهُ ... ولو لقيتُ رُغُوب الدّهْر يَعْصِينِي
مِنَ الذينَ متَى مَا تَغْشَ نَادِيَهُمْ ... تلقَ الخَضَارِمة الشّمّ العَرَانِين[1]

فقد كان رثاء أروى بنت الحارث على قلة الأبيات ، صورة تمثل براعة الشاعرية في الأسرالفنية عند نساء القبيلة اللائي كنَّ ينتمين إلى من كان يهتم بقرض الشعرمن الرجال والنساء

أمّا آمنة بنت وهب بن عبد مناف من بني زهرة ، أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت من بين الشواعر المنتميات لهذه الأسرة ، قالت ترثي زوجها عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم :

عَفَا جَانِبُ البَطْحاءِ مِنْ إبن هَاشِمِ ... وَجَاوَرَ لَحْداً خَارِجَاً فِي الغَمَائِمِ
دَعَتْهُ المَنَايَا دَعْوَةً فَأَجَابَهَا ... وَمَا تَرَكَتْ فِي النَّاسِ مِثْلَ ابن هَاشِمِ
عَشِية رَاحُوا يَحْمِلُونَ سَرِيرَهُ ... تعاوَرَهُ أَصْحَابُهُ فِي التَّزَاحُم
فَإنْ يَكُ غَالَتْهُ المَنُونُ وَرَيْبُهَا ... فَقَدْ كَانَ مِعْطَاء كَثِير التَّرَاحُم[2]

وقالت في رثاء أبيها وهب :

إنّي لباكية وهباً فمُعْوِلَة ... وهبِ بنِ عبد منافٍ سيّدِ النَّاس
فَقَدْ رُزِئْتُ كريماً غَيْرَ مُؤْتشبٍ ... ضخم الدَّسيعةِ حنَّاساً لحنَّاس
ماضي العزيمةِ لا يُخْشَى غوائلُهُ ... مِنْ جوهرٍ من قُريشٍ غَيْر أنكاس[3]

---

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص186 - 187
(2) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 1 ، ص 82 .
(3) مُطهّر بن طاهر المقدسي ، البدء والتاريخ ، (د. ب) ، مكتبة الثقافة الدينية ، (د . ت) ، جـ 4 ، ص 116 .

فهذه الأسرة التي تنتمي إلى بني كنانة قد نبغت نساؤها في قرض الشعر " ... فقد احتلت المرأة الكنانية مكانة هامة داخل هذا الكيان ، حيث شاركت في الأحلاف ، والأيام ، والشعر ، والفخر والمنافرة ، وكان لها رأي في معظم الأحداث التي مرَّت بها القبيلة "[1].

2- أخت ربيعة بن مُكَدّم :

ولأم عمرو ، أخت ربيعة بن مُكَدَّم مقطوعة في رثائه بعدما قتلته بنو سُليم ، قالت :

مَا بَالُ عَيْنكَ مِنْهَا الدَّمْعُ مُهْرَاقُ ... سَحَّاً فلا عَازبٌ عَنْهَا ولا رَاقِي
أبْكِي عَلَى هَالِكٍ أوْدَى فأوْرَثَنِي ... بَعْدَ التَّفَرُّق حُزْناً حَرُّهُ بَاقي
لو كان يرْجِعُ مَيْتاً وَجْدُ ذِي رَحِمٍ ... أبْقى أخِي سَالِماً وَجْدِي وَإشْفاقي
أو كانَ يُفدَى لكانَ الأهلُ كلهُمُ ... وَمَا أثْمِّرُ مِنْ مَالٍ لهُ وَاقِي
لكِنْ سِهَامُ المَنَايَا مَنْ نُصِبْنَ لهُ ... لم يُنجِهِ طِبّ ذي طِبٍّ ولا رَاقِي
فاذهَبْ فلا يُبْعِدَنكَ مِنْ رَجُلٍ ... لاقى التي كُلّ حِي مِثلهَا لاق
فسَوفَ أبكِيكَ مَا نَاحَتْ مُطوّقةٌ ... وَمَا سَرَيْتُ مع السّاري على سَاقِي
أبْكِي لِذكرَتِهِ عَبْرَى مُفْجَعَة ... مَا إنْ يَجِفّ لها مِنْ ذِكره مَاقِي[2]

فالشاعرة قد أجادت قرض الشعر مثلما أجاد أخوها الشاعر ربيعة بن مكدم ، وعلى قلّة ما سجل لها من شعر ، فهو يتميز بروعة التصوير في التعبير عن الحزن ووصف ما ألم بها من مصائب من بعده .

3- أخت طرفة بن العبد :

وهناك شخصية أخرى من شخصيات الشعر الجاهلي ، انتمت إليها إحدى الشواعر ، وهو طرفة بن العبد ، فقد كانت له أخت اشتهرت بقول الشعر وهي الخرنق بنت بدر بن هفان ، لها قطع أنشدتها في الرثاء ، وللخرنق ديوان شعر مستقل يضم أشعاراً ترثي فيها أخاها طرفة وزوجها بشر بن عمرو بن مَرْثَد ، وابنها علقمة ، وأبناء قومها ، قالت في رثاء طرفة :

عَدَدْنَا لَهُ خَمْساً وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوفَّاهَا اسْتَوى سَيِّداً صَخْمَا
فَجِعْنَا بِهِ لَمَّا انْتَظَرْنَا إيابَهُ ... عَلَى خَيْر حِينٍ لَا وَلِيداً ولَا قَحْمَا[3]

---

(1) إبراهيم عبدالرحمن النعانعة ، شعر بني كنانة في الجاهلية وصدر الإسلام ، ط1 ، عمّان ، دار جرير ، 1428هـ - 2007م ، ص201

(2) أبوعلي إسماعيل بن قاسم القالي البغدادي ، ذيل الأمالي والنوادر ، ط3 ، (د. ن) ، (د . ت) ، ص 11 - 12

(3) ديوانها ، تح حسين نصّار، (د . ب) ، مطبعة دار الكتب ، 1969 م ، ص 19 - 20 ، القحم : المسن الكبير .

فالخرنق بكت أخاها الذي فجعت بموته وهو في ريعان الشباب وكانت تنتظر رجوعه بعد الغياب، وقد بدت منتحبة بادية اللوعة شديدة الحزن كأنها تتحدث إلى أخيها من لوعتها عليه .

وقالت ترثي بشراً ومن قتل معه في يوم قلاب :

لا يَبْعَدَنْ قَوْمي الَّذِينَ هُمُ ... سُمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُزُرِ
النَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ
الضَّارِبُونَ بِحَوْمَةٍ نُزَلَتْ ... والطَّاعِنُونَ بِأَدْرِعٍ شُعُرِ
والخَالِطُونَ نَحِيتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ ... وَذَوِي الغِنَى مِنْهُمْ بِذِي الفَقْرِ
إنْ يَشْرَبُوا يَهَبُوا وإنْ يَذَرُوا ... يَتَوَاعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ الهُجْرِ
قَوْمٌ إذا رَكِبُوا سَمِعْتَ لَهُمْ ... لَغَطاً مِنَ التَّأييهِ والزَّجْرِ
مِنْ غَيْرِ ما فُحْشٍ يكُونُ بِهِمْ ... في مَنْتَجِ المُهُرَاتِ والمُهْرِ
وَتَفَاخَرُوا في غَيْرِ مَجْهَلَةٍ ... في مَربطِ المُهُراتِ والمُهْرِ
هذا ثَنَائي ما بَقِيتُ لَهُمْ ... فَإذا هَلَكْتُ أجَنَّنِي قَبْرِي
لاقَوْا غَدَاةَ قُلابَ حَتْفَهُمُ ... سَوْقَ العَتِيرِ يُسَاقُ لِلْعَتَرِ[1]

بدت الروح القبلية في شعر الخرنق وظهر تعصبها لقومها من خلال تماسك قومها حين ذكرت الأفعال (النازلون والطيبون ـ الضاربون ـ الطاعنون ـ الخالطون) بالجمع لتأكيد القوة لهم ، ولكن من جهة أخرى برزت في شعرها القيم الإنسانية التي كان قومها يتمتعون بها تجاه أعدائهم [2] .

4- ابنة لقيط بن زرارة :

كان للقيط بن زرارة ابنة شاعرة تُدعى دختنوس لها عدة قصائد في أبيها حين قتل يوم شعب جبلة ، وكان سيد بني تميم وشاعرها ، قالت :

بَكَرَ النَّعِيُّ بِخَيْرِ خِنْـ ... ـدِفَ كَهْلِهَا وَشَبَابِهَا[3]
وَأَضَرَّهَـــــا لِعَدُوِّهَـــــا ... وَأَفَكَّهَـــــا لِرِقَابِـــهَـــا

---

(1) ديوانها ، ص 29 - 32 .
(2) ينظر علي مصطفى عشّا ، " جدل العصبيّة القبليّة والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي " ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 82 ، جمادي الأخرة ، 1428 هـ ـ تموز 2007م ، جـ 3 ، ص534
(3) في الكامل لابن الأثير " عثر الأغرُّ بخير " ، صوابه من الأغاني ، جـ 11 ، ص 146.

وَقريعِهَـــــا وَنَـجيبهَـــــا ... في المُطْبقاتِ وَنَابهَـــــا
وَرَئِيسِهَـــــا عِنْدَ المُلُو ... كِ وَزَينِ يَوْمِ خِطَابهَا
وَأتمّـهَـــــا نَسَباً إذَا ... رَجَعَتْ إلى أنْسَابهَـــــا
فُرَعَى عَمُوداً للعَشِيـ ... ـرَةِ رَافِعاً لِنِصَابهَـــــا
فَيَعُولُهَـــــا وَيَحُوطُهَـــــا ... وَيَذُبُّ عَنْ أحْسَابهَـــــا
وَيَطا مَوَاطِنَ لِلْعَدُوِّ ... وَكَانَ لا يُمْشَى بهَـــا
فِعْلَ المُدِلِّ مِنَ الأسُو ... دِ لِحَينِهَا وَتَبَابهَـــــا
كالكَوكَبِ الدُّرِّيِّ فِي ... الظَّلْماءِ لا يَخْفَى بهَـــا
عَبَثَ الأغَرُّ بهِ وَكُـلْ ... لُ مَنِيَّةٍ لِكِتَابهَـــــا
فَرَّتْ بَنُو أسَدٍ فِرَا ... رَ الطَّيْرِ عَنْ أرْبَابهَـــــا
وَهَـــوَازِنٌ أصْحَـــابُهُمْ ... كَالقَارِ في أذْنابهَـــــا[1]
لَمْ يَحْفِلُوا نَسَباً وَلَمْ ... يَلْوُوا لِقِيءِ عُقابهَـــــا[2]

في أبيات دختنوس تظهر تعبيرات الاعتزاز والفخر بشجاعة أبيها وقوة ومنعة قبيلتها كما قامت بهجاء الأعداء إشارة إلى جبنهم في أثناء الحرب .

5- ابنة ذي الأصبع العدواني :

ومن النساء اللاتي ينتمين إلى الأسر الفنية أمامة بنت ذي الأصبع العدواني ، قالت :

كَمْ مِنْ فَتَى كَانَتْ لَهُ مَيْعَة ... أبْلَجَ مِثْلِ القَمَرِ الزّاهِرِ
قدْ مَرَّتِ الخَيْلُ بحَافَاتِهِ ... كَمَرّ غَيْثٍ لَجِبٍ مَاطِرِ
قدْ لَقِيَتْ فُهْمٌ وَعُدْوَانُها ... قَتْلاً وَهُلْكَاً آخِرَ الغَابِرِ
كَانُوا مُلُوكاً سَادَةً في الذرَا ... دَهْراً لَهَا الفَخْرُ على الفَاخِرِ
حَتّى تَسَاقوا كَأسَهُمْ بَيْنَهُم ... بَغْيَاً فَيَا لِلشَّارِبِ الخَاسِرِ
بَادُوا فَمَنْ يَحْلُلْ بأوْطَانِهِمْ ... يَحْلُلْ برَسْمٍ مُقْفِرٍ دَاثِرِ[3]

وتظل الشاعرة تثير حول المرثي مثيرات إنسانية وأخلاقية وظلت محتفظة بنفسها الشعري في رثاء أبناء قومها بنبض العاطفة القبلية إزاء ما حدث بينهم وبين القبائل الأخرى من فناء نتيجة الحروب والتطاحن فيما بينهم .

---

(1) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ 1 ، ص524 - 525 ، ويطا : سهلت الهمزة من يطأ ، المدل : الواثق من نفسه ، الحين : الهلاك والتباب أي الفساد ، الأغر : السيد ، كتائبها : وقتها

(2) ورد البيت الأخير في الأغاني ، جـ 11 ، ص 146

(3) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 3 ، ص 108 ، والميعة : أوّلُ الشباب ، غيث لجب : لما فيه من قعقعة الرّعد ، الداثر : الدارس العافي .

6 ـ أم السُّلَيْك :

والسُّلَيْك ابن السُّلَكَة يبدو أنه قد ورث قول الشعر من أمه ونشأ في أسرة فنية ، فلأمه السُّلكة قصيدة في رثائه قالت فيها :

طـــافَ يَبْغِي نَجْـــوَةً ... مِـــنْ هَـــلاكٍ فَهَلَـــكْ
لَيْتَ شِـــعْري ضِلَّـــةً ... أيُّ شَـــيءٍ قَتَلَـــكْ
أمريـــضٌ لَـــمْ تُعَـــدْ ... أمْ عَـــدُو خَتَلَـــكْ
أمْ تَوَلَّـــى بـــكَ مـــا ... غَـــالَ في الـــدَّهْر السُّلَـــكْ
والمَنَايـــا رَصـــدٌ ... لِلْفَتَـــى حَيْـــثُ سَلَـــكْ
أيّ شـــيءٍ حَسَـــنٍ ... لِفَتَـــى لَـــمْ يـــكُ لَـــكْ
كُـــل شـــيءٍ قـــاتلٌ ... حِـــينَ تَلْقَـــى أجَلَـــكْ
طـــالَ مـــا قـــد نِلْـــتَ في ... غَيْـــرِ كَـــدٍّ أمَلَـــكْ
إنَّ أمـــراً فادِحَـــاً ... عَـــنْ جَـــوَابي شَغَلَـــكْ
سَـــأعَزِّي النَّفْـــس إذْ ... لَـــمْ تُجِـــبْ مَـــنْ سَألَـــكْ
لَيْـــتَ قلبـــي سَـــاعَةً ... صَـــبْرَهُ عَـــنْكَ مَلَـــكْ
لَيْـــتَ نفسِـــي فُدِّمَت ... لِلمَنايـــا بَدَلَـــك[1]

7ـأخت عمرو ذي الكلب الهذلي :

ذكرت جنوب أخت عمرو الحكمة في شعرها وهي ترثيه بعد أن قتلته فهمٌ [2] ، قالت :

كُلّ امْرِيءٍ بِطُوالِ العَيْشِ مَكْدُوبُ ... وَكُلّ مَنْ غَالبَ الأيامَ مَغْلُوبُ
وَكُلّ حَي وَإنْ طالَتْ سَلامَتُهُمْ ... يَوْماً طَرِيقُهُمُ فِي الشّرّ دَعْبُوبُ
وَكُلّ مَنْ غَالبَ الأيامَ مِنْ رَجُلٍ ... مُودٍ وَتابعُه الشّبّانُ وَالشّيبُ
بينَا الفَتَى نَاعِمٌ رَاضٍ بِعيشَتِهِ ... سِيقَ لَهُ مِنْ دَوَاهِي الدّهْر شُؤْبُوبُ
يَلوِي بِهِ كُلّ عَامٍ لَيّةً قِصْراً ... فَالمَنْسِمَانِ مَعا دَامٍ وَمَنْكُوبُ[3]
أبْلِغْ بَنِي كَاهِلٍ عَنّي مُغَلْغَلَةً ... وَالقومُ مِنْ دُونِهِم سَعْيَا وَمَرْكُوب

---

(1) أبوتمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 379 - 380 ، والسّلك : طائر وهو الحَجَل

(2) الهذليون ، ديوان الهذليين ، طبعة دار الكتب في السنوات 64 - 67 ، 1369 هـ ، 45 - 48، 1950 م ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1385 هـ - 1965 م ، جـ 3 ، ص 120 .

(3) لم يرد البيت في ديوان الهذليين ، وإنما أثبته بترتيبه عند أبي سعيد الحسن بن الحُسين السّكري ، شرح أشعار الهذليين ، تح عبد الستار أحمد فرّاج ، القاهرة مكتبة دارالعروبة ، (د . ت) ، جـ 2 ، ص 579

وَالقَوْمُ مِنْ دُونِهم أَيْنٌ وَمَسْغَبَة ... وَذَاتُ رَيْدٍ بها رِضْعٌ وَأَسْلُوبُ[1]

أَبْلِغ هُذَيلاً وأبلغ مَنْ يُبَلِّغُهَا ... عَنِّي رَسُولا وَبَعْضُ القَولِ تَكْذِيبُ

بأنّ ذا الكلب عَمْراً خَيْرُهُم حَسَبَا ... ببَطْن شِرْيَانَ يَعْوِي عِنْدَهُ الذِّيبُ

الطاعِنُ الطعْنَة النّجلاء يَتْبَعُها ... مُتْعَنْجَرٌ مِنْ دِمَاءِ الجَوفِ أَثْعُوبُ

والتّاركُ القِرْنَ مُصْفَرّا أَنامِلُهُ ... كَأَنّهُ مِنْ نَقِيعِ الوَرْسِ مَخْضُوبُ[2]

تَمْشِي النُّسورُ إليه وَهي لاهِيَة ... مَشْيَ العَذَارى عَلَيهنّ الجَلابيبُ

المُخْرِجُ الكَاعِبَ الحَسْناءَ مُذعِنَة ... فِي السّبي يَنْفَحُ مِنْ أَرْدَانِهَا الطِيب

فَلَم يَرَوا مِثْلَ عَمْرو مَا خَطتْ قدَمٌ ... وَلَنْ يَرَوا مِثْلَه مَا حَنّتْ النِّيبُ

فَاجْزُوا تأبّط شَرّاً لا أَبَالَكُمْ ... صَاعَا بصَاع فَإنّ الذلّ مَغْثُوبُ[3]

في أبيات جنوب تجسدت معاني الرّثاء التي تحمل في مضمونها الصفات التي كانت تفخر بها جُلّ الشواعرفي العصر الجاهلي ، فقد أصبغت على المرثي تعابير رثائية تجلت فيها معاني الفخر بالنسب والشجاعة وقت السلم والحرب ، فهو حامي القبيلة والمدافع دونها ، ونجدها في موضوع آخرتنشد أبياتاً تصف فيها الوقائع التي مرت به في قتله على أيدي أعدائه ، فقالت :

سَأَلْتُ بعمرِو أخي صَحْبَه ... فَأَفْظَعَنِي حِينَ رَدُّوا السُّؤَالا

فقالـــوا قتلناهُ في غـارة ... بآية أنْ قدْ وَرِثْنَا النِّبالا

فَهَلاّ إذن قبْلَ رَيْبِ المَنُون ... فَقَدْ كَانَ رَجْلاً وكُنْتُم رجَالا

وَقالُوا أتيـــحَ لَهُ نَائِماً ... أَعَزُّ السِّبَاع عَلَيْهِ أحَالا

أَتِيــحَ لَهُ نَمِــراً أَجْبُلٍ ... فَنَالا لَعَمْرُكَ مِنْهُ مَنَالا

---

(1) لم يرد البيت في ديوان الهذليين ، وإنما أثبته من شرح أشعار الهذليين ، جـ 2 ، ص 580

(2) لم يرد البيت في ديوان الهذليين ، وإنما أثبته من الأغاني جـ 22 ، ص353

(3) ديوان الهذليين ، جـ 3 ، ص 124 - 126

الأين : الإعياء ، المسغبة : الجوع ، ذات ريد : الجبل

الرضع : شجرٌ ، الأسلوب : شجر السلب ذا الليف الأبيض

بطن شريان : موضع قتل فيه عمرو ذو الكلب

المتعنجر : سائل يتبع بعضه بعضاً والأثعوب : من انثعب الماء أي سال .

القرن : النظير في الشجاعة .

الورسُ : نبت أصفر يصبغ به ، أردانها : أكمامها ، النيب : الناقة المسنة .

أتيحَا لِوَقْتِ حِمَامِ المئُونِ ... فنَالا لَعَمْرُكَ مِنْهُ مَنَالا[1]

فَأَقسِمُ ياعَمْرو لو نبَّهاكَ ... إذَنْ نبَّها مِنْكَ دَاءً عُضَالا

إذَنْ نَبَّها غَيْرَ رعْدِيدَةٍ ... وَلا طَائِشٍ رَعِشٍ حِينَ صَالا

إذَنْ نَبَّها لَيْثَ عِرِّيسَةٍ ... مُفِيداً مُفِيتاً نُفُوساً ومَالا

إذَنْ نَبَّها وَاسِعَاً ذَرْعُهُ ... جَمِيع السِّلاح جَلِيْداً بُسَالا

هِزَبْراً فَرُوساً لأقرَانِهِ ... أبيَّا إذَا صَاوَلَ القِرْنَ صَالا

هُمَا مَع تَصَرّف رَيْب المَئُونِ ... مِنَ الأرْضِ رُكناً ثبيتاً أمَالا[2]

هُمَا يَوْمَ حُمّ لَهُ يَوْمُهُ ... وَقَالَ أخُو فَهْم بُطلاً وَفالا

وَقد عَلِمَتْ فَهْمُ عِنْدَ اللِقاءِ ... بأنّهم لكَ كَانُوا نِفالا

كَأنّهُم لَمْ يُحِسّوا بِهِ ... فَيُخلُوا النِّسَاءَ لَهُ والحِجَالا

وَلَمْ يُنْزِلوا لزَبَاتِ السّنِينَ ... بِهِ فَيَكُونُوا عَلَيْهِ عِيَالا

وَقَدْ عَلِمَ الضَّيْفُ والمُرْمِلونَ ... إذا أغبرّ أفْقٌ وَهَبّتْ شَمَالا

وَخَلّتْ عَنْ أوْلادِهَا المُرْضِعَاتُ ... فلمْ تَرَ عَيْنٌ لِمُزْنٍ بلالا

بأنّكَ كُنْتَ الرّبيعَ المُرِيعَ ... وَكُنْتَ لِمَنْ يَعْتَفِيكَ الثمَالا

وَخَرْقٍ تَجَاوَزْتَ مَجْهُولَهُ ... بوَجْنَاءَ حَرْفٍ تشكي الكَلالا

فَكُنْتَ النّهارَ بِهِ شمْسَهُ ... وَكُنْتَ دُجَى اللّيلِ فِيهِ الهلالا

وَخَيْلٌ سَرَتْ لَكَ فرْسَانهَا ... قُولّوا وَلَمْ يَسْتَقِلّوا قِبَالا

وَحَيّ أبَحْتَ وَحَيّ صَبَحْتَ ... غَدَاةَ الهيَاج مَنَايا عِجَالا

وَكُلّ قبيلٍ وَإن لَمْ تكن ... أرَدْتَهُمُ مِنكَ بَاتُوا وجَالا[3]

---

(1) لم يرد البيت في ديوان الهذليين ، إنما أثبته من شرح ديوان الهذليين ، جـ2 ، ص583

(2) في ديوان الهذليين : رُكناً عزيزاً

(3) ديوان الهذليين ، جـ 3 ، ص 120 - 123

الحمام : قدرُ الموت ، العِّريسة : الموضع الذي يكون به الأسد ، المفيت : مهلك النفوس والمال ، الهزبر: اسم السَّبع ، والفروس : الذي يدُق الأعناق ، حُمّ : قدر، فال : أخطأ ، الحجالُ : جمع حجلة وهي بيت يزيّن بالثياب والأسرة والسّتور، الزبات : الشدائد ، المرملون : من أرمل القوم إذا نفذ زادهم ، الثمال : الذخر والغياث ، الخرق : الموضع ينحرق فيمضى في الفلاة ، الهياج : اللقاء ، الوجالُ : الخوف

تصف الشاعرة أخاها بالقائد مستمدة له صفة من بيئتها في محاولة لإيضاح كثير من القيم التي تحلَّ بها في القبيلة ، فهو ربيع المعوزين في أيام الجدب ، والفارس الباسل في حله وترحاله ، فجاءت بالعديد من عادات الجاهلية التي كان يفتخر بها العرب في العصر الجاهلي .

8 ـ أخت زهير بن أبي سلمى :

للخنساء بنت أبي سلمى شعر رثائي ذكرت فيه الحكمة ، وهذا ليس بغريب عن هذه الأسرة الفنية ، فأخوها زهير بن أبي سلمى كان مشهوراً بكثرة ذكر الحكمة في أشعاره ، قالت :

وَمَا يُغني تَوَقي المَوْتِ شَيْئاً ... وَلا عُقْدُ التَّمِيمِ ولا الغُضَارُ
إذَا لاقى مَنِيَّتَهُ فأمْسَى ... يُسَاقُ بهِ وَقَدْ حَقَّ الحِذَارُ
ولاقاهُ مِنَ الأيَّامِ يَوْمٌ ... كَمَا مِنْ قَبْلُ لَمْ يَخْلُدْ قُدَارُ[1]

فقد كانت هذه الشاعرة مفجوعة لموت الأعزاء ، وقد بكت المَرْثي بأبيات تحمل ضمناً صوراً من التفجع على الأبطال .

9ـ أخت عمرو بن معد يكرب :

أخت عمرو بن معد يكرب هي كبشة الزبيدية التي رثت أخاها عبدالله بأبيات تظهر فيها بوضوح صدق العاطفة الأخوية ، وكان رثاؤها هذا في العصر الجاهلي ، قالت :

أرْسَلَ عَبْدُ اللهِ إذْ حَانَ يَوْمُهُ ... إلى قَوْمِهِ: لا تَعْقِلُوا لَهُمُ دَمِي
وَلا تَأْخُذُوا مِنْهُمْ إفالاً وأبْكُرا ... وَأتْرَكَ في بَيْتٍ بصَعْدَةَ مُظْلِمِ
وَدَعْ عَنْكَ عَمْراً ، إنَّ عَمْراً مُسَالِمٌ ... وَهَلْ بَطْنُ عَمْرٍو غَيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ
فإنْ أنْتُمُ لَمْ تَثْأرُوا واتَّدَيْتُمُ ... فَمَشُّوا بآذَانِ النَّعَامِ المُصَلَّمِ
وَلا تَرِدُوا إلاَّ فُضُولَ نِسَائِكُمْ ... إذَا ارْتَمَلَتْ أعْقَابُهُنَّ مِنَ الدَّمِ[2]

وعن أبياتها هذه يقول المرزوقي " والكلام بعثٌ وتهييجٌ وإنما تكلمت به على أنه إخبارٌ عما فعله عبدالله وأقامَهُ من الوَصَاة عند الوفاة " [3] .

---

(1) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 10 ، ص 314 ، الغضار : خزف أخضر يعلق في العنق
وقدار : هو قدار بن سالف عاقر الناقة .
(2) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 71 ـ 72 ، العقل : الدّية ، الإفال : صغار الإبل ، البكر : الفتيّ من الإبل
(3) أبوعلي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، شرح ديوان الحماسة ، نشر الأستاذين أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، (د . ب) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1965 ، جـ 1 ، ص 217 .

ونراها في شعرها هذا قد أرسلت زفرة حارة وهي تتحدث بلسان أخيها ، تحث قومها على أخذ ثأره تهييجاً لحمية القوم ، فهي تارة تهدد قومها وتارة تقوم بتهديد أعدائها .

10- الخنساء :

كانت تماضر بنت عمرو بن الشريد واحدة من بنات أسر الأشراف وكان أخوها صخر سيداً في قومه ، وقد حظيت الخنساء باهتمام الرواة في تدوين شعرها ، الذي جُمع في ديوان ضم العديد من القصائد والمقطوعات في رثاء أهلها ، بكت في أغلبها أمجادهم وافتخرت كثيراً بمكانتهم بين القوم ، وقد أُفردت للخنساء عدة أبحاث ودراسات لحياتها وشعرها[1] ، ولكن لأجل التتبع التاريخي الذي تقتضيه هذه الدراسة في الحديث عن شعر الرّثاء عند النِّساء ، يتحتم علينا أن نذكر لها بعضاً من أبياتها الرثائية الخالدة ، تقول الخنساء في رثاء معاوية وصخر :

بكَتْ عَيْني وحُقَّ لَهَا العَويلُ ... وَهَاضَ جَنَاحِيَ الحَدَثُ الجَليلُ
فَقدْتُ الدَّهْرَ، كيف أكَلَّ رُكني ... لأقْوَامٍ مَوَدَّتُهُمْ قليلُ
عَلَى نَفَرٍ هُمُ كَانُوا جَنَاحي ... عَلَيْهم حِينَ تَلْقَاهُمْ قَبُولُ
فَذَكَّرَني أخي قَوْمَاً تَوَلَّوا ... عَليّ بذِكْرِهِمْ مَا قِيلَ قِيل
مُعَاوِيَةُ بنُ عَمْرٍو كَانَ رُكْني ... وَصَخْراً كَانَ ظِلُّهُمُ الظَّلِيلُ
ذَكَرْتُ فَغَالَني وَنَكَا فُؤَادِي ... وَأَرَّقَ قومي الحُزْنُ الطَّويلُ
أولو عِزٍّ كَأَنَّهُمُ غِضَابٌ ... وَمَجْدٍ مَدَّهُ الحَسَبُ الطَّوِيلُ
هُمُ سَادُوا معدّاً في صِبَاهُمْ ... وَسَادُوا وَهُمْ شَبَابٌ أوْ كُهُولُ
فَبَكِّي أمَّ عَمْرٍو كُلّ يَوْمٍ ... أخَا ثِقَةٍ مُحَيَّاهُ جَمِيلُ[2]

لا شك في أن الخنساء قد أجادت فن الشعر وبخاصة فن الرثاء فكانت سباقة لاستحواذ لقب أميرة الشواعر ، " وكانت الخنساءُ تقول الأبيات اليسيرة ، فلما أصيبت بأخيها صخر جدّت وأجادت ، وجَمعتْ نفسها وشُهرت " [3] .

---

(1) من الأبحاث : الخنساء في مرآة شعرها ، إسماعيل القاضي
ومن الدراسات : الرثاء بين الخنساء وليلى الأخيلية ، ربيعة أبو القاسم الواعر
وغيرها من الأبحاث والدراسات .
(2) ديوانها ، ص 111 ، نكا : مخففة من نكأ أي أسال الدم .
(3) المبرد ، التعازي والمراثي ، ص 92 .

المبحث الثالث:

البيئة الجاهلية في شعر الرثاء عند النساء الشواعر

أولاً : طلب السقيا

ثانياً : الجدب

ثالثاً : النجوم والكواكب

رابعاً : الحيوان

خامساً : الطيور

تقع مناطق القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية ، وعلى امتدادها كانت بيئات الشواعر بمختلف المدن والقرى وسيعتني هذا المبحث في تتبع أثر البيئة الجاهلية على شعر النساء في قصائد الرثاء .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا ذِكر مظاهر الطبيعة ظاهرة فيه واضحة جلية ، وبما أن الشعركما تقدم كان الغالب عليه أنه قد نشأ في ظل الحروب والملاحم وأيام العرب ، حيث صبغت تلك المعارك شعر النساء بصبغة الفخر والمدح ، فقد استقت من الطبيعة وجمالها وقوتها معاني انعكست ظلالها على المرثي ؛ لتأكيد معنى شجاعته وفروسيته في حلبة الصراع ، ولأن السبب الأول لتلك الأيام كان من أجل اختصامهم على المرعى (الماء والكلأ) ، فقد جاء ذكر الطبيعة الصامتة والمتحركة في شعرالمرأة بقدر ما شاهدت هي من مظاهرها الخاصة في بيئتها الجاهلية .

أولاً : طلب السقيا

إذا كان المرثي غيثاً للمعوزين ، فإن من يرثيه يكون كل أمله في أن يظل الخير سمة من سماته ، وإن كان ميتاً في القبر ، ويدعو له أن يتنزّل عليه الغيث " ... فلم يجدوا أحسن دعاء وترحماً من استمطار الغيث لأنه أحسن النعمى ، وأفضل السقيا ، فكل ما استمطروه يجود وابله عليهم ويسحّ ماؤه ، وهذا ما كانوا يصبون إليه "[1] ، تقول ليلى بنت سلمة في طلب السقيا حين رثت أخاها :

سَقَى اللهُ قَبْراً لَسْتُ زَائِرَ أَهْلِهِ ... بِبيشَةَ إِذْ مَا أَدْرَكَتْهُ المقَادِرُ
تَضَمَّنَ خِرْقاً كَالهِلالِ وَلَمْ يَكُنْ ... بِأَوَّلِ خِرْقٍ ضَمّنَتْهُ المقَابِرُ
نعاهُ لَنَا النَّاعِي فَلَمْ نَلْقَ عبْرَةً ... بَل حَسْرَةً تَبْيَضُّ مِنْهَا الغَدَائِرُ
كَأَنِّي غَداةَ اسْتَعْلَنُوا بِنَعِّيهِ ... عَلَى النَّعْشِ يَهْفُو بَيْنَ جَنْبَيَّ طائِرُ
لَعَمْري لَما كَانَ ابنُ سَلْمَةَ عَاجِزاً ... ولا فَاحِشاً يَخْشَى أَذَاهُ المُجَاورُ
نَأَتْنَا بِهِ مَا إِنْ قَلَبْنَا شَبَابَهُ ... صُرُوفُ الليالي والجُدُودُ العَوَاثِرُ[2]

---

(1) د. نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ط1 ، بيروت ، دار الإرشاد ، 1390 هـ ، 1970 م ، ص 62 - 63 .
(2) البحتري ، الحماسة ، ص 432 ، وبلى هنا بمعنى (بَلْ) .

وهذه المعاني المأخوذة من البيئة تضمنتها قصيدة فارعة المُرِّية وهي ترثي أخاها مسعود بن شدّاد ، قالت :

يامَنْ رأى بارقاً قدْ بتُّ أرمُقُه ... جَوْدا على الحَرَّة السَّوداء بالوادي
أسقي به قبرَ مَنْ أعْنِي وحُبّ به ... قَبْراً إليّ ولو لَمْ يَفْدِهِ فادي
شَهَّادُ أنديةٍ رَفَّاعُ أبنيةٍ ... شَدَّادُ ألويةٍ فتَّاح أسدادِ
نَحَّارُ راغيةٍ قتّالُ طاغية ... حَلَّالُ رابيةٍ فكَّاكُ أقيادِ
قوّالُ مُحْكَمةٍ نقّاضُ مُبْرَمَةٍ ... فرَّاجُ مُبْهَمةٍ حَبَّاسُ أورادِ
حَلَّالُ مُمْرعَةٍ حَمَّالُ مُضْلِعَةٍ ... قرَّاعُ مُفظِعةٍ طلَّاعُ أنجادِ
جَمَّاعُ كُلِّ خِصَالِ الخَيْرِ قدْ عَلِمُوا ... زَيْنُ القرين وخَطْمُ الظالم العادي
أبا زُرَارةَ لا تَبْعَدْ فكُلُّ فتىً ... يَوْماً رَهينُ صَفِيحَاتٍ وأعوادِ[1]

وقالت أخت سعد بن قُرْط العبدي في رثاء أخيها :

يَا سَعْدُ يا خَيْرَ أخ ... نَازَعْتُ دَرَّ الحَلَمَهْ
يا ذائِدَ الخَيْلِ ومُجْـ ... ـتابَ الدِّلاص الدّرمَهْ
سَيْفُكَ لا يَشْقى بهِ ... إلَّا السِّنَادُ السّنِمَهْ
يَا سَعْدُ كَمْ أوْقدْتَ لِلْ ... أضْيَافِ نَاراً زَهِمَهْ
جَادَ عَلَى قبْرِكَ غَيْـ ... ـثٌ مِنْ سَمَاءٍ رَزِمَهْ[2]

دعت الشاعرة للمرثي أن يسقي الغيث ثراه ، فقد كان غيثاً يعم خيره على قومه ، فأرادت أن يكافأه الله على جوده وكرمه ، وما تأتي به الشواعر في رثائهن إنما هو تعبير عن أفكار ومطامح تجول في نفوسهن فتجعل من الطبيعة متنفساً لبث لواعج قلوبهن التي دميت من شدّة الحزن والألم ، وكان طلب السقيا شائعاً في الجاهلية ، وأهل المرثي كانوا ينشدون أن يظل قبره ندياً اعتقاداً منهم بأن ذلك ينفعه ويسره " وشعراء العرب في الجاهلية الذين كانوا يدعون لقبورهم أن ينزل عندها الغيث ، حتى يكون مكانها مُخصباً ينزل به الناس ، ويكونُ

---

(1) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 12 ، ص 111.
بارقٌ : سحابٌ ذو برق ، الجود : الكثير المطر ، الراغية : الناقة
المضلعة : المثقلة للأضلاع ، صفيحات : الصفيحة أي الحجرالعريض .
(2) أبوتمام حبيب بن أوس الطائي ، الوحشيات ، تح عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، القاهرة ، دار المعارف ، 1963 م ، ص 140

القبرُ مزوراً دائماً ، لا مهجوراً في الصحراء "[1] ، وكانوا يحرصون على دعائهم ودعاء الآخرين لهم ، حتى لا يفقدون مكانتهم التي كانوا عليها وهم أحياء .

وكذلك جاء ذكر الماء في شعر النساء ، مرتبطاً بأهمية المياه في الحياة الصحراوية ، لاسيما الماء القراح ، تقول سارة القريظية :

بنَفْسي أمَّةٌ لم تُغْنِ شَيْئاً ... بذي حُرُضٍ تُعَفِّيهَا الرِّيَاحُ
كُهُولٌ مِنْ قُرَيظة أتلفَتْهَا ... سُيُوفُ الخَزْرجيَّةِ والرِّمَاحُ
رُزِئْنَا والرزيَّةُ ذَاتُ ثِقْلٍ ... يَمُرُّ لأهْلِهَا الماءُ القرَاحُ
ولَوْ أرْبُوا بأمْرِهُمُ لَجَالَتْ ... هُنَالِكَ دُوْنَهُمْ جَأوَا رَدَاحُ[2]

تبكي الشاعرة الخسارة التي حلت بقومها الذين كانوا يسيطرون على مواطن الماء ، وفي رثاء أخت الحاجز الأزدي تلوح معاني الظمأ الذي يهدد حياة الإنسان ، قالت :

أحيٌّ حَاجِزٌ أمْ لَيْسَ حَيّاً ... فَيَسلُك بين جِنْدفَ والبهيم
وَيَشْربُ شربةً مِنْ ماء ترج ... فَيُصْدِرُ مِشْيَةِ السّبع الكليم؟[3]

ثانياً : الجدب

عاش الكثير من الناس في العصر الجاهلي عيشة صحراوية ، والصحراء كانت جزءاً من حياتهم ، وقد تفاعلوا معها بكلّ أحوالها من قحط ورخاء ، وشعر المرأة لم ينس ذكر حالات الجفاف وقلة المطر التي مرت بالقبائل ، فقد ذكرت ليلى بنت سلمة في أبياتها كيف أن المرثي كان عوناً لقومها حيث يقاسون الفقر والعوز ، وقد فاض بكرمه على الأرامل واليتامى :

أقُوْلُ لِنَفْسي في خَفَاءٍ أُلومُهَا ... لكِ الويلُ ما هَذا التَّجَلُّدُ والصَّبْرُ
ألا تَقْهَمِينَ الخبْرَ أنْ لَسْتُ لاقياً ... أخي إذْ أتى مِنْ دُونِ أكفانِهِ القبرُ
وكُنْتُ أرَى بَيْناً بِهِ بَعْضَ ليلةٍ ... فكيفَ ببَيْنٍ دُونَ مِيعادِهِ الحُشْرُ
وَهَوَّنَ وَجْدي أنَّني سَوفَ أغتَدي ... على إثرِهِ يوماً وإن طَالَ بي العُمْرُ

---

(1) أحمد أحمد بدوي ، أسس النقد الأدبي عند العرب ، ط2 ، الفجالة ، مكتبة نهضة مصر ، 1960 ، ص 238 .
(2) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 22 ، ص 112 ، جأوا : جأواء : من الإبل والخيل قصرت ضرورة .
(3) نفس المصدر ، جـ13 ، ص 215 ، جندف : جبل باليمن ، والبهيم : جبل ، وترج وبيشة : قريتان متقابلتان بين مكة واليمن .

فتَىً كَانَ يُعْطي السَّيفَ في الرَّوع حقّهُ إذا ثوّبَ الدَّاعي وتَشْقى بهِ الجُزْرُ
فتىً كَان يُدْنِيهِ الغِنَى من صَديقهِ إذا مَا هُوَ استغنَى ويُبْعِدُهُ الفقْرُ
فتىً لا يَعُدُّ المالَ رَبَّاً ولا ترى لهُ جَفْوةٌ إنْ نَالَ مَالاً ولا كِبْرُ
فَنِعْمَ مُناخُ الرَّكبِ كانَ إذَا انبرَتْ شَمَالٌ وأمستْ لا يُعَرِّجُها سِترُ
وَمَأْوَى اليتامى المُمحِلين إذَا انتَهَوا إلى بَابهِ شعثاً وَقَدْ قحِط القطرُ[1]

وصفت الشاعرة حالات الصراع مع قسوة الطبيعة الصحراوية وندرة المطر ، وهذه الندرة تدفع بالمرء للتضرّع لاستنزال السقيا في صورة الأساطير والخرافات الجاهلية لطلب الغيث والماء خشية ركود البلاء ، واشتداد الجدب ، والمرثي كما وصفته يكون له شأن حين غناه ، وإن أصابه الفقر واستغنى عنه الآخرون ، ابتعد عنه صديقه ، وقد مدحت الشاعرة أخاها بتكفل الأيتام حين قحط القطر ، وهذه ضُبَاعة بنت عامر بن قرط ترثي زوجها هشام بن المغيرة الذي كان ربيعاً للمعوزين في أيام الشدة ، قالت :

إنَّكَ لو وَأَلْتَ إلى هِشامٍ أمِنتَ وكُنْتَ في حَرمٍ مُقِيم
كريمُ الخِيمِ خَفَّافٌ حشاهُ ثِمالٌ لِليتيمةِ واليَتيم
رَبيعُ النّاس أرْوَعُ هِبْرزيٌّ أبيُّ الضّيمِ ليسَ بذي وُصُوم
أصيلُ الرَّأي ليسَ بحَيْدريٍّ ولا نَكدِ العَطاءِ ولا ذَمِيم
... ...
ولا مُتنزّع بالسُّوءِ فِيهم ولا قذع المَقالِ ولا غشُوم
فأصبحَ ثاوياً بقرار رَمْسٍ كَذاك الدَّهرُ يفجَعُ بالكريم[2]

وقالت بنت وَثِيمة بن عثمان ترثي أباها :

الوَاهِبُ المالَ التِّلا دَ ندىً وَيَكفينَا العَظِيمَهْ
ويكُونُ مِدرَهَنا إذا نَزَلتْ مُجلِّحَةٌ عظيمهْ
وأحْمرّ آفاقُ السَّمَا ءِ ولَم تَقع في الأرْض دِيمَهْ
وتعذَّر الآكَالَ حتَّى كَانَ أحمَدَها الهَشِيمَهْ

---

(1) البحتري ، الحماسة ، ص 431 - 432 .
(2) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 178 .

لا تَلَّةَ تُرعى ولا إبلٌ ولا بَقرٌ مُسِيمَهْ
ألفيتَهُ مَأوى الأرَا مِلِ والمُدَفَّعةِ اليتيمَهْ
والدَّافِعُ الخَصْمَ الألدْ دَ إذا تفوضِح في الخُصُومَهْ
بلسانِ لُقمانَ بنِ عا دٍ وَفَضْلِ خُطْبتِهِ الحَكِيمَهْ
ألجمتَهُم بَعْدَ التَّدا فُع والتَّجاذُبِ في الحُكُومَهْ[1]

في أبيات الشاعرة تجلت صورة لتلك الحياة التي عاشها الجاهليون ، فعبرت بفطرتها عن ألم العوز الذي أصابها بفقد من كان يخفف من وطأة الفقر على من حوله من المحتاجين ، ولأميمة أم تأبط شراً قول في ذلك :

قتيلٌ مَا قتيلُ بني قُريمٍ إذا ضَنَّتْ جُمادَى بالقِطار
فَتَى فُهْمٍ جميعاً غادَرُوه مُقيماً بالحُرَيْضَةِ مِنْ ثُمَار[2]

ولأروى بنت الحُباب رثاء في أبيها ، تحدثت فيه عن العوز الذي ستلاقيه الأرامل وأبناؤهن ، قالت :

قُل لِلأرامِلِ واليتَامى قد ثَوى فَلْتَبْكِ أعيُنُها لفقدِ حُبَابِ
أودَى ابنُ كُلِّ مُخاطرٍ بتلادِهِ وبنفسِهِ بُقياً على الأحسابِ
الرَّاكبينَ مِنَ الأمُورِ صُدُورها لا يَركَبُونَ مَعَاقِدَ الأذْنَابِ[3]

ترى النساء أن موت الكريم الذي كان يجود بكرمه على الناس خسارة كبيرة لهم ، حتى أن ليلى بنت الشاعر يزيد بن الصعق الكلابي قالت في رثاء أبيها حين ورثه معِيَّة بن يزيد قدره وجفنته وقد ورد ذكر الجود والكرم عند الحديث عن مكانة الرجل الكريم وهي تصف عوز الآخرين لفقده :

يزيدُ أبَا قيسٍ وَهَلْ تَسمعَنَّهُ وعِندَكَ تَعْبيرٌ لَو أنَّكَ تسمعُ
لأصْبَحَ ما جَمَّعتَ مِنْ كُلِّ صالحٍ معِيَّةٌ يُعطِي النّاسَ مِنْه ويمنْعُ

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيّن ، جـ 1 ، ص 183 ، التلاد : القديم من المال .
(2) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 21 ، ص 171 .
(3) البحتري ، الحماسة ، ص 493 ، وجاء في التعازي للمدائني جـ 1 ، ص 49 والتعازي والمراثي للمبرد ، ص 243 أن الأبيات لعمرة أخت عتبة بن أبي عقبان ترثيه مع اختلاف الرواية عند المدائني .

فَلا تَأمَنَنّ الدَّهرَ شيئاً رأيتهُ وَلا أنْ يَسُوقَ النّاسَ عبدٌ مُجَدَّعُ[1]

وهذه المعاني التي تذكرها المرأة الشاعرة عن كرم المرثي وقت الجدب نجدها في أبيات جنوب أخت عمرو ذي الكلب ، حيث ربطت بين مظاهر الطبيعة في قوتها وصلابتها وتأثيرها على التضحيات التي كان يقوم بها لإسعاد من حوله ، وبين إصراره على بذل الجهد للمزيد من الكرم والجود ، قالت :

ياليتَ عَمراً وما لَيثٌ بنافِعةٍ لم يَغزُ فهماً ولَم يَهبط بوادِيها
شَبّت هُذيلٌ وفهمٌ بينَنا إرةً ما إن تَبُوخُ وما يَرْتَدُّ صَاليها
وليلةٍ يَصطلي بالغرثِ جازرُها يختصُّ بالنَّقرى المُثرينَ دَاعِيها
لا يَنبَحُ الكَلبُ فِيهَا غَيرَ واحدةٍ منَ العِشاءِ ولا تَسْري أفاعِيها
أطعَمتَ فِيها على جُوعٍ وَمسغَبةٍ شَحْمَ العِشار إذا ما قامَ باغِيها[2]

ثالثاً : النجوم والكواكب

ومن الأرض حلقت الشواعر بأنظارهن إلى السَّماء ، وكانت المرأة تبوح بمشاعرها لمن حولها من المخلوقات تنفيساً عن كربها وشدّة حزنها ، وشكت من طول الليل كما فعل الشعراء في قصائدهم ، " ... فقد كان يرتبط ذلك بصورة الغيوم وقد شدت إلى الجبال ، بأمراس وحبال ، فهي ثابتة لا تتحرك ، واقفة لا تتغير "[3] ، تقول أميمة بنت أمية :

أبَى ليلكَ لا يَذْهَبْ وَنيطَ الطرْفُ بالكَوكَبْ
وَنَجْمٌ دُوْنَهُ الأهوَا لُ بَيْنَ الدّلو وَالعَقرَبْ
وَهَذَا الصّبْحُ لا يَأتِي وَلا يَدْنُو وَلا يَقرُبْ[4]

من حزنها خيل لها أن الليل لن يعقبه صبح ، " وللشاعر الجاهلي قدرة على وصف النفس وأحوالها وبخاصة إذا ما كان مهموماً ثقيل النفس ، وقد أفرغ الكثير من همومه في شعره مخاطباً به

(1) المبرد ، التعازي والمراثي ، ص 207 .
(2) ديوان الهذليين ، جـ 3 ، ص 126 ، إرة : موقد النار والمراد بها الحرب ، ما تبوخ : ماتسكن ، مايرتد صاليها : أي ماينزع عنها ، النقرى : أن يدعو واحدا واحدا ، المثرين : أهل الغنى والثروة ، المسغبة : الجوع .
(3) نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 65 .
(4) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 22 ، ص74 .

الليل الذي كان مصدر عذاب لهم بطوله وجفوته " [1] .

والمرأة الشاعرة كانت تطمح أن تشاركها الظواهر الطبيعية إحساسها بالحزن ومواساتها لتخفيف أثر الموت عليها ، عند ابتعاد المرثي عن عالمها " حيث نجد أن الشاعر في تصويره لأثر الموت لا يقتصر على الإنسان فقط فرداً كان أو جماعة بل يتخطاهم إلى الطبيعة من حوله ، فنرى الخنساء تقول في رثاء أخيها صخر :

والشّمسُ كاسِفَةٌ لِمَهْلَكِهِ ومَا اتسَقَ القمرْ
والإنسُ تَبكِي ولَّهاً والجِنُّ تُسعِدُ مَن سَمَرْ
والوَحشُ تبكِي شَجوَها لَمَّا أتَى عَنْهُ الخَبَرْ

فكأن الإنسان هو محور هذا الوجود ، فإذا مات تأثر الوجود كله لهذا الموت ، ... فهو سيد هذا الوجود ولم يعد مجرد كائن ضعيف تستبد به عناصر الكون من حوله ، وتتحكم فيه وكثير من الشعراء معنيون في رثائهم أن يربطوا بين الموت والزمن ، وبين الحزن الإنساني والأحزان الوجودية لبعض الكائنات الأخرى " [2] .

فقد أخبرت الخنساء أن موت أخيها قد خلف الحزن العميق للبشر والعالم المحيط به ، ولكأنما بموته تفقد مثل هذه الظواهر الكونية صلتها بالوجود ، ورأت إحدى الشواعر أن السّماء فقدت عمادها بعد موت أبناء قومها وهي ذبْيَة الفهمية ، قالت :

ألا إنَّ يَومَ الشَرِّ يَومٌ بصُورةٍ وَيَومُ فُنَاءِ الدَّمع لو كَانَ فانيا
لَعَمري لَقد أبكَتْ قُريمٌ وأوجَعُوا بِجِرعَةِ بَطنِ الغِيلِ مَن كَانَ بَاكِيا
قَتَلتُم نُجُوماً لا يُحوَّلُ ضَيفُهُم ولا يَدُخرونَ اللَّحمَ أخضَرَ ذاويا
قُرُوماً يَكُبُّونَ المخَاضَ عَلى الذرا ويُوفونَ بالشَّحمِ القُدُورَ الغَوالِيا
عِمَادُ سَمَائي أصبحَتْ قد تَهَدَّمَت فَخِرِّي سَمَائي لا أرَى لكِ بَانِيا[3]

---

(1) على أحمد الخطيب ، فن الوصف في الشعر الجاهلي ، ط1 ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، 2004م ، ص21
(2) حسني عبدالجليل يوسف ، الإنسان والزمن في الشعر الجاهلي ، (د . ب) ، مكتبة النهضة المصرية ، (د. ت) ، ص 97 ، والأبيات في ديوان الخنساء ، ص 63 .
(3) السكري ، شرح أشعار الهذليين ، ص 849 .
وقروم : الفحل الذي يترك من الركوب والعمل

رابعاً : الحيوان

صورت الشواعرالكثيرمن الحيوانات أليفها ووحشيّها في شعرالرثاء ، يدل على تعلق النفوس بالحيوان أشدّ التعلق ، والحيوان أعان الإنسان على تذليل مصاعب الحياة وقسوتها، فاتخذت المرأة منه مثالاً تحتذي به مرة وتبث شكواها من غدره مرة أخرى ، ومن مظاهر اهتمام الجاهليين بالنعم والغنائم أن يكون المرعى عامراً بالحيوان ، ونرى بنت وثيمة بن عثمان تشكو شدة القحط ، تقول :

وتعذر الآكالُ حتَّى كَانَ أحمدَها الهَشِيمَه
لا ثلَّةٌ تُرعَى ولا إبلٌ ولا بَقرٌ مُسِيمَه[1]

وقد ورد ذكر الخيل في أشعار النساء لما لهذا الحيوان من أهمية بالغة الأثر في حياة الجاهلي في الحروب ، فذكره مقترناً بالفروسية ، تقول جنوب الهذلية :

وخيلٌ سرَت لَكَ فُرسَانُها فوَلَّوا ولم يَستقلُّوا قِبَالا[2]

وتصف أمامة بنت ذي الأصبع العدواني سرعة الخيل ، فتقول :

قد مَرَّتِ الخَيلُ بحَافَاتِهِ كَمَرِّ عَيثٍ لجِبٍ مَاطِرِ[3]

وتقول مارية بنت الديان الحارثي :

لما رأيتُ الخَيلَ قد طافت بهِ شَنَجت شِمالُكَ في عِنَانِ الأشقرِ[4]

أما وحشيُّ الحيوان ، فقد جاء في شعر النساء تعبيراً عن قوة المرثي وقدرته على مواجهة الصعاب ومجاهل الصحراء والجبال ، تقول جنوب الهذلية أخت عمرو ذي الكلب في رثائها :

أبْلِغْ هُذَيلاً وَ أبْلِغْ مَنْ يُبَلِّغُهَا عَنِّي رَسُولاً وَبَعْضُ القولِ تَكذِيبُ
بأنّ دَا الكَلْبِ عَمْراً خَيرُهُمْ نسَباً ببَطْنِ شَرْيانَ يَعْوي عِندَهُ الذيبُ [5]

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيّن ، جـ 1، ص18
(2) ديوان الهذليين ، جـ 3 ، ص 123 .
(3) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 3 ، ص 108 .
(4) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 172 ، وفيه أنها مارة بنت الديان .
(5) ديوان الهذليين ، جـ3 ، ص 125 .

وقالت :

وقالُوا أتِيحَ لهُ نَائما أعَزُّ السِّبَاعِ عليه أحالا
أتيحَ لهُ نَمِراً أجبُلٍ فنالا لَعَمرُكَ منهُ مَنَالا
فأقسِمُ يا عَمرو لو نَبَّهَاك إذن نَبّها منكَ داءً عُضَالا[1]

دللت الشاعرة عن شجاعة أخيها بعدم خوفه من الحيوان المفترس إذا واجهه ، ولكن كانت هجمة السباع والنمور عليه وهو نائم ، وقد صورت جنوب صورة الفزع من الموت بذكر الأثر الذي خلفه اعتداء الحيوان على المرثي .

خامساً : الطيور

جعلت الشواعر من الطيور شخوصاً تتحدث إليها وتشكو حزنها ، وقد شغلتها عمَّن حولها من البشر .

وقد دار ذكر الطيور والكواسر على ألسنة الشواعر ؛ لأنها أيقظت مشاعر القوة والسيطرة لديهن ، وأثارت فيهن الحنين والتوق إلى سماع الترانيم والأصوات التي تهيج فيها معاني البكاء والنواح ، وبذلك تشارك الراثية حزنها وألمها ، تقول الخنساء وهي تتذكر أخاها صخراً عند سماع سجع الحمام :

تذكَّرتُ صَخراً إذ سَمعتُ حَمَامة هَتوفٌ على غُصنٍ من الأيكِ تَسجَعُ[2]

وتقول جنوب الهذلية تصف النسور وهي تسعى مطمئنة إلى أخيها :

تَمشِي النُّسُورُ إليهِ وهي لاهيَة مَشيَ العَذارى عَليهنَّ الجَلَابيب[3]

فالمرأة الشاعرة ترجمت المعاني التي توحي بها الطبيعة ، وقد اتخذت من عناصر الطبيعة الصامتة والمتحركة مادة لأشعارها ، لبعث روح الحياة والحركة في جوانبها الهامدة ؛ لإحساسها بالطبيعة وحسنها

---

(1) ديوان الهذليين ، جـ3 ، ص121
(2) ديوانها ، ص96
(3) ديوان الهذليين ، جـ3 ، ص125

الفصل الثالث:

شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الإسلامي

المبحث الأول:

مظاهرالرثاءعند الشواعر في صدرالإسلام

أولاً : شعر الرثاء النسائي في الحروب بين المسلمين والمشركين

ثا نياً : شعر الرثاء النسائي في وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

ثالثاً : شعر الرثاء النسائي في زمن الخلفاء الراشدين

بعث الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسلام رحمة للعالمين ، فكان أثر الإسلام على البشرية عظيماً ، جاء بالشرائع الدينية لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور وتهذيب النفوس وبث الطمأنينة والسكينة فيها ، ليطمس بذلك كلّ العقائد الجاهلية .

وبظهور الإسلام تحرر المسلمون من الخرافات والأساطير التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ، ومن العادات والمثل الجاهلية .

وبالنظر إلى حال المسلمين في حقبة صدر الإسلام ، يلاحظ أنهم كانوا يتفاوتون في حقيقة اعتناقهم الدين الإسلامي ، ومدى تأثرهم به .

ـ الفئة الأولى (المسلمون) :

مسلمون آمنوا بكلِّ جوارحهم وكانوا صادقي الإيمان مع الله ، وهم الذين قال عنهم **عز وجل:** **{والمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (72)}**[1] .

ومسلمون كانوا ضعاف الإيمان ، أسلموا ولم تتشرب نفوسهم الإيمان ، قال عنهم **الحقُّ :**

{* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ (15) }[2] .

ـ الفئة الثانية (المنافقون) :

المنافقون هم الذين أعلنوا إسلامهم كذباً ونفاقاً ، **قال تعالى : { المُنَفِقُونَ والمُنَفِقَتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المُنَفِقِينَ هُمُ الفَسِقُونَ (67) }**[3] .

إن هذه الآيات وضحت موقف العرب من الدين الإسلامي ، ويجدر بنا الآن أن نتساءل كيف كان الشعر الرثائي عند النساء في بداية صدر الإسلام والمدى الذي وصلت إليه الراثية المسلمة في التأثربالقيم والمباديء الإسلامية .

---

(1) سورة التوبة ، آية 72 .
(2) سورة الحديد ، آية 15 .
(3) سورة التوبة ، آية 67 .

أولاً : شعر الرثاء النسائي في الحروب بين المسلمين والمشركين

كان الشعر الرثائي في العصر الجاهلي يكاد ينحصر في الأيام التي دارت بين القبائل ، حيث الصراع الدائم في ظل العصبية القبلية ، وبعد مجيء الإسلام وبانقسام الناس إلى فئتين متمثلة في فئة آمنت بالله وفئة ظلت على شركها ، أصبح شعر الرثاء مواكباً للأحداث في حقبة صدر الإسلام .

ولم تظهر قصائد النساء الشواعر إلا بعد الهجرة النبوية حين شُرع القتال ، وقامت الغزوات بين المسلمين والمشركين بعد الجهر بالدعوة الإسلامية ، في حين كانت لبعض النساء الشواعر في مختلف القبائل أشعارٌ قيلت في مكة قبل الهجرة في رثاء الذين أدركوا الإسلام ولم يسلموا ، فأدرجنا تلك القصائد ضمن العصر الجاهلي .

وسنبدأ بتتبع الرثاء الذي نشأ في ظل تلك المعارك ، ابتداء من غزوة بدر باعتبارها أولى الغزوات التي قامت بين المسلمين والمشركين .

إن شعر المرأة كاد أن يختفي تماماً في الفترة ما بين الجاهلية والإسلام في السنين الأولى من البعثة وقبل الجهر بالدين الإسلامي ولم يظهر منه إلا ما يشبه الومضات عند بعض الشواعر في رثاء من قتل في حروب القبائل فيما بينها ، الأمر الذي يبعث على التساؤل فيما اعترى الشعر من اختفاء بالقياس إلى ما وجد من أشعار للنساء في العصر الجاهلي ، " ولعل سبب ذلك ، أنه لم يكن في قريش ولا غيرها شاعرة ... بارزة بالشعر قبل ظهور الإسلام " [1] . ولم تظهر قصائد النساء على قلتها إلا في الغزوات ، التي يمكن أن يؤرخ بها شعر الرثاء عند النساء في فترة الخضرمة ، وأولى هذه الغزوات التي كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي حدث فيها قتال بين الحقِّ والباطل غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة .

---

(1) د. يحيى الجبوري ، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، ط 1 ، بغداد ، منشورات مكتبة النهضة ، 1964 ، ص208

وعن هذه الغزوة ذكر ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة ـ قبل بدء القتال ـ دعا المسلمين للمبارزة ، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عبيدة بن الحارث وعمّه حمزة بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب للمواجهة ، فبارز عبيدة عتبة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة وبارز علي الوليد بن عتبة ، وتم للمسلمين قتل هؤلاء الثلاثة من المشركين [1] .

وفي هذه الغزوة ظهرت عدة قصائد ومقطوعات لبعض الشواعر، ونجد أن هند بنت عتبة قد نظمت عدة مقطوعات في رثاء قتلى المشركين من ذويها ، ومما قالته رثاء في أبيها عتبة ابن ربيعة :

أعَيْنيَّ جُودَا بدَمْعٍ سَرب ... على خَيْر خِنْدف لَمْ يَنْقَلِبْ
تَداعَى لَهُ رَهْطُهُ غُدوةً ... بَنُو هَاشِمٍ وبَنُو المطَّلبْ
يُذيقُونَهُ حَدَّ أسْيَافِهِمْ ... يفلُّونَه بَعْدَ مَا قدْ عَطِبْ
يَجُرُّونَه وعَفيرُ التُّرابِ ... عَلى وَجْهِهِ عَارياً قدْ سُلِبْ
وَكَانَ لَنَا جَبلاً رَاسِياً ... جَمِيلَ المَراةِ كثيرَ العُشُبْ
وَأمَّا بُرَيٌّ فَلَمْ أعْنِهِ ... فأوتيَ مِنْ خَيْر ما يَحْتَسِبْ[2]

تحاول الشاعرة استثارة العواطف ، تأكيداً لإحساسها بالفقد وهي تبكي مكانة وأصالة أبيها وفي أبيات أخرى نجدها تمضي في مدح المرثي والفخر به فتقول :

يَا عَيْنُ بَكِّي عُتبهْ ... شَيْخاً شَدِيدَ الرَّقَبَهْ
يُطْعِمُ يَوْمَ المَسْغَبَة ... يَدْفَعُ يَوْمَ المَغْلَبَهْ
إنِّـــي عَلَيــهِ حَربَـــة ... مَلْهُوفَـــــة مُسْتَلَبَـــهْ
لَنَهْبَطـــنَّ يَثْربَـــــهْ ... بغَـــــارةٍ مُنْثَعِبَـــــهْ
فِيهَـــا الخُيُـــولُ مُقْربَـــة ... كُـــلُّ جَـــوَادٍ سَلْهَبَـــه[3]

وهي هنا تتوعد بأخذ الثأر من المسلمين ، تتطلع إلى إحراز النصرفي غارة على يثرب ، وعلى كثرة حزنها قال الجبوري " فلم يكن شعرها ... غير مقطعات قليلة في بكاء موتاها ، ونقمتها من

---

(1) ينظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 ، ص 625 - 638 .
(2) نفس المصدر ، ق 2 ، ص 38
بريٌّ : تريد البراء هو رجل فصغرته .
(3) نفس المصدر، ق 2 ، ص 40 .
مسغبة : الجوع والشدة ، حربة : حزينة غضبى ، مستلبة : مأخوذة العقل ، منثعبة : سائلة بسرعة ، مقربة : المقرب من الخيل الذي يقرب من البيوت لكرمه ، السلهبة : الفرس الطويلة .

حمزة ... ولا يصح أن يوضع شعرها بمصاف شعر الخنساء التي قالت في موضوعها وعاصرتها "[1] ، فشعرها جاء وليد اللحظة والانفعال من قبل الشاعرة في بكاء ذويها ورثائهم ، ومن رثائها لأبيها قولها :

يُريبُ عَلينَا دهْرُنَا فيسُوءُنا ... ويأبَى فما تَأتي بشيءٍ يُغالبُهْ
أبَعدَ قتيلٍ مِن لويّ بن غالبٍ ... يُراعُ امروٌ إن مَاتَ أو مَاتَ صَاحِبُهْ؟
ألا رُبَّ يَومٍ قد رُزئتُ مُرزَّأً ... ترُوحُ وتَغْدو بالجَزيل مَواهِبُه
فأبلِغْ أبا سُفيانَ عنّي مَألُكَاً ... فإن ألقهُ يَومَاً فسُوفَ أعاتِبُه
فقد كانَ حَرْبٌ يُسعِرُ الحَرْبَ إنّهُ ... لِكُلّ امرىءٍ في النّاس مَوْلى يُطالِبُه[2]

وكما افتخرت هند بأبيها ، أشادت ببطولة حرب والد زوجها أبي سفيان ، لعلها تحمس زوجها على قتال المسلمين بذكر إقدام والده على المخاطر في أثناء الحرب .

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بطرح قتلى المشركين جميعاً في القليب[3] ، فقامت هند بنت عتبة بن ربيعة برثاء قتلاها ، أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد :

لِلهِ عَيناً من رَأى ... هُلكَـــاً كَهُلْـــــكِ رجَالِيهْ
يَا رُبَّ بَاكٍ لي غَداً ... في النَّائِبـــــاتِ وبَاكيهْ
كَمْ غَادَرُوا يَومَ القلِيـ ... ـبِ غَداةَ تلـــكَ الـــوَاعيهْ
مِن كُلِّ غَيثٍ في السِّنِيـ ... ـن إذا الكَـــــواكِبُ خاويهْ
قد كُنتُ أحذرُ ما أرى ... فاليَـــــومَ حَقَّ حَذاريهْ
يَا رُبَّ قائِلَةٍ غَداً ... يَا وَيـــــحَ أمِّ مُعَاويه[4]

أرسلت هند لوعة من خلال بكائها على القتلى ، وفي أبياتها تبدوالحرقة مشتعلة **مشحونة بالغيظ ،**

---

(1) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، ص 208 .
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق1 ، ص 39
(3) ينظر نفس المصدر، ق 1 ، ص 38 .
(4) نفس المصدر ، ق2 ، ص39
"وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم ينكرها لهند "
الواعية : الصراخ ، إذا الكواكب خاوية : تسقط من مغربها عند الفجر ولا يكون معها أثر ولا مطر.

وقد اختلط لديها الإحساس بالفقد والانكسار.

ولكعب بن زهير شعر يصف فيه حال هؤلاء المشركين الذين رثتهم هند بنت عتبة ، قال :

فَكُبَّ أبو جَهلٍ صريعاً لِوَجْهِهِ ... وعُتبَة قد غادَرْنه وهو عاثِرُ
وَشَيبة والتَّيميّ غادَرن في الوَغى ... ومَا مِنهم إلَّا بذي العَرش كَافِرُ
فأمسُوا وقُودَ النّار في مُستَقرها ... وكُلّ كَفُورٍ في جَهَنَّم صَائِرُ
تلظَّى عليهم وهي قد شَبَّ حَميُهَا ... بزُبر الحَدِيد والحِجَارة سَاجِرُ
وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قدْ قالَ أقبلوا ... فَوَلَّوا وَقالُوا : إنّمَا أنتَ سَاحِرُ
لأمرٍ أرادَ اللهُ أن يَهلِكُوا بهِ ... وَلَيسَ لأمرِ حَمَّه اللهُ زَاجِرُ[1]

فالشاعر يذكر أن هؤلاء قد لاقوا من التنكيل والإذلال الشيء الكثير ووصف حالهم في نار جهنم ، فهم وقودها في مستقرها يوم القيامة ، وشعر هند بنت عتبة يعد من الشعر الجاهلي ؛ لأنها قالته وهي مشركة قبل إسلامها ، وإن كانت مقطوعات قليلة ، إلا أنها تبين أن هنداً بكت موتاها يوم بدر ، يظهر أنها كانت قد رثتهم بعد هزيمة قريش ، ثم توقفت عن بكائهم كما توقفت قريش عن بكاء القتلى ، وقررت التخلي عن النواح حتى تثأر من المسلمين وهذا ما جاء موافقاً لما أورده الواقدي بأنهم " قالوا : ومشى نساء قريش إلى هند بنت عُتْبَة فقلن : ألا تبكين على أبيكِ وأخيكِ وعَمّكِ وأهل بنيك ؟ فقالت : حَلَقى ، أنا أبكّيهم فيبلغ محمَّداً وأصحابه فيشمتوا بنا ، ونساء بني الخَزْرَج ، لا واللهِ ، حتى أثأر محمّداً وأصحابه "[2] ، وقامت كذلك صفيَّة بنت مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس برثاء أهل القليب ، قالت :

يا مَنْ لِعَيْنٍ قذاهَا عَائِرُ الرَّمَدِ ... حَدُّ النَّهَار وَقرنُ الشَّمس لم يَقِدِ
أخبرْتُ أنَّ سَرَاةَ الأكرمين معاً ... قدْ أحرزَتهُمْ مَنَايَاهُمْ إلى أمَدِ
وَفرّ بالقومِ أصحابُ الرِّكَابِ ولم ... تَعطِفْ غداتئذٍ أمٌّ على وَلَدِ

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 15 ، العاثر : الساقط ، تلظى : تلتهب ، وشبَّ : أوقد ، وزُبر بالفتح وسكن للشعر : قطعه ، ساجرُ : موقد ، حمَّه : قدره .

(2) محمد بن عمر بن واقد ، المغازي ، تح مارسدن جونس ، (د.ب) ، مطبعة جامعة اكسفرد ، 1966 م ، جـ 1 ، ص 124

قومِي صَفِيَّ ولا تَنسي قرَابَتَهُم وإنْ بَكَيْتِ فَمَا تَبْكِينَ مِنْ بَعَد

كانُوا سُقُوبَ سماءِ البَيْتِ فانقصَف فأصْبَحَ السّمكُ مِنْهَا غيرَ ذي عَمَد [1]

رثت الشاعرة أبناء قومها ، والرثاء وثيق الصلة بنفوس النساء لرهافة الشعور وسرعة الانفعال ، ومن الدّموع الحرار تقرحت الجفون ، وفي هذه المقطوعة تبدو الحماسة مشتعلة من خلال العبارات التي ساقتها في شعرها ، وقالت :

ألَا يا مَنْ لِعَينٍ للثـ تَبكِّي دَمْعُهَـــا قـــــانِ

كَغُربَي دالـــج يسْـــــقي خِلالَ الغَيـــِّـثِ الـــــدَّانِ

وَمَـــا لَيـــثُ غَريفٍ ذو أظافِيـــــرِ وَأسنَـــــــانِ

أو شِبـــلَين وَثـــابٌ شَدِيدُ البَطـــش غَرثـــانُ

كَـــــحِبِّي إذ تـــولى و وُجُـــــوهُ القـــومِ ألوَانُ

وبالكَـــفِّ حُســـامٌ صَـــا رمٌ أبيَـــــضُ ذكـــرَان

وَأنتَ الطَّـــاعِنِ النَّجـــلا ء مِنهَـــــا مُزبـــــدٌ آن[2]

وهذا الشعر الذي قيل في قتلى المشركين من قبل هؤلاء الشواعر كان سببه الحافز النفسي الذي يدفع الشاعرة لتكرار المعاني الجاهلية في المدح والفخر ؛ لضيق أُفق الأفكار التي تحملها ، فلا سبيل إلا اللجوء إلى التشفي والتغني بأمجاد ماضية ، ولا يقف بها الأمر عند هذا الحدِّ ، بل نراها تصف جولاته في القتال وتذكر أدواته الحربية ، فقد هزت المصيبة صفية بنت مسافر ، ورأت قومها في حالة من الضعف وهم يتساقطون وقد ألقي بهم في القليب .

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق2 ، ص40

القذا : ما يقع في العين والشراب ، عائر : وجع العين ،

حدُّ النهار : الفصل بين الليل والنهار ، وقرن الشمس لم يقد : أعلاها أي لم يتمكن ضوءه ،

سقوب : عمد الخباء التي يقوم عليها .

(2) نفس المصدر ، ق 2 ، ص 40 - 41

مزبدٌ : دم له زبد أي رغوة ، آن : حام

ومما قيل من شعر في أمر بدر ، قول عمرة بنت رواحة :

بَكَت عَينِي مَن يَبكِ لِبَدرٍ وَأَهْلِهِ ... وَعَلَّتْ بِمِثْلَيْهَا لؤيٍّ وغالبِ
وَلَيتَ الذين خُلِّفُوا في ديارهم ... بِهِ والَّذينَ في أصولِ الأخاشبِ
ليعلَمَ حَقّاً عن يقينٍ وَيُبصِرُوا ... مجرُّهُمُ فوقَ اللِّحَى والشَّوارب[1] .

وبعد هذا النصر للمسلمين ، أقبل الرسول صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ومن بينهم النَّضْر بن الحارث بن كلدة ، وعقبة بن أبي مُعَيْط ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل هذين الأسيرين ، فقتل عليٌّ بن أبي طالب النَّضرَ وقتل عاصمُ بن ثابت بن أبي الأقلع الأنصاري عقبة[2] ، فلما سمعت قتيلة (*) نعي النضر* قالت :

يَا راكباً إنَّ الأثيلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبْح خامِسَةٍ وأنتَ مُوَفَّقُ
أبلِغْ بهَا مَيْتاً بأنَّ تَحِيَّةً ... ما إن تَزالُ بها النَّجائِبُ تخفِقُ
منِّي إليكَ وعَبْرَةً مَسفُوحَةً ... جَادَتْ بواكِفِها وَأُخرَى تَخنُقُ
هَل يَسمعَنِّي النَّضْرُ إن نَادَيتُهُ ... أم كَيفَ يَسمَعُ مَيِّتٌ لا يَنطِقُ
أمُحَمَّدٌ يا خَيْرَ ضِنءٍ كَرِيمَةٍ ... في قَوْمِهَا والفَحلُ فَحلٌ مُعرِقُ
مَا كانَ ضَرَّكَ لَو مَننتَ ورُبَّمَا ... مَنَّ الفَتَى وَهوَ المَغِيظُ المُحنَق
أو كُنتَ قابلَ فِديةٍ فَلْيُنْفَقن ... بأعزِّ ما يغلو به مَا يُنفِقُ
فالنَّضرُ أقرَبُ من أسَرتَ قرابةً ... وأحقُّهُم إن كَانَ عِتقٌ يُعتَقُ
ظَلَّتْ سُيُوفُ بني أبيهِ تَنُوشُهُ ... لِلهِ أرحَامٌ هُنَاكَ تُشَقَّقُ
صَبراً يُقَادُ إلى المَنيَّةِ مُتعَباً ... رَسفَ المُقَيَّدِ وَهُوَ عانٍ مُوثَقُ[3]

---

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص185
(2) ينظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 ، ص 643 - 644 .
(*) ذكر في السيرة أنها قتيلة أخت النضر ، وفي البيان والتبيّن ليلى بنت النضر ، جـ 4 ، ص 43 ، وقيل إنها بنت النَّضرلاأخته كما في حماسة البحتري ص 434 ـ ص 435 ، وذكر ابن إسحاق أن قتله كان بالصفراء وقال ابن هشام بالأثيل ق1 ، ص 710 ، وقد ورد الأثيل في شعرها ، الأثيل : موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء ، مظنة : موضع إيقاع الظن ، النجائب : الإبل الكرام ، تخفق : تسرع ، الواكف : السائل ، الضنء : الأصل ، مُعرق : الكريم ، المحنق : الشديد الغليظ .
(3) نفس المصدر ، ق1 ، ص 42 - 43 .
تنُوشُه : تتناوله ، تشقق : تقطع ، الرسف : المشي الثقيل ، العاني : الأسير .

يحمل شعر قتيلة تساؤلاً وجهته للنبي صلى الله عليه وسلم ، تستثير به العواطف ، وقد صاحب ذلك الدُّموع الغزار والآهات ، والنساء تغلب عليهن طبيعة تقودها المشاعر ، فتفيض الدموع انسكاباً أو تظل حبيسة تخنق صاحبتها ، وقد وصف شعرها هذا بأنه " أكرم شعر موتور وأحسنه "[1] ، وكذلك " ... قال ابن هشام : فيقال ، والله أعلم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا بلغه هذا الشِّعر ، قال : لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه "[2] .

وتوفي عبيدة بن الحارث متأثراً بجراحه ـ التي أصيب بها في غزوة بدر ـ بعد وصول المسلمين إلى الصفراء بالقرب من المدينة ، فقالت ابنة عمّه هند بنت أثاثة :

لقد ضُمِنَ الصَّفراءُ مَجداً وَسُؤدُداً ... وَحِلماً أصيلاً وَافِرَ اللُّبِّ والعَقل
عُبيدَةَ فابْكِيهِ لأضيَافِ غُربَةٍ ... وأرمَلةٍ تَهوي لأشعثَ كالجذل
وَبَكِّيهِ للأقوَامِ في كُلِّ شَتوَةٍ ... إذا أحمَرَّ آفاقُ السَّماءِ من المَحْل
وبَكِّيهِ للأيتامِ والرِّيحُ زَفزَفٌ ... وَتَشبيبِ قِدرٍ طالمَا أزبَدَتْ تَغلِي
فإنْ تُصْبح النِّيرانُ قد مَاتَ ضوؤُها ... فقد كَانَ يُذكيهنَّ بالحَطبِ الجَزْل
لِطارق ليلٍ أو لِمُلتَمِسِ القِرَى ... وَمُستنبح أضحَى لديهِ على رسْل[3] .

تمثلت عند هند مجموعة من صفات المرثية الجاهلية في بكاء الشواعر ، وتبدو هذه المقطوعة أول وهلة أن القائل شاعر جاهلي لخلوها من أي معنى أو إشارة للمعاني الإسلامية .

وهكذا انتهت غزوة بدر ، وقد تبيَّن الشعر الذي طرحته الشواعر من نماذج رثائية في الغزوات الأولى من البعثة ، ومن الملاحظ أن غزوة بدر قد كثر الرثاء فيها عند النساء الشواعر اللائي كنَّ على الشرك قبل إسلامهن في رثاء المشركين ، ثم أصبح هؤلاء الشواعر من الصحابيات فيما بعد ، منهن هند بنت عتبة ، وقتيلة بنت النضر.

وها هو الشعرالرثائي عند النساء ينحو مَنْحىً جديداً ، ويسمو عند الشواعر المسلمات في رثاء المسلمين وبرز الشعر الديني الذي يتبع قيم الإسلام ، ففي السنة الثانية للهجرة توفي الصحابي عثمان بن مظعون ، ولم يقتل وقد دفن بالبقيع ، ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم حجراً على قبره علامة ؛ ليدل عليه[4] ، ولزوجته رثاء قالت فيه :

---

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 169
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 ، ص 43 .
(3) نفس المصدر ، ق 2 ، ص 41 - 42 .
(4) ينظر أبوجعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الطبري ، تح عبد أ . علي مهنا ، ط 1 ، لبنان ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، 1418 هـ - 1998 م ، جـ 2 ، ص 356 .

يا عَينُ جُودي بدَمْع غَير ممنون على رَزِيَّةِ عثمان بن مظعون
على امرىءٍ بَاتَ فِي رضُوان خالقِهِ طوبى لهُ مِنْ فقِيدِ الشَّخص مَدفُون[1]

وفي السنة الثالثة كانت غزوة أحد[2] بين المسلمين ومشركي قريش، ذكر ابن إسحاق أن كفّار قريش لمَّا انهزموا يوم بدر ، اجتمع أشرافها ورجال من قريش ممن قُتِلَ أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ، وطلبوا من أبي سفيان بن حرب ملاقاة المسلمين وأخذ ثأر القتلى (أهل القليب) ، ولمّا التحم الفريقان في القتال ، كان النصر في بداية المعركة للمسلمين ثم انتصر المشركون على المسلمين ، فاستشهد العديد من المسلمين ومنهم الصحابي حمزة بن عبدالمطلب عمّ الرسول صلى الله عليه وسلّم ، وقد مثلت نساء المشركين بجثث الشهداء ، يجدّعن الآذان والأنف ، وكانت من بينهن هند بنت عتبة التي أعطت حليها لوحشي قاتل حمزة واستبدلتها بآذان وأنوف شهداء أُحد ، ثم قالت :

شَفِيتُ مِنْ حَمزَةَ نَفسِي بأحدٍ حتَّى بَقِرتُ بَطنَهُ عن الكَبد
أذهَبَ عنِّي ذاكَ ما كُنتُ أجِدُ مِنْ لذعَةِ الحُزن الشَّدِيدِ المُعتمِد
والحَربُ تَعْلوكُم بشُؤبوبٍ بَرد تُقدِمُ إقداماً عَليكُم كَالأسَد[3]

حين النصر تفتخر المرأة بالمحارب ، وهو ما كان يعرف به شعر الرثاء الجاهلي ، وأبيات الشاعرة جاهلية بكل مقاييسها ، فهي تدعو إلى الأخذ بالثأر ، والتشفي من المجاهدين وما له دلالة في هذا السياق الفعل الذي قامت به حين مثلت بالجثث انتقاماً منهم وتحميساً لأبناء قومها على المخاطرة والاستبسال في الحرب ، وهو أمر فيه إيذاء للمسلمين ، فهي أشدُّ كفار قريش عداوة للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قبل إسلامها ، " وإن في تمزيق هند بنت عتبة .. لكبد الشهيد حمزة .. لخوارق أهوال في حوادث الأمم "[4] ونجد " ... في مكة نساء شواعر ، كان لهن أثر كبيرفي دفع المقاتلين إلى الحروب ، وفي تحريض الرجال ، وإثارة الأحقاد ، وبكاء القتلى ... "[5] .

---

(1) أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي ، مرآة الجنان ، ط 2 ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، 1390 - 1970 م ، جـ 1 ، ص 5 - 6 .
(2) ينظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 60 .
(3) نفس المصدر، ق 2 ، ص 92 .
اللذعة : ألم النار ، المعتمد : القاصد المؤلم .
(4) زكي محاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ، ص 44 .
(5) الجبوري ، شعر المخضرمين وأثرالإسلام فيه ، ص 170

وقد رأت صفية بنت عبدالمطلب أخاها حمزة وقد مُثل به " فنظرت إليه ، فصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له "[1] ، وقالت ترثيه :

أسَائِلةٌ أصحَابَ أحدٍ مخافةً ... بَناتُ أبي مِن أعجمٍ وخَبير
فقالَ الخَبيرُ إنَّ حَمزَةَ قدْ ثَوَى ... وَزيرُ رَسُولِ اللهِ خَيرُ وزير
دَعاهُ إله الحقِّ ذو العَرْشِ دَعوة ... إلى جَنَّةٍ يَحيَا بهَا وَسُرُور
فذلِكَ مَا كُنَّا نُرجِّي ونرتَجِي ... لِحمزَةَ يَومَ الحَشر خَيْرُ مَصِير
فوَاللهِ لا أنسَاكَ ماهَبَّتِ الصَّبَا ... بُكاءً وحُزناً مَحْضَري ومَسِيري
على أسَدِ اللهِ الذي كانَ مِدرَهَاً ... يَذُودُ عن الإسلامِ كُلّ كَفُور
فيَا لَيتَ شِلوي يَومَذاكَ وأعظمي ... لدى أضبُعٍ تعتَادُنِي وَنُسُور
أقُولُ وَقَدْ أعلى النَّعيُّ عَشِيرَتِي ... جَزَى اللهُ خيراً مِنْ أخ ونَصِير[2]

وصفية في مقطوعتها هذه تعنى بأن تذكر مباديء الدين الإسلامي فقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بعقائد دينية ومباديء خلقية ونظم في معاملة الإنسان لربه وللناس ، وتتجه الشاعرة واصفة أخاها بأنه خير من كان يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وكان جزاء إحسانه جنة نعيم يحيا بها وسرور ، وبدت راضية صابرة تحتسبه عند الله شهيداً .

واستشهد في غزوة أحد أيضاً عثمان بن عثمان بن الشريد المخزومي المعروف بالشماس بن عثمان [3] ، فقالت زوجته نعم بنت سعيد :

يَا عَيْنُ جُودي بفيضٍ غير إبساس ... على كَريمٍ مِنَ الفِتيَانِ أبّاس
صَعبِ البديهَةِ ميمُون نقِيبتُهُ ... حَمَّالِ أليَةٍ رَكَّابِ أفرَاس
أقُولُ لمَّا أتَى النَّاعي لَهُ جَزَعَاً ... أودَى الجَوَادُ وأودَى المُطعِمُ الكَاسِي
وقُلتُ لما خَلَت مِنهُ مَجَالِسُهُ ... لا يُبعِدِ اللهُ عنَّا قُربَ شَمَّاس[4]

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق2 ، ص97
(2) نفس المصدر ، ق 2 ، ص167 .
الصَّبا : ريح شرقية ، مسيري : غيابي .
المدره : الذي يدافع عن القوم ، يذود : يمنع .
الشلو : البقية ، تعتادني : تتعاهدني .
(3) نفس المصدر ، ق 2 ، ص 122 .
(4) نفس المصدر ، ق 2 ، ص 168 .
البديهة : أول الرأي والأمر ، ميمون نقيبته : مسعود الفعال ، اللواء : العلم ، أودى : هلك ، المطعم الكاسي : الجواد الذي يطعم الناس ويكسوهم .

وأصيب الصحابي سعد بن معاذ في غزوة الخندق وبعد هذه الغزوة كانت غزوة بني قريظة، وبعد انتهائها مات سعد متأثراً بجرحه ، فقالت أمّه كبشة بنت رافع ترثيه [1] :

ويلُ أمِّ سعدٍ سعدَا صَرَامـــــةً وَحَـــــدَّا
وَسُـــؤدداً وَمَجـــــدَا وَفارسَـــــاً مُعَـــــدَّا
سُـــــدَّ بـــــهِ مَسَـــدَّا يَفدُهـــــا مـــــا قـــــدَّا [2]

فلما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بكاءها ، قال " كلُّ نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ "[3] ، فقد كان معاذ درعاً واقياً للدين الإسلامي ، وعرف باستبساله الذي انتهى باستشهاده في ساحات الجهاد .

وفي السنة السادسة وبعد رجوع الرسول صلى الله عليه وسلّم من غزوة الحديبية ، قدم إليه أبو بصير وهو عتبة بن أسيد بن جارية حليف بني زهرة مسلماً ، وكان من بين المسلمين الذين حبسوا بمكة الوليد بن الوليد بن المغيرة فانضموا إلى أبي بصير ، وبعد وفاة أبي بصير ، رجعوا إلى المدينة ، فلمّا كان الوليد بالحرَّة عثرفانقطعت إصبعه [4] ، فذكرقول الرسول عليه السلام :

هَل أنتِ إلا إصبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيْتِ[5]

ثم مات بالمدينة فقالت أمُّ سَلَمَة تبكيه وكانت قد استأذنت زوجها الرسول صلى عليه وسلم :

يا عَينُ فابْكِي لِلوَليـ ـدِ بن الوليدِ بن المُغِيرَهْ
مِثْلُ الوَلِيدِ بن الوليـ ـدِ أبي الوَلِيد كَفَى العَشِيرَهْ[6]

وبعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، قتل مِقيس بن صبابة ، وهو من الذين أهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دماءهم يوم الفتح ، وسبب ذلك أن أخيه هشام بن صُبابة كان قد قتل في غزوة بني المصطلق (المريسيع) [7] ، وقد اختلف في تحديد زمن وقوعها [*] ، كما اختلف فيمعرفة قاتل هشام ، قيل إن الذي قتله رجل من بني عمرو بن عوف وقيل قتله أوس بن ثابت من رهط عبادة بن الصامت ، وقد قتله معتقداً أنه من المشركين ، فجاء مقيس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب

---

(1) ينظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 250 - 252 .
(2) نفس المصدر ، ق 2 ، ص 252 .
(3) الموضع نفسه .
(4) الواقدي ، المغازي ، جـ 2 ، ص 624 - 629 .
(5) نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 629 .
(6) الموضع نفسه .
(7) ينظر ابن هشام ، مصدر سابق ، ق 2 ، ص 290 - 293 .
(*) ذكر ابن إسحاق أن غزوة بني المصطلق (المريسيع) كانت سنة ست ، وذكر الواقدي أنها في سنة خمس .

دية أخيه ، فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم الدية ، إلا أنه قام بقتل قاتل أخيه ، ثم رجع إلى مكة وقد ارتد إلى الشرك [1]، وفي ذلك يقول :

شَفى النَّفسَ أن قد باتَ بالقاع مُسنداً ... تَضَرّج ثَوبَيْه دِمَاءُ الأخَادِع
وكَانتْ هُمُومُ النَّفس مِن قبل قتلِهِ ... ثُلِمّ فتَحمِينِي وطاءَ المَضَاجِع
حَلَلْتُ به وتري وأدْرَكْتُ ثَوْرَتِي ... وَكُنْتُ إلى الأوثَانِ أوَّل رَاجِع
ثأرتُ بهِ فهْرَاً وَحَمّلْتُ عَقلَهُ ... سَرَاةَ بَنِي النَّجَّار أرْبابَ فارع[2]

وحين رآه نُمَيلةُ بن عبدالله ، وهو رجل من قومه قتله[3] ، فقالت أخته ترثيه :

لَعَمْري لَقد أخزَى نُمَيلةُ رَهطهُ ... وَفجّعَ أضيافَ الشِّتَاءِ بمِقيَس
فللّه عَيناً مَنْ رأى مِثلَ مِقيَسٍ ... إذا النُّفساءُ أصبَحَت لَمْ تُخَرَّس[4]

أغلب الظن أن الشاعرة كانت مسلمة ، لأن أخاها هشاماً كان مسلماً وكذلك مقيس ، إلا أن الأخيرارتد عن الإسلام وقتل مشركاً ، فجاء شعرها يحمل المعاني الجاهلية ، بما يعكس إيقاع النفس الحزينة ، ويكشف مخاوف الشاعرة وحسرتها على موت أخيها على غير الإسلام .

وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر من كنانة ، وقد انضمت إليه بنو سليم ، ومُدْلج ، وقبائل أخرى وهو ما يسمى بيوم الغميصاء ، وكان بعد فتح مكة وقد بعثه ليدعوهم إلى الإسلام ، وكان قد أسرهم وأمر بقتلهم[5] ، فقتلت بنو سليم الأسرى وأرسل المهاجرون الأنصار أسراهم[6] ، فقالت سلمى الكنانية ترثي قتلى قومها ، وتهجو بني سُلَيْم :

---

(1) ينظر ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق2 ، ص293 - 294
(2) الموضع نفسه ، تضرج : تلطخ ، الأخادع : عروق القفا ، وطاء المضاجع : ليناتها ، الوتر : طلب الثأر ، الثؤرة : الثأر ، العقل : الدية ، فارع : حصن لبنى النجار .
(3) ينظر تاريخ الطبري ، جـ 2 ، ص 533 .
(4) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق 2 ، ص 410 - 411 ، وفي المغازي للواقدي : وفجّع إخوان السَّناء بمقيس ، جـ 2 ، ص 871.
(5) ينظر تاريخ الطبري ، جـ 2 ، ص 539 .
(6) ينظر الواقدي ، المغازي ، جـ 3 ، ص 875 .

ولولا مقالُ القومِ للقومِ أسلِمُوا ... للاقتْ سُليمٌ يَومَ ذلك نَاطِحَا
لما ضيعهم بُسْرٌ وأصحَابُ جحدَمٍ ... ومُرَّة حتَّى يَتْرُكُوا البَرْكَ ضَابحَا
فكَائِنْ ترى يَوْمَ الغمَيْصَاءِ من فتىً ... أصيبَ ولم يُجْرَحْ وَقدْ كَانَ جَارحَاً
ألظَّت بخطاب الأيامى وَطَلَّقتْ ... غداتئذٍ مِنْهُنَّ مَنْ كَانَ ناكحا[1]

أصابت الشاعرة حالة من الجزع والحزن على قومها ، فأخذت تعير بني سُليم بالجبن ، وهو رثاء تجلت فيه معاني العداوة بين المسلمين وبين بعض القبائل قبل إسلامها .

ثم جاءت غزوة حنين في السنة الثامنة للهجرة بين المسلمين والمشركين هوازن وثقيف ، وانهزم فيها المشركون .

ذكر ابن إسحاق أن المشركين بعد حنين فرَّ عدد منهم إلى ثلاث جهات ، الطائف وأوطاس ونخلة ، وتوجّه الرسول صلى الله عليه وسلم نحو الذين وصلوا نخلة ، ولمَّا لحق ربيعة بن رُفَيْع ابن أهبان دريدَ بن الصمة ، ضربه بالسيف حتى قتله[2] ، فرثته ابنته عمرة بأبيات قالت فيها :

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلى دُرَيدٍ ... ببَطنِ سُمَيْرَةَ (*) جَيشَ العَنَاق
جَزَى عَنَّا الإلهُ بني سُلَيْمٍ ... وعقَّتهُم بمَا فَعَلوا عَقَــاق
وَأسقانَا إذَا قُدْنَا إليهم ... دِمَاءَ خِيَارهم عِندَ التلاقي
فَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتَ عَنهُمْ ... وقد بَلَغَتْ نُفُوسُهُم التَّراقي
وَرُبَّ كَرِيمَةٍ أعتقتَ مِنهُم ... وأخرى قد فَكَكْتَ مِنَ الوَثاق
وَرُبَّ مُنَوِّهٍ بكَ من سُلَيمٍ ... أجَبتَ وقَدْ دَعاكَ بلا رَمَاق
فَكانَ جَزاؤُنَا مِنهُمْ عُقوقاً ... وهَمَّاً مَاعَ مِنهُ مُخّ سَاقِي
عَفتْ أثارُ خَيلِكَ بَعْدَ أيْنٍ ... بذي بَقرٍ إلى فَيْفِ النُّهَاق[3]

في أبيات الشاعرة تبدو عبارات التقريع موجهة لبني سُلَيْم ونفسها مشحونة بالغيظ لمقتل أبيها ، فهي تَمُن عليهم بأفعال كان قد قام بها المرثي تجاههم ، وهذا التوبيخ لا يصلح في هذا الموقف فالنزال كان بين فئتين مختلفتين تماماً ، ولم يكن هذا اللوم والعتاب يجدي نفعاً ، إنما كان يعتمد بالقدر نفسه على تقاليد كانت سائدة بين القبائل في أثناء الحروب الجاهلية ، وهي لا تعي حكم الإسلام على الكافرين .

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 432 .
(2) ينظر تاريخ الطبري ، جـ 2 ، ص 549 .
(*) سُمَيرة : واد قرب حنين قتل فيه دريد بن الصمة
(3) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق2 ، ص 453 - 454 .
منوه : الذي يناديك بأشهر أسمائك نداء ظاهراً ، الرماق : بالفتح والكسر : بقية الحياة ، مَاعَ : ذاب ، عفت : تغيرت ، أين : موضع ، بذي بقر : موضع ، فيف : القفر ، النهاق : موضع .

قال تعالى :{ لاَ تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ(55)}[1] .

ولعمرة أبيات أخرى في رثاء أبيها ، قالت :

قالُوا قتلنَا دُريداً قُلتُ قد صَدقوا ... فُظلَّ دَمْعِي عَلى السِّربالِ يَنْحَدِرُ
لَولا الذي قهَرَ الأقوامَ كُلَّهُمُ ... رَأتْ سُلَيمٌ وكعبٌ كيفَ تَأتَمِرُ
إذنْ لَصَبَّحهُم غبّاً وظاهِرَةً ... حَيْثُ استَقرَّت نَواهُم جَحفلٌ ذمِرُ[2]

بكت عمرة أباها بأبيات جاهلية ، وقد افتخرت بشجاعته وقت الحرب ، ولقد قتل " ... وهو يومئذٍ ابن ستين ومائة سنة ، شيخٌ كبيرٌ ليس فيه شيءٌ إلاَّ التَّيمُّن به ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مُجرِّباً ، وقد ذهب بصره يومئذٍ "[3] .

واستشهد أخوان لامرأة من جُشْم في غزوة حنين ، فقالت :

أعينيَّ جُودَا على مالكٍ ... مَعَاً والعلاءِ ولا تجمُدَا
هُما القاتلان أبا عَامِرٍ ... وقدْ كَانَ ذا هبَّةٍ أربَدَا
هُمَا تركاهُ لدى مُجسَدٍ ... ينُوءُ نزيفاً ومَا وُسِّدا[4]

وفي غزوة تبوك في السنة 10هـ أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني عبد ودّ لهدم صنمهم " ودّ " ، فقتل من بني عبد ودّ غلام يدعى قطَنُ بن شُرَيْح [5] ، فندبته أمه قائلة :

---

(1) سورة النور ، آية 55
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 454.
السربال : القميص ، غباً : أصل الغب أن ترد الإبل الماء يوماً وتدعه يوماً ، وظاهرة : أن ترده كل يوم فضربه ها هنا مثلا ، الجحفل : الجيش الكبير .
(3) الواقدي ، المغازي ، جـ 3 ، ص 886 .
(4) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق 2 ، ص 476
(5) ينظر أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ ، الأصنام ، تح أحمد زكي ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر، 1343 هـ - 1924 م ، ص 55 .

يا قرحة القلب والأحشاءِ والكَبدِ ... يَاليتَ أمَّكَ لم تَحْبَلْ وَلَمْ تَلدِ
لمَّا رَأيتُكَ قد أدرجتَ في كَفَنٍ ... مُطيباً لِلمنَايَا آخَرَ الأبدِ
أيقنْتُ بَعْدَكَ أنِّي غَيْرُ بَاقِيةٍ ... وكيفَ يَبقى ذِراعٌ زَالَ عن عَضُدِ[1]

لشدة الفجيعة كانت الشاعرة الأم تتمنى لو أنها لم تلد هذا القتيل " فهي تشعر شعوراً عميقاً بأن جزءاً منها داراه التراب وهي في طريقها لتضمه إلى جسدها وصدرها فحياتها قد انتهت ، وهي تجتاز وادياً مظلماً من الغُصص والآلام ، وتقطعه بين النشيج والنحيب ... "[2] .

وفي هذه السنة توفي عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ، أبو البراء ، المشهور بمُلاعِب الأسنَّة فقالت أخته ترثيه :

لَو كَانَ شَيءٌ مُدركُ الفَلَاح ... أدركَهُ مُلاعِبُ الرّماح
كَانَ غَيَّاثُ المُرمِلِ المُلتَاح ... وعِصمَةَ فِي الزَّمن الكَلّاح
ومُعمِلَ النَّاجيةِ الوَقَاح ... وذَائِذ الكتِيبَةِ الرَّداح
بالخَيلِ تَشكُو أَلَمَ الجِرَاح ... وفُتيةٍ هَبُّوا إلى المَرَاح
بَاكرتَهُمْ بحُلَلٍ وَرَاح ... وقيْنَةٍ ومزهَرِ صدّاح
وزعفـــــرانٍ كـــــدَمِ الأذبَــاح[3]

بكت الشاعرة أباها بأوصاف كانت سائدة في الجاهلية وهي عند الجاهلي تعد من الجود والكرم ، فهو جليس الفتيان يمدهم بالخمور والقيان المغنيات ، فيكشف ذلك عن حال من ظل على الشرك في السنين الأول من البعثة المحمدية .

وبعد السنة 10 هـ توفي يزيد بن عبدالمدان وكان قد غزا مع بني الحارث بن كعب بني عامر ، وأسر عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة وأخاه ، أخوي زينب بنت مالك ، ثم قام بفك أسارهما ، فلما سمعت زينب بموت يزيد بن عبدالمدان قالت ترثيه وفاء لصنيعه :

---

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ3 ، ص258 - 259
(2) شوقي ضيف ، الرثاء ، ص18
(3) هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني ، حماسة الشجري ، تح عبدالمعين الملوحي وأسماء الحمصي ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، 1970 م ، جـ1 ، ص 329 - 330 .

بكيتُ يزيدَ بن عبدَالمُدا ... ن حَلَّت بهِ الأرضُ أثقالَهَا
شَريكُ المُلوكِ وَمنْ فَضلُهُ ... يُفَضِّلُ في المَجدِ أفضَالَهَا
فَكَكْتُ أسارَى بَنِي جَعفَرٍ ... وَكِندةَ إذْ نِلتَ أقوالَهَا
وَرَهْطُ المُجَالدِ قد جَلَّلَت ... فَواضِلُ نُعمَاكَ أجبَالهَا[1]

فقد انعكست الممارسات الإيجابية على نفسية الشاعرة وظهرت في أبياتها عبارات الامتنان ، وهي عبارات تستمد من الموقف نفسه ، فبكته كما يبكي الراثي عزيزاً لديه ثم قالت :

سَأبْكي يزيدَ بنَ عبدِ المُدَانِ ... عَلى أنَّهُ الأحلَمُ الأكرَمُ
رماحٌ مِنَ العَزْمِ مَركُوزَة ... مُلُوكٌ إذا بَرَزَتْ تَحكُمُ[2]

وحين لامها قومها على رثائه قالت :

ألا أيُّهَا الزّاري عليَّ بأنَّنِي ... نَزَارِيَّةٌ أبكِي كَرِيماً يَمَانِيا
ومَالي لا أبكي يَزيدَ وَرَدَّنِي ... أجُرُّ جدِيداً مِدرَعِي وَردَائيا[3]

ربما رأت هذه الشاعرة أن فضله عليها وعلى أهلها يوجب مدحه حتى وإن كان من أعداء قومها ، و" العربُ تقولُ : المدائحُ على الرجاء أبلغُ من المراثي على الوفاء "[4]

وفي السنة نفسها في عام الوفود أمرالرسول عليه السلام جريربن عبدالله البَجَلي بهدم ذي الخلصة[*] ، فخرج مع جماعة من بني أحمس من بجيلة فخرب البيت وأحرقه وقتل سدنته وحماته[5] ، فقالت امرأة من خثعم ترثيهم :

وبنو أمامةَ بالوَلِيَّةِ صُرّعُوا ... ثَمَلاً يُعالِجُ كُلُّهم أنبُوبَا
جاءُوا لبيضَتِهم فَلاقوا دُونَهَا ... أسداً تَقُبُّ لدى السُيُوفِ قبيبَا
قسَمَ المَدَلَّة بَيْنَ نسوةِ خَثْعَمٍ ... فِتيَانُ أحمَسَ قِسْمَةً تَشعِيبَا[6]

اقتحمت الشاعرة بأبياتها هذه مجالاً تثير فيه موقفاً دينياً وهي تدافع عن عقائد منحرفة عن السبيل القويم ، ومن هاتين المقطوعتين نستشف للشعر الجاهلي امتداداً تغلغل بين القبائل في وقت

---

(1) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 12 ، ص 21 ، والأقوال : الملك .
(2) الموضع نفسه .
(3) نفس المصدر ، جـ 12 ، ص 22 ، الزاري : الذي يُنكرُ على الإنسان فِعلهُ
(4) التوحيدي ، البصائر والذخائر ، جـ 1 ، ص 281 .
(*) ذو الخلصة : (هو بيتٌ كانت خثعم تحجُّهُ) ، أبو العباس محمد بن يزيد المُبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، بيروت ، المكتبة العصرية ، 1418 هـ - 1997 م ، جـ 4 ، ص 329 .
(5) ينظر تاريخ الطبري ، جـ 3 ، ص 31 .
(6) الكلبي ، الأصنام ، ص36 .

بدأ فيه نور الحق ساطعاً .

ثانياً : شعر الرثاء النسائي في وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم :

أما سنة 11هـ ، فقد كانت سنة المصيبة الكبرى توفي فيها أكرم خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان قد حلَّ به المرض في بيت السيدة زينب بنت جحش[1] ، وقد ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها لحظات احتضار الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت " ... ووجدت رسول الله يثقل في حِجْرى ، قالت : فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا نظره قد شَخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة ! قالت : قلت خُيِّرتَ فاخترتَ والذي بعثك بالحق ! قالت : وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم "[2] .

إن أكثر ما قيل من أشعار رثائية في حقبة صدر الإسلام ، كانت في رثاء المصطفى صلوات الله عليه " ... فلمّا دُفن قالت [السيدة] فاطمة : يا أنس أطابت أنفُسكم أن تَحْثُوا على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الترابَ ؟"[3] ، وكانت ابنته فاطمة شاعرة ، ومما قالته حين وقعت على قبره :

مَا ضَرَّ مَنْ قدْ شَمَّ تربة أحمد ... أنْ لا يشمّ مُنذ الزَّمان غوَاليا
صُبَّتْ عليَّ مَصَائِبٌ لَوْ أنَّهَا ... صُبَّتْ على الأيام صِرْنَ لياليا[4]

وبعد رجوعها إلى بيتها ، اجتمعت حولها النساء[5] ، فقالت :

أغبَرّ آفاقُ السَّماءِ وكُوِّرَتْ ... شَمْسُ النَّهَار وأظْلَمَ العَصْرَان
الأرضُ مِنْ بَعدِ النَبيِّ كَئِيبَةٌ ... أسفاً عَلَيهِ كثيرة الرَّجَفَان
فليبكهِ شَرْقُ البلادِ وَغربُهَا ... وَلتبكهِ مُضَرٌ وكُلُّ يَمَان
وليبكهِ الطَّودُ المعظَّمُ جَوُّهُ ... والبيتُ ذو الأستَار والأركَان

---

(1) ينظر تاريخ الطبري ، جـ 3 ، ص 57
(2) نفس المصدر ، جـ 3 ، ص 66 .
(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 311 .
(4) ابن سيد الناس ، منح المدح ، ص 358
وفيه نُسب البيتان أيضاً لعلي بن أبي طالب.
(5) الكلبي ، الأصنام ، ص36 .

يا خاتمَ الرُّسْلِ المبارَكِ ضَوؤُهُ صَلَّى عَلَيكَ مُنَزِّلُ الفُرقان
نَفسِي فداؤك مَا لرأسكَ مائِلاً مَا وسدُّوكَ وسادة الوسنان[1] .

صورت السيدة فاطمة رضي الله عنها استجابتها للموقف ، وتأثرها به ، وقد سالت مدامعها على خدها ، فالدنيا قد أظلمت حزناً على فقد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ضمت أبياتها روحانيات إسلامية وقيماً وفضائل جاء بها الإسلام .

وهناك مقطوعة اختلف العلماء في نسبتها ، فمرة تنسب لصفية بنت عبدالمطلب ومرة لفاطمة بنت رسول الله ومرة أخرى لهند بنت أثاثة ، ونسبت لأم مِسْطح بن أُثاثة ، وقد نسبها ابن سعد في طبقاته إلى هند والذي يظهر أنها لفاطمة لذكرها رزية أبيها في البيت الأخير وقد نسبها ابن طيفور لفاطمة عن أبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[2] ، قالت :

قد كَانَ بَعدَكَ أنبياءٌ وَهنبثَةٌ لَو كُنتَ شَاهِدَها لم تكثر الخُطَبُ
إنَّا فَقدنَاكَ فقدَ الأرضِ وَابلها فاحتلْ لِقومِكَ وَأشهَدْهُمْ ولا تَغِب
قد كُنتَ بدراً ونوراً يُسْتَضَاءُ بهِ عَليكَ تُنْزَلُ مِنْ ذِي العِزّةِ الكُتُبُ
وَكَانَ جبريلُ بالآياتِ يَحضُرُنَا فُغَابَ عنَّا وَكُلُّ الغِيبِ مُحتَجِبُ
فَقد رُزِئْتُ أباً سَهلاً خلِيفتُهُ مَحضَ الضّريبةِ والأعراق والنَّسَبِ[3]

وعن شعرها هذا " قال فما رأينا يوماً كان أكثر باكياً ولا باكية من ذلك اليوم "[4] .

وإذا لم يكن الحزن على الرسول صلى الله عليه وسلم الكريم ، فعلى من سيكون فقد كانت له "... إنسانية مبعثها الرحمة التي امتلأ بها قلبه الكبير ، والعظمة النفسية التي تسمو على أن تؤخذ كل مذنب بذنبه ، وإنما تعفو وتسمح ، وتتسامى وتصفح ، وإنا لنلمس هذا في الأمر بدفن القتلى وفي أمر

---

(1) ابن سيد الناس ، منح المدح ، ص 358 ، وزهر الآداب للحصري ، جـ1 ، ص 70 وعند فخر الدين أحمد بن علي النجفي ، المنتخب في المراثي والخطب ، طبعة السيد حسين الحائري ، 1311 هـ ، ص 18 ، لم يذكر البيتين الرابع والخامس وجاء بالبيت الأخير .
(2) ينظرابن طيفور، بلاغات النساء ، ص 18 .
(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 332 ، وقد نسبها لهند بنت أثاثة .
(4) ابن طيفور ، مصدر سابق ، ص 18 .

أصحابه بالإحسان إلى الأسرى ... "[1].

أما عمات الرسول ، فقد تميزنَ بكثرة الشعر لديهن ، وذلك منذ العصر الجاهلي ، وقد مرت بنا قصائدهن في رثاء أبيهن عبدالمطلب قبل موته بطلب منه ، ومنهن من أدركت الإسلام وهن صفية وأروى وعاتكة ، في حين لم تدرك أم حكيم الملقبة بالبيضاء وبرّة وأميمة الإسلام[2] ، وقد انتقلت عدوى الشعر بين نساء هذا البيت لتتم اللوحة الشعرية المتداولة على المستوى الأسري ، وقد أورد ابن سعد شعرهن الرثائي في طبقاته ، وقد رثين أعظم مفقود الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما قالته أروى :

ألا يَا عَينُ وَيحك أسعِديني ... بدَمْعِكِ مَا بَقِيْتِ وَطاوعيني
ألا يا عَين وَيحك واستَهلي ... على نُورِ البلادِ وَأسْعِدِيني
فإنْ عَدَلَتْكِ عَاذِلَةٌ فَقولي : ... عَلامَ وَفِيمَ وَيْحَكِ تَعْذليني ؟
علَى نُورِ البلادِ مَعَاً جَمِيعاً ... رَسُولِ اللهِ أحمَدَ فاثْرُكِينِي
فإلَّا تُقصري بالعَذْلِ عَنِّي ... فَلُومِي مَا بَدَالَكِ أو دَعِينِي
لأمرٍ هَدْني وأخلَّ رُكْنِي ... وَشَيَّبَ بَعْدَ جِدَّتِهَا قرُونِي[3]

يعبر شعرها عن نفس صهرها الحزن والألم ، وقد تحولت معانيها إلى شكوى مرة من الفراق للنبيّ الكريم ، وقالت :

ألا يا رَسُولَ اللهِ كُنتَ رَجَاءَنَا ... وَكُنتَ بنَا بَرَّاً ولم تَكُ جَافِيا
وَكُنتَ بنَا رَوْفَاً رَحِيماً نبيْنَا ... لَيبكِ عَلَيْكَ اليوم مَنْ كَانَ بَاكِيا
لَعَمْرُكَ مَا أبكي النبيّ لِموتِهِ ... وَلَكِنْ لِهَرجٍ كَانَ بَعدَكَ آتيا
كَأنّ عَلَى قلبي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ ... وَمَا خِفتُ من بعدِ النبيّ المَكَاوِيَا
أفَاطِمَ صَلَّى اللهُ ، رَبُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَى جَدَثٍ أمْسَى بيثربَ ثَاوِيَا

---

(1) محمد محمد أبو شهبة ، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، (د . ب) ، القاهرة الحديثة للطباعة ، (د. ت) ، جـ 2 ، ص 148 .
(2) ينظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 8 ، ص 41 - 45 .
(3) نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 325 .

أبَا حسَنٍ فارَقتَهُ وتَرَكْتَهُ ... فَبَكّ بحُزنٍ آخرَ الدَّهْر شاجِيَا
فِداً لِرَسُول اللهِ أمِّي وَخَالتي ... وَعَمّي ونفسِي قُصْرَةً ثمَّ خَالِيا
صَبَرتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقاً ... وَقمْتَ صَليبَ الدينِ أبلجَ صَافِيا
فَلو أنَّ رَبَّ النَّاس أبقاكَ بَيْنَنَا ... سَعِدْنَا ، ولكنْ أمرُنَا كَانَ مَاضِيا
عَلَيْكَ مَنَ اللهِ السَّلامُ تَحِيَّةً ... وَأدخِلتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدن رَاضِيا [1]

جاء رثاء أروى صورة لصدق عاطفتها ، فهي تبكي نور البلاد محمد صلى الله عليه وسلم الذي بلغ الرسالة لهداية النّاس لدين الحقِّ ، وشعرها يدور في مجمله على معاني الإسلام وذكر الرحمة والرأفة وطلب رضوان الله ، ترجم حقيقة الطمأنينة والسكينة التي ملأت قلوب المؤمنين .

أما عمته عاتكة فقد رثته في شعرها بأبيات لا تبعد في معانيها في وصف حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عما قالته أختها أروى ، قالت :

يَا عَينُ جُودِي ما بَقِيتِ بعَبْرَةٍ ... سَحَّاً على خَيرِ البَريَّةِ أحمَد
يَاعَيْنُ فاحتَفِلي وَسُحِّي واسْجُمِي ... وأبكِي عَلى نُورِ البلادِ مُحمَّد
أنَّى لَكِ الوَيلاتُ مِثل مُحَمَّدٍ ... في كُلِّ نائِبَةٍ تَنُوبُ ومَشهَد
فابكِي المبارَكَ والموَفَّقَ ذا التّقى ... حَامِي الحَقِيقةِ ذا الرَّشَادِ المْرشِد
مَن ذا يفُكُّ عَنِ المغَلَّلِ غُلَّهُ ... بَعْدَ المَغَّيبِ في الضَّريح الملحَد؟
أم مَنْ لِكُلِّ مُدقِع ذي حاجَةٍ ... ومُسَلسَلٍ يَشكُو الحَدِيدَ مُقيَّد
أم مَنْ لوَحِي اللهِ يُترَكُ بَيْنَنَا ... في كُلِّ مُمْسى لَيلةٍ أو في غَد
فَعَلَيْكَ رَحْمةُ رَبِّنَا وَسَلامُهُ ... يا ذا الفوَاضِلِ والنَّدَى والسّودد
هَلَّا فَدَاكَ المَوتَ كُلُّ مُلَعَّنٍ ... شَكْسٍ خلائِقهُ لَئِيمِ المَحتد؟[2]

تظهر في أبيات الشاعرة الاستجابة التامة للمؤثرات الإسلامية فقد مست قيم الإسلام شغاف قلبها ، وعبر رثاؤها عن شعورها الصادق ، وقالت :

أعَينيّ جُودَا بالدّمُوع السّوَاجِمِ ... عَلَى المُصْطفَى بالنّور مِنْ آلِ هَاشِمِ
عَلَى المُصْطفَى بالحَقّ وَالنّوروَالهُدَى ... وَبالرّشدِ بَعْدَ المندَبَاتِ العَظائِمِ
وَسُحّا عَلَيـــهِ وَابكِيـا مَـابَكِيتُمَا ... عَلَى المرتَضَى لِلمُحْكَمَاتِ العَزَائِمِ
عَلَى المرتَضَى لِلبرّ وَالعَدلِ وَالتّقى ... وَلِلدّينِ وَالإسلامِ بَعْدَ المَظالِمِ

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 325 - 326 .
(2) نفس المصدر ، جـ2 ، ص326 - 327

على الطاهِرِ الميمونِ ذي الحِلمِ والندى ... وَذِي الفضْلِ والدّاعِي لِخيرِ التراَحُم
أعينيّ مَاذا بَعْدَمَا قدْ فجعتُمَا ... به تبكيان الدّهْرَ مِنْ وَلَدِ آدم ؟
فجُودا بسَجْلٍ واندُبا كُلّ شارقٍ ... رَبيْعَ اليَتَامَى في السّنِينَ البَوَازم[1]

وقالت :

عَينيَّ جُودا طوالَ الدَّهر وانهَمِرا ... سَكباً وسحّاً بدَمْعٍ غيْرِ تَعذير
يَا عَينُ فاسحنفِرِي بالدّمْعِ واحتفلي ... حتَّى المَمَاتِ بسَجْلٍ غير مَنْزُور
يَا عينُ فانهمِلي بَالدّمْعِ واجتهدي ... لِلمُصطفى دُونَ خَلق اللهِ بالنُّور
بُمستهَلٍّ من الشؤبوبِ ذِي سَيلٍ ... فقد رُزئْتُ نبيَّ العَدْلِ والخَيْر
وَكُنت مِنْ حذر المَوت مُشفقة ... وللذي خطّ مِنْ تلك المَقادِير
مِنْ فقد أزهرَ صَافي الخلق ذي فخرٍ ... صَافٍ من العيبِ وَالعَاهَاتِ وَالزور
فاذهَبْ حَمِيداً جَزَاكَ اللهُ مغفرة ... يَوْمَ القِيامَةِعِنْدَ النفخ في الصّور[2]

امتلكت عاتكة رضي الله عنها ناصية الإبداع الرثائي الذي برز في رثائها لرسول الله صلى الله عليه وسلم واعتدادها به ، رصد جانباً من الذوق الأدبي لشواعر الإسلام .

وكذلك رثته عمته صفية بنت عبدالمطلب ، كما رثت من قبل عمّه حمزة في غزوة أحد ، قالت ترثي الرسول صلى الله عليه وسلم :

أعينيَّ جُودا بدمعٍ سَجم ... يُبَادِرُ غَرباً بمَا مُنهَدِم
أعينيَّ فاسحَنْفِرا واسكُبَا ... بوَجدٍ وحُزنٍ شَدِيدِ الألَم
عَلَى صَفْوَةِ اللهِ رَبِّ العِبَاد ... وَرَبّ السَّمَاءِ وَبَاري النَّسَم
عَلَى المُرْتَضَى للهُدَى والتُّقَى ... وللرُّشْدِ والنُّور بعدَ الظُّلم
عَلَى الطّاهِرِ المُرْسَلِ المُجتَبَى ... رسُولٍ تَخيَّرهُ ذو الكَرَم [3]

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ2 ، ص327
(2) نفس المصدر ، جـ2 ، ص326.
(3) نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 328 - 329 .

عنت صفية رضي الله عنها بمحاكاة المعاني القرآنية ونظمها في الشعر بلغتها المعبرة عن صفات المبعوث بالحقِّ ، ثم ذكرت هذه الصفات الجليلة فقالت :

عَينُ جُودِي بدَمعَةٍ تَسْكَاب ... لِلنَّبيِّ المُطهَّرِ الأوَّاب
واندُبي المُصطفى وعُمِّي وَخُصِي ... بدُمُوعٍ غَزيرةِ الأسْرَاب
عَيْنُ مَنْ تَنْدُبينَ بَعْدَ نبيٍّ ... خَصَّهُ اللهُ رَبُّنَا بالكِتَاب
فاتح خاتِمٍ رَحِيمٍ رَؤُوفٍ ... صَادِقِ القِيلِ طيْبِ الأثْواب
مُشفِقٍ ناصِحٍ شَفِيق علينَا ... رَحمةٍ مِنْ إلهنَا الوهَّاب
رَحمَةُ اللهِ والسَّلام عليهِ ... وَجَزَاهُ المَلِيكُ حُسْنَ الثّواب[1] .

وفي أبيات أخرى نجد أن صفية رضي الله عنها عبرت عن انفعالها الوجداني تجاه فجيعتها لموت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهي تصور لنا حالتها عندما بلغها نعيه ، قالت :

لَهفَ نَفسِي وَبثُّ كالمَسلُوبِ ... آرقُ الليل فِعْلَةَ المَحرُوب
مِنْ هُمُومٍ وَحَسرَةٍ رَدَفتنِي ... لَيتَ أنِّي سقيتُهَا بثعوب
حِينَ قالوا: إنَّ الرَّسولَ قد أمسَى ... وَافقتْهُ مَنِيّةُ المَكتُوب
إذْ رَأينَا أنَّ النبيَّ صَرِيعٌ ... فُأشَابَ القذَالَ أيَّ مَشِيب
إذْ رَأينَا بُيُوتَهُ مُوحِشَاتٍ ... لَيْسَ فِيهِنَّ بَعدَ عَيْشٍ حبيبي
أورَثَ القَلب ذَاكَ حُزناً طويلاً ... خَالَط القلبَ فَهْوَ كالمَرعُوب
ليتَ شعري وكَيفَ أمسِي صَحِيحاً ... بَعدَ أن بينَ الرَّسُولِ القريب
أعظم النَّاس في البَرِيَّة حَقاً ... سَيِّد النَّاس حُبُّهُ في القلُوب
فَإلى اللهِ ذَاكَ أشكُو وَحَسْبي ... يَعْلَمُ اللهُ حَوبَتي وَنَحِيبي[2]

وقالت :

آب لَيْلِي عَليّ بالتَّسَهاد ... وَجَفا الجَنْبَ غَيْرُ وَطءِ الوسَاد
وَاعتَرتْنِي الهُمُومُ جدّاً بوَهنٍ ... لأُمُورٍ نَزَلْن حَقّاً شِدَاد
رَحمَةً كَانَ للبَرِيَّةِ طُرّاً ... فَهَدَى مَنْ أطَاعَهُ للسِّدَاد
طَيِّبُ العُودِ والضّريبةِ والشِّيـ ... ـمَةِ مَحْضُ الأنسَاب وَارى الزِّنَاد

---

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 329 .
(2) نفس المصدر، جـ 2 ، ص 327 - 328 .

أبلَجٌ صَادِقُ السَّجِيَّةِ عَفٌّ ... صَادِقُ الوَعدِ مُنْتَهَى الرُّوَاد
عَاشَ مَا عَاشَ فِي البريَّةِ بَرًّا ... وَلَقَدْ كَانَ نُهبَةَ المُرتَاد
ثمّ وَلَّى عَنَّا فَقيداً حَمِيداً ... فَجزَاهُ الجِنَانَ رَبُّ العِبَاد[1]

فهي مع صدق العاطفة في بكائها الشديد ، بدت راضية بقضاء الله وقدره ، فعزاؤها أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتنعم في جنة الخلد ، ثم قالت :

عَينُ جُودِي بدَمْعَةٍ وَسُهُود ... واندُبي خَيْرَ هَالِكٍ مَفقود
واندُبي المُصْطَفى بحُزنٍ شَديدٍ ... خَالَطَ القَلبَ فَهوَ كالمَعمُود
كِدتُ أقضي الحياة لَمَّا أتَاهُ ... قَدَرٌ خُطَّ في كِتَابٍ مجِيد
فَلقد كَانَ بالعِبَادِ رَؤُوفاً ... ولهم رحمة وخَيْرَ رشيد
رضى اللهُ عَنهُ حَيّاً وميتاً ... وجَزاهُ الجِنَان يَومَ الخُلُود[2]

وقالت :

أرقتُ فَبتُّ لَيْلِي كالسَّلِيب ... لِوَجدٍ في الجَوانِحِ ذِي دُبيب
فَشَيَّبني ومَا شَابَتْ لِداتي ... فأمسَى الرَّأسُ مِنِّي كَالعَسِيب
لِفقدِ المُصطفى بالنُّور حَقّاً ... رَسُولِ اللهِ مَالكَ مِن ضَرِيب
كَرِيمِ الخِيمِ أروعَ مضرجيٍّ ... طَويلِ البَاعِ مُنتَجبٍ نَجِيب
ثَمَالِ المُعدَمينَ وكلِّ جَارٍ ... ومَأوى كُلِّ مُضطهَدٍ غريب
فَإمَّا تُمْسِ في جَدَثٍ مُقِيماً ... فَقِدْماً عِشتَ ذا كَرمٍ وَطِيب
وَكُنتَ مُوفَّقاً في كُلِّ أمرٍ ... وفِيمَا نابَ مِن حَدَثِ الخُطوب[3]

وفي أبياتها هذه وصفت القيم والأخلاق الإسلامية التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحلى بها ، في عطفه وشفقته على الناس والرحمة والكرم الذين أغدقهما على المحتاجين ، وقالت تبكي فقده عليه السلام وتصف شدة حزنها :

---

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 330 .
(2) الموضع نفسه .
(3) نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 329 .

طالَ ليلي أسْعدنني أخواتي ... لَيسَ ميتي كَسائِر الأموات
لَيْسَ ميتي مَنْ مَاتَ في النَّا ... س ولا كَانَ مِثْلُهُ في الحياة
طالَ ليلي لِنكبَةٍ قطَّعَتْنِي ... لا أرَى مِثْلَهَا مِنَ النَّكبَاتِ[1]

وقالت :

مَا لِعينيَّ لا تجُودَانِ رَيَّا ... قد رُزِينا خَيْرَ البريَّةِ حَيَّا
يَومَ نَادى إلى الصلاةِ بلالٌ ... فَبكَينا بَعدَ النِّدَاءِ مَلِيَّا
كُلُّ يَومٍ أصبَحتَ فِيهِ ثَقِيلاً ... لا تَرُدّ الجَوَابَ مِنكَ إليَّا
لَم أجِدْ قبلَهَا وَلَستُ بلاق ... بَعدَهَا غُصَّةً أمرّ عَلَيَّا
وَجُمانُ الشَّيخ مُنحَدِرٌ في ... عَارضيهِ كالمِسْكِ فَاحَ ذَكِيَّا
وَهيَ في الصَّدْر قد تُسَاقُ حَثِيثاً ... ومِنَ الوَقتِ عِندَ ذَاكَ هَوَيّا
لَيتَ يَومِي يَكُونُ قبلكَ يَوماً ... أنضَجَ القَلبَ لِلحرارةِ كيَّا
خُلُقاً عَالِياً وَدِيناً كَرِيماً ... وَصِرَاطاً تَهْدِي بهِ مُستويا
وَسِرَاجاً يَهدِي الظَّلامَ مُنيرا ... ونبيَّاً مُسوَّداً عَرَبيَّا
حَازِماً عَازِماً حَلِيماً كَرِيمَاً ... عَائِداً بالنَّوالِ بَرَّاً تَقِيَّا
إنَّ يَوماً أتَى عَليكَ لَيومٌ ... كُدِّرَتْ شَمسُهُ وكَانَ جَلِيَّا
فَعَليكَ السَّلامُ مِنَّا وَمِنْ رَبْ ... بكَ بالرُّوح بُكرةً وعَشِيَّا[2]

استحكمت قيم الإسلام في نفوس الشواعر الصحابيات وتظهر الاستجابة التامة للمؤثرات الدينية في مقطوعاتهن حيث مس القرآن شغاف قلوبهن وعقولهن ، وقد حاكت عمات الرسول صلى الله عليه وسلم وابنته فاطمة رضي الله عنها معاني القرآن ولغته ، فاتَّخذ الرثاء من خلال أبياتهن طابعاً متميزاً للدين الإسلامي ، ونجد أبيات ابنة عم الرسول صلى الله عليه وسلم تحمل هي الأخرى سمات الشعر الإسلامي والمباديء الدينية ، وهي هند بنت الحارث بن عبدالمطلب ترثي رسول الله صلى

(1) أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني ، الزهرة ، تح إبراهيم السامرائي ونوري حمودي القيسي ، العراق ، منشورات وزارة الإعلام ، 1975 ، جـ 2 ، ص 35 .
(2) الموضع نفسه .

عليه وسلم فتقول :

يا عينُ جُودي بدَمْع منكِ وابتدري ... كمَا يُنَزَّلُ مَاءُ الغيْثِ فانثعبَا
أو فيضُ غربٍ على عاديَّةٍ طويَتْ ... في جَدولِ خَرقٍ للماءِ قد سَربَا
لقَدْ أتتنِي مِنَ الأنباءِ مُعضِلَة ... أنّ ابنَ آمِنَةَ المأمُونَ قد ذهبَا
أنَّ المباركَ والميمُون في جَدَثٍ ... قد ألحفُوهُ تُرابَ الأرض والحَدَبا
أليْسَ أوسَطكُم بيتَاً وأكرمَكُم ... خالاً وعمَّاً كريماً ليْسَ مُؤتَشَبَا[1]

ولأم أيمن وتدعى بركة أبيات في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، قالت :

عينُ جُودي فإنَّ بذلكِ لِلدَمْـ ... ـع شِفاءٌ فاكثري مِ البُكاء
حِينَ قالوا : الرَّسُولُ أمسى فقيداً ... ميِّتاً كانَ ذاكَ كُلّ البَلاء
وابكِيا خيْرَ مَنْ رُزِئْنَاهُ في الدُّنـ ... ـيا ومن خَصَّهُ بوَحِي السَّماء
بدُمُوع غزيرةٍ منك حتَّى ... يقضِيَ اللهُ فِيكِ خَيْرَ القضاء
فلقد كانَ مَا عَلِمْتُ وصُولاً ... ولقد جَاءَ رَحمَةً بالضِّيَاء
وَلَقَدْ كَانَ بَعْدَ ذلِكَ نُوراً ... وَسِراجاً يُضيءُ في الظَّلمَاء
طيِّبُ العُودِ والضّريبةِ والمَعْـ ... ـدِن والخِيمِ خاتمَ الأنبياء[2]

كانت أم بركة مولاة لعبد الله بن عبدالمطلب ثم صارت للنبي صلى الله عليه وسلم[3] ، وإذ بذوقها الشعري يرتد إلى حبها للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بدليل ما أدلت به من عمق الحزن على الذي جاء رحمة للعالمين .

ورثت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت :

أمْسَتْ مَرَاكبُهُ أوحَشَتْ ... وقدْ كَانَ يَركَبُهَا زَينُهَا
وَأمْسَتْ تُبكِّي على سَيِّدٍ ... تُرَدّدُ عَبرَتَهَا عَينُها
وأمْسَتْ نِساؤكَ ما تَستَفِيقُ ... مِنَ الحُزنِ يَعتَادُها دَينُهَا
وأمْسَتْ شَوَاحِبَ مِثلَ النِّصَا ... لِ قد عُطِّلتْ وَكبَا لَونُهَا

---

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 330 - 331 .
(2) نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 332 - 333
(3) ينظر ابن سيد الناس ، منح المدح ، ص 337 .

يُعالجِنَ حُزناً بَعِيدَ الذهَابِ ... وفي الصَّدر مُكتنِعٌ حَيْثُهَا
يُضرِّبنَ بالكَفِّ حُرَّ الوُجُوهِ ... على مِثْلِهِ جادَهَا شُوثُها
هو الفَاضِلُ السَّيِّدُ المُصْطفى ... عَلى الحَقِّ مُجتَمِعٌ دِيثُهَا
فكيفَ حَياتِي بَعْدَ الرَّسُولِ ... وقد حَانَ مِن مِيتَةٍ حِيثُهَا[1]

وصفت الشاعرة عمق الحزن الذي أصاب نساء الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فقده مصيبة عامة على كافة المسلمين من الرجال والنساء ، وقالت تُعزي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أشَابَ ذوَابتي وأذلَّ رُكنِي ... بُكَاؤُكِ ـ فاطِمَ ـ المَيْتَ الفقِيدَا
فأعطِيتَ العَطاءَ فلمَ تُكَدِّرْ ... وأخذَمْتَ الوَلائِدَ والعبيدَا
وكُنْتَ مَلاذَنَا في كُلِّ لِزْبٍ ... إذَا هبَّتْ شَامِيَةٌ بُرُودَا
وإنَّكَ خَيْرُ مَنْ رَكِبَ المَطايَا ... وأكرَمُهُم إذا نُسِبُوا جُدُودَا
رَسُولُ اللهِ فارَقَنَا وكُنَّا ... نُرَجّى أن يكُونَ لَنَا خُلُودَا
أفاطِمَ فاصْبري فلقدْ أصابَت ... رزِينَتُكِ النَّهائِمَ والنّجُودَا
وأهلَ البرِّ والأبحَارِ طُرَّاً ... فلَم تُخطِيءْ مُصِيبتُهُ وَحِيدَا
وكانَ الخَيرُ يُصبحُ في ذُرَاهُ ... سَعِيدُ الجَدّ قد وَلدَ السّعُودَا[2]

ولهند بنت أثاثة بن عبّاد بن المطلب بن عبد مناف أخت مِسْطح بن أثاثة مقطوعتان رثت فيهما الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت :

ألا يا عَين بَكِّي لا تَمَلي ... فقد بَكَرَ النَّعيُّ بمَنْ هَويتُ
وقد بَكَرَ النَّعْيُّ بَخير شَخصٍ ... رَسُولِ اللهِ حَقَّاً ما حَييتُ
وَلو عِشنَا ونَحنُ نَراكَ فِينَا ... وأمرُ اللهِ يتركُ ما بَكَيتُ
فقد بَكَرَ النَّعيُّ بذاكَ عَمداً ... فقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَةُ مَنْ نُعِيتُ
وقد عَظُمَتْ مُصِيبتُهُ وَجَلَّتْ ... وكُلَّ الجَهْدِ بَعدَكَ قد لَقِيتُ
إلى رَبِّ البَريَّةِ ذاك أشكُو ... فإنَّ اللهَ يَعلَمُ ما أتيتُ

---

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 332 .
(2) نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 331 .

أفاطِم إنَّهُ قدْ هُدّ رُكني وَقدْ عَظمَتْ مُصِيبَةُ مَنْ رُزِيتُ[1]

حقاً بكت النساء الشواعر في شعرهن الرسول صلى الله عليه وسلم بصيغ تفيض بعاطفة جياشة في حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذ بعنصر الصدق في رثائهن يعكس ذلك في مثل هذه المقطوعات ، ولكن تظل مسحة الإيمان في قلوب الشواعر تحثهن على الصبر والتسليم لأمر الله والشكوى إليه .

ثالثاً : شعر الرثاء النسائي في زمن الخلفاء الراشدين

بدأت الخلافة الراشدة حين تولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أرسى الإسلام دعائم الخلافة المبنية على الشورى بين المسلمين ، وأقرَّ المساواة بين الناس جميعاً ، وفي عهد أبي بكر الصديق قلَّ الشعر الرثائي للنساء ، ولم تكن مقطوعات الرثاء إلا اتجاهاً من الاتجاهات المكملة للمرثيات الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

1- شعرهن في خلافة أبي بكر الصديق (11 هـ - 13 هـ)

مر بنا أن المشركين (هوازن وثقيف) بعد هزيمتهم في غزوة حنين على أيدي المسلمين ، فرّوا إلى ثلاث جهات الطائف - أوطاس - نخلة ، فلحق بهم المسلمون وقتلوا العديد منهم ، وكان عبدالله بن أبي بكر الصديق ممن لحق بالذين اتجهوا إلى الطائف فأصيب في أثناء اشتباك الطرفين برمية سهم ، وظل جريحاً حتى مات بالمدينة في خلافة أبيه[2] .

وبعد موته ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها ما قاله أبوها أبو بكر الصديق عنه قالت "لما مات عبدالله بن أبي بكر وجد عليه أبوبكر وجداً شديداً ثم دخل عليَّ فقال : يا عائشة ، والله لكأنما أُخذ بأذن (شاةٍ من دارنا) فأخرجتْ ، فقلت : الحمد لله الذي عزم لك على رُشدك ، وربط على قلبك قالت : ثم جاء بعد ذلك فقال ، أي بُنيّة ، أتخافين أن تكونوا دفنتم عبدالله وهو حي ؟ . فقلت : استعذ بالله يا أبه ، فقال أستعيذُ بالله السّميع العليم من الشّيطان الرجيم ، أي بُنَيّة إنّه ليس أحدٌ إلّا وله من

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ2 ، ص 331
(2) ينظر الواقدي ، المغازي ، جـ 3 ، ص 938 .

الشيطان لمَّة "[1]، وكان عبدالله زوجاً لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن ثقيل القرشية فقالت في رثائه :

فجِعْتُ بخَيْرِ النَّاس بَعْدَ نَبيِّهم ... وَبَعْدَ أبي بَكْرٍ وَمَا كَانَ قصَّرَا
فآلَيْتُ لا تَنفكُّ عَيْنِي سَخِينَةً ... عَلَيْكَ ولا يَنفكُّ جِلدِي أغْبَرَا
مَدَى الدّهْرِ مَا غَنَّتْ حمَامَةُ أيكةٍ ... ومَا طَرَدَ اللّيلُ الصَّباحَ المُنوَّرَا
فلِلَّهِ عيناً مَنْ رَأى مِثلهُ فتىً ... أكرَّ وأحمَى في الجِهَادِ وأصْبَرَا
إذا أشرعَتْ فيه الأسِنَّة خَاضَهَا ... إلى المَوتِ حتَّى يَترُكَ الرّمحَ أحْمَرَا[2]

عبَّرت الشاعرة عن حزنها بكم الدّموع التي ذرفتها إزاء الحدث الجلل الذي أصابها مع الترنيمة الحزينة الكئيبة للحمامة على أيكها وقد فقدت خير الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأبيه أبي بكر الصديق ، وقد تحول مفهوم القتال من مصطلح الحرب في الجاهلية إلى مصطلح الجهاد في الإسلام ، وبالرغم من المعاني الإسلامية التي ظهرت في حديثها إلا أن شعرها تشوبه الأفكار الجاهلية في التعبير عن الحزن ، حين ذكرت شدة الحزن وعدم صبرها ، حتى أنها أضحت في حالة يرثى لها وهي تبكيه طوال الدهر ، ربَّما لأنها كانت قد اعتادت على مثل هذه الصيغ في التعبير عن موقفها من ذلك الفقد في حياتها قبل الإسلام .

وتوفي أبو بكر الصديق سنة 13 هـ ، وكانت وفاته بسبب اغتساله في يوم بارد فأصابته الحمى خمسة عشر يوماً منعته من الخروج إلى الصلاة[3] ، وبعد موته تذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت " يا طول حزني وشجاي لم ألع على مثكول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لوعي على أبي طامن المصائب رزؤه وكنتُ بعد النبي صلى الله عليه [وسلم] لارزء أحفله وعاء الوحي وكافل رضاء الرب وأمين رب العالمين وشفيع من قال لا إله إلا الله "[4] .

---

(1) المبرد ، التعازي والمراثي ، ص146
(2) أبوالحسن علي بن محمد المدائني ، المردفات من قريش ، تح عبد السلام هارون ، ط1 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1370 هـ - 1951م ، ص 62 .
(3) ينظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 3 ، ص 202 .
(4) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 7 .

وحين وقفت على قبر أبيها قالت : " نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدُّنيا مُذلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة مُعِزّاً بإقبالك عليها وإن كان لأجَلّ الأرزاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رُزؤك ، ولأكبرُ المصائب فقدُك ، وإنَّ كتابَ الله ليَعِدُ بجميل العزاءِ عنك حُسْنَ العِوَض منك ، فأئتَجِز من الله موعوده فيك بالصَّبر عنك وأستخلصه بالاستغفار لك "[1] ، ثم قالت :

إنّ مَاءَ الجُفُون ينزحُه الهَمُّ وَتَبْقى الهُمُومُ والأحزَانُ
لَيْسَ يأسُو جوى المرزّأ مَاءٌ سَفحَتْهُ الشؤونُ والأجفَانُ[2]

2- شعرهن في خلافة عمر بن الخطاب (13 هـ - 33 هـ)

وفي خلافة عمر رضي الله عنه برز شعر الفتوح ، واستكملت النماذج الرثائية ما تعكسه من صور الرثاء النسائي وعلى هذا المستوى نجد مقطوعة لعمرة بنت مرداس في رثاء أخيها العباس ابن مرداس الذي استشهد في معركة القادسية ، قالت :

لِتَبْكِ ابنَ مِرْدَاسٍ على ما عَراهُمُ عَشِيرَتُهُ إذ حُمَّ أمس زَوَالُهَا
لَدى الخَصْمِ إذ عِنْدَ الأمِيرِ كَفاهُمُ فَكَانَ إليه فَضْلُهَا وجدَالُهَا
ومُعضِلَـــةٍ لِلحَامِلِينَ كُفِيتَهَـــا إذَا أنهَلتْ هُوجَ الرّياح طِلالُهَا[3]

ترجمت عمرة مشاعر الحزن في صورة بدأت واضحة في علاقة المرأة بأهلها وذكرمدى الترابط القبلي الذي كان بين القبائل ، فهي ليست وحدها التي تبكيه ، بل أن أبناء العشيرة كانوا يشاركونها الحزن والألم ، ويعود ذلك لحكم طبيعة النساء وأسلوب تعبيرهن ، وقالت ترثي أخاها الآخريزيد ؛ ليتبين لنا شدة تعلقها بإخوتها :

أعَينَيَّ لم أختِلكُمَا بخيانَةٍ أبى الدَّهْرُ والأيامُ أن أتصَبَّرا
ما كنتُ أخشى أن أكُونَ كَأنَّني بَعِيرٌ إذا يُنعَى أخيَّ تَحَسَّرَا

---

(1) الجاحظ ، البيان والتبيّن ، جـ 2 ، ص 302 .
(2) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 7 .
(3) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 14 ، ص 319 ، والطلال : جمع طل وهو أخف المطر وأضعفه .

تَرَى الخصمَ زُوراً عند مهابة وليسَ الجَلِيسُ عن أخَيّ بأزورَا[1]

فقد بكت عمرة العباس ويزيد ، والغريب أن أمها الخنساء لم تقل قصائد رثائية فيهما ، وكان رأي بنت الشاطيء في عدم رثاء الخنساء لابنيها ، ربما يعود لاهتمام الرواة بفجيعتها في أخيها صخر الذي بكته طويلاً ، أو أن العاطفة الأخوية عند الخنساء قد طغت على عاطفة الأمومة ، الأمر الذي يجعل من عاطفتها لأن تكون في تناقض بعيداً عن طبيعة البشر[2] .

وتوفي خالد بن الوليد بن المغيرة ، أحد قادة الجيوش الإسلامية سنة 21 هـ[3] ، فكانت لأمه لبابة بنت الحارث أبيات افتخرت فيها بفروسية ابنها وشجاعته ، قالت :

أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القو مِ إذا ما كبَتْ وجوهُ الرِّجال
أشُجاعٌ فأنتَ أشجَعُ من ليـ ـثِ ضُمْر بن جَهْمٍ أبي الأشبال
أجواد فأنتَ أجودُ من سَيـ ـلِ أتيّ يَسيلُ بينَ الجِبال[4]

عقدت أم خالد مقارنة بين المرثي وبين ثلاثة عناصر تمثل الشجاعة والقوة ، وذكرت أنه أقوى من كلِّ أبناء القوم والأسود والسّيل الجارف ، فلم تكن راثية نائحة فحسب ، بل تفوقت على هذا الاتجاه وظهرت براعتها في ثباتها أمام تلك المصيبة التي ألمت بها ، فبدت قوية صابرة تعتز بمن ترثيه ، وفي هذه السنة توفي عمرو بن معد يكرب ، فقالت زوجته :

لقَدْ غَادَرَ الرّكْبُ الذين تَحَمّلُوا بُرودَةَ شخصاً لا ضَعِيفاً وَلاغْمرَا
فقُلْ لِزبيدٍ بَلْ لِمذحجٍ كُلِّهَا فقَدْتُـمْ أبا ثورٍ سِنَانَكُـمُ عَمْرَا
فإنْ تَجزعُوا لا يُغْنِ ذلِكَ عَنْكُمُ وَلكنْ سَلُوا الرّحمنَ يُعْقِبْكُمُ صَبْرَا[5]

ازدادت الصورة الرثائية إيماناً حين توجهت بها الشاعرة إلى الحديث عن الصبروالاحتساب فحثت قومها على عدم الجزع على المرثي ، وتظل هذه المعاني متميزة في شعر النساء تميز مَنْ تمتعت بالتجلد والثبات تجاه المحن .

---

(1) أبو تمام ، الحماسة ، جـ 1 ، ص 458 - 459
(2) ينظر د.عائشة عبدالرحمن ، الخنساء ، القاهرة ، ط 3 ، دار المعارف ، 1963 - 1970 م ، ص49 - 52
(3) اليافعي ، مرآة الجنان ، جـ 1 ، ص 76 .
(4) شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، ط 1 ، مصر، مطبعة السعادة ، 1328 هـ ، جـ 4 ، ص 398 ، ورد فيه البيت الأخير برواية مختلفة .
(5) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ15 ، ص225

ولعفراء بنت عقّال مقطوعة في عُرْوَة بن حِزَام وقد كانت تمثل نموذجاً للحبِّ العذري ، فقد أرسلت أشواقها إليه من خلال محاورة الرَّكب ، فقالت :

ألا أيُّهَا الرَّكبُ المُخِبُّونَ ويحَكُم بحقٍّ نَعَيْتُمُ عُروةَ بنَ حِزَام

فَلا تهنأ الفِتيَان بَعْدَكَ لِذة ولا رَجَعُوا مِنْ غَيبَةٍ بسَلام

وَقُلْ للحَبَالى : لا تُرجِّينَ غائِباً ولا فُرحَاتٍ بَعْدَهُ بغلام[1]

تتساءل الشاعرة بحرقة عن حقيقة مقتل عروة بن حزام ، وقد صدمتها الفجيعة التي ألمت بها فأخذت تحدث من حولها عن شدّة حزنها .

وقِيل إن عمر بن الخطاب أيام خلافته ، كان ليلة يتفقد أحوال المسلمين ، فرأى نوراً في بيت فلمَّا اقترب منه فإذ البيت لامرأة عجوز أخذت تبكي الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت ترتجز :

على محمدٍ صَلاة الأبرار صَلَّى عَليكَ المُصطفُونَ الأخيار

قد كُنتَ قوَّاماً بكيَّ الأسحار يا ليتَ شِعري والمنَايَا أطوَار

هَل تَجمعَنِّي وَحَبيبي الدار؟[2]

مع قوة إيمان المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين ، أصبح الرثاء يندفع تلقائياً نحو مباديء الدين الحنيف والحديث عن الأذكار والصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم مؤكداً استمرارية العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته .

---

(1) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ24 ، ص158 - 159

(2) محمد يوسف الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، القاهرة ، دار النصر للطباعة ، 1390هـ - 1970م ، جـ2 ، ص376 .

ثم كانت وفاة عمر بن الخطاب ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي وهو من سبي نهاوند ، فاستشهد رضي الله عنه[1] ، وحين مرضه قالت ابنته حفصة " يا أبتاه ما يحزنك وفادتك على رب رحيم ولا تبعة لأحد عندك ومعي لك بشارة لا أذيع السر مرتين ونعم الشفيع لك العدل لم تخف على الله عز وجل خشنة عيشتك وعفاف نهمتك وأخذك باكظام المشركين والمفسدين في الأرض ثم أنشات تقول :

أكظمُ الغلّةَ المخالطة القلـ ... بِ وأعزي وفي القرآن عزائي
لَمْ تَكُن بغتةً وفاتُكَ وَجْداً ... إنَّ ميعادَ مَنْ تَرَى للفنَاءِ "[2]

هذب الإسلام نفوس المؤمنين وألهمهم سُبُل الرشاد ، **قال تعالى : { الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (29)}** [3] .

وتمدنا المصادر ببعض المقطوعات لشواعر رثين عمربن الخطاب ومنهن أقرب النساء إليه ، زوجته عاتكة بنت زيد ، قالت :

فَجَّعَني فيرُوزُ لا دَرَّ دَرُّهُ ... بأبيضَ تَالٍ للكِتابِ مُنيب
رَؤُوفٍ على الأدنى غَليظٍ على العِدَى ... أخي ثِقةٍ في النَّائِباتِ مُجِيب
متى ما يَقل لا يَكْذِب القولَ فِعلُهُ ... سَريع إلى الخَيرَاتِ غير قطوب[4]

لم تعد مقطوعات الرثاء وعاء للتشكي من فقد المرثي ولوعة الشاعرة عليه لكونه مبعث الحماية لها ، إذ هي تبدو صابرة محتسبة ، ولكن بكاءها كان على من يتحلى بالصفات الخلقية الإسلامية ، على تالي القرآن ، الصادق الرؤوف على رعيته ، وقالت :

عَينُ جُودي بعَبْرَةٍ ونَحِيبِ ... لا تَمَلّي على الإمَامِ النَّجِيب
فُجِّعَتني المَنُونُ بالفَارسِ المُقْـ ... ـدَم يَومَ الهيَاج والتذبيب
عِصمَةَ النَّاسِ والمُعِينُ على الدَّهْـ ... ـرِ وغيثُ المتاب والمَحرُوب
قُلْ لأهلِ الضَّرَاءِ والبأسِ مُونوا ... قد سَقَتهُ المَنُونُ كأسَ شَعُوب[5]

---

(1) ينظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ3 ، ص 347
(2) ابن طيفور، بلاغات النساء ، ص30 .
(3) سورالرعد ، آية 29 .
(4) المدائني ، المردفات من قريش ، ص63 .
(5) الموضع نفسه .

وقالت تصف حزنها وقد لف جسده الطاهر في أكفانه :

مَن لنفسٍ عَادَها أحزانُهَا وَلعينٍ شفهَا طولُ السّهد
جَسَدٌ لفف فِي أكفانِهِ رَحمَة الله على ذاك الجَسد
فِيه تفجيعٌ لمولى غارم لمْ يدَعهُ الله يَمشي بسبَد[1]

عودة أحزان الشاعرة إشارة لتكرارحزن على أزواجها ، وهي تجربة مرَّت بها حين وفاة زوجها الأول عبدالله بن أبي بكر الصديق ، ولكن كانت في كلِّ مرة صابرة ، وشعرها صورة ضمت معاني إسلامية عن الصبر والشهادة والأجر ، إلا أن الحزن هنا على الغدر والقتل لخليفة المسلمين وبداية الفتن .

والغريب أن نجد واحدة من بين النساء بكت عمر بن الخطاب بألفاظ توحي بالمعاني الجاهلية في أفعال النساء عند النواح وهو أمر ينهى عنه الإسلام ، قالت :

سَيَبْكِيك نِســـاءُ الحـــيْ يِ يَبكيـــــنَ شَجِيَّـــــاتِ
وَيَخمشنَ وُجوهـــــاً كـــالدْ دَ نَانيـــــــــر نقيَّـــــاتِ
ويَلبَسنَ ثِيـــــــابَ الحُـــزْ نِ بَعـــدَ القصبيَّـــــاتِ[2]

3- شعرهن في خلافة عثمان بن عفان (33هـ - 35 هـ)

أما في خلافة عثمان بن عفان وبعد أن أخذت الفتنة تطل على المسلمين وما جرى من أحداث، لم تمدنا المصادر بشعر النساء ، ولم يأت ذكر لمقطوعات الرثاء إلا القليل منها في رثاء عثمان بن عفان ، الذي تعددت الروايات في خبر مقتله ، منها أن قاتله سودان بن حُمران المرادي[3] سنة 35 هـ ، وكان عثمان متزوجاً بنائلة بنت الفرافصة ، وبعد قتله " أقبلت بوجهها على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقالت اللهم أشهد :

---

(1) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ1 ، ص 462 - 463
(2) تاريخ الطبري ، جـ4 ، ص594
(3) ينظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ3 ، ص73- 74

أيا قبر النبي وصاحبيه عذيري إن شكوت ضياع ثوبي
فإني لا سبيل فتنفعوني ولا أيديكمُ في منع حَوبي " [1]

يتراءى لنا في حديث نائلة التسليم بقضاء الله وقدره ، وانتظار مصيرها القائم من بعده ، فتظل علامة مميزة لشعر الرثاء عند النساء في رثاء الأزواج ، والنساء كن يقلن أشعار الغزل في رثاء عشاقهن ، ويذكرن في شعرهن معاني الفراق للمعشوق ، كما كن يمدحن أوصافه ويثنين على خصاله الحميدة ، فتجمع قصائدهن أكثر من غرض شعري .

4ـ شعرهن في خلافة على بن أبي طالب (35 هـ ـ 40 هـ)

في خلافة آخر الخلفاء الراشدين وازدياد الفتن بين المسلمين ، وردت القصائد والمقطوعات الرثائية في بكاء قتلى المسلمين في آخر حقبة صدر الإسلام ، وأكثر ما ورد في شعر الرثاء النسائي في هذه الفترة تجسيد أحداث الفتن التي طرأت على المسلمين وقد سجلن بذلك بعدا دينياً جديداً يضاف إلى معاني الرثاء الإسلامي .

في عهد علي بن أبي طالب وقعت معركة الجمل وقد قتل فيها الزبير بن العوام على يد عمرو بن جُرموز حين لحق به بوادي السباع بين مكة والبصرة عند رجوع الزبير إلى المدينة تاركاً الحرب في يوم الجمل[2] وكانت الشاعرة عاتكة بنت زيد قد تزوجت الزبير بعد عبدالله بن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، فقالت ترثيه وتهجو جرموزا :

غَدَرَ ابنُ جُرموزٍ بفارسِ بُهمَ يَوْمَ اللِّقاءِ وَكَانَ غَيْرَ مُعَرِّدِ
يا عمرو لو نُبِّهتَهُ لوجَدْتَه لا طائِشاً رَعْشَ الجَنَانِ ولا اليَدِ
شلَّتْ يمينُكَ إن قتَلْتَ لمُسْلِماً حَلَّتْ عَلَيْكَ عُقُوبةُ المُتعمِّدِ
ثكلتك أُمُّكَ هَلْ ظَفِرتَ بمِثْلِهِ فِيمَنْ مَضَى فيما تروحُ وتَغتدي؟
كَمْ غَمْرَةٍ قَدْ خاضَهَا لَمْ يَثْنه عَنْهَا طِرَادُكَ يا ابن فَقْعِ **القَرْدَدِ**[3]

---

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص72
(2) ينظر ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 3 ، ص112
(3) الموضع نفسه

تقرالشاعرة بمكانة زوجها الزبيرالاجتماعية والدينية ، وقد بدت في أبياتها لغة الوعيد من العقاب لمن يقتل أخاه المسلم متعمداً ، وقد أطلقت زفرة الحزن على هذا التمزق الذي هم فيه ، ومع شدة الحزن على زوجها لم تنس ذكر مناقبه والفخر به ، وهكذا فإن عاتكة قد رثت أزواجها الثلاثة ، عبدالله بن أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، والزبير بن العوام ، وفي ذلك قال ابن سعد " وكان أهل المدينة يقولون من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة "[1]

ومن الذين قتلوا يوم الجمل عمرو بن يثربي الضمري ، وكان من رؤساء ضبة في الجاهلية ، وكان في صفوف جيش الزبير وطلحة ضد علي ومن معه ، فبرز للقتال بعدما كان ممسكاً بخطام جمل السيدة عائشة [2] ، فقتل ولابنته أبيات في رثائه :

يا ضبُّ إنَّكِ قدْ فجِعْتِ بفارسٍ ... حَامِي الحَقِيقةِ قاتلِ الأقرانِ
عمرُو بنُ يثربي الذي فجِعَتْ بهِ ... كُلُّ القبائِلِ مِنْ بني عَدنانِ
لم يحَمِه وسطَ العَجَاجَةِ قومُهُ ... وحنتْ عَلَيه الأزْدُ ، أزْدُ عُمَانِ
فلهُمْ عليَّ بذلكَ حَادثُ نعمةٍ ... ولِحُبِّهِم أحببتُ كُلّ يمَانِ
لو كَانَ يَدْفَعُ عن منيَّة هَالِكٍ ... طُولَ الأكفِّ بذابلِ المُرَّانِ
أو معشرٌ وصلوا الخُطا بسيوفهم ... وسطَ العَجاجةِ والحتوفُ دَوانِ
ما نيلَ عَمرو والحوادثُ جَمَّةٌ ... حتى ينالَ النَّجمُ والقمَرانِ
لو غيرُ الأشتَرِ نالهُ لندبتُهُ ... وبكيتُهُ ما دامَ هَضبُ أبانِ
لكنَّهُ من لا يُعَابُ بقتلِهِ ... أسدُ الأسُودِ وفارسُ الفُرسَانِ [3]

تدين الشاعرة لأزد بالجميل لحماية أبيها ، وكانت الأزد تقاتل مع عمرو بن يثربي وتدافع عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وذكرت أن قاتله الأشتر النخعي رجل من الشجعان ، فخفف ذلك من حزنها ، ومن جانب آخر وبخت قبيلة قومها ضبّة لتخاذلهم وعدم حماية أبيها ، وقد قتل الأشتر هذا وكان من شيعة على بن أبي طالب ، فقالت أخته ترثيه :

---

(1) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ3 ، ص112
(2) ينظر تاريخ الطبري ، جـ4 ، ص 241 - 242
(3) ابن أبي حديد ، شرح نهج البلاغة ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 2 ، (د.ب) ، دار إحياء الكتب العربية، 1385هـ - 1965 م ، جـ 1 ، ص 261 .

أبعدَ الأشتر النَّخعِيّ نَرْجُو مُكاثرةً وَنَقْطَعُ بَطنَ وَادِ
وَنَصْحَبُ مَذْحِجاً بإخاءِ صدق وإنْ نُنْسَبْ فَنَحْنُ ذرا إيَادِ
ثقيفٌ عمُّنَا وأبُو أبينَا وإخوتُنَا نِزَارُ أولو السّدَادِ[1] .

وفي معركة صفين كان خزيمة بن ثابت يُقاتل مع علي بن أبي طالب فقتل ، فقالت ابنته ضبيعة ترثيه :

عينُ جُودي عَلى خُزَيمة بالدَّمْـ ـعِ قتِيلِ الأحزابِ يومَ الفُرَاتِ
قتَلُوا ذَا الشَّهَادتين عُتُوّاً أدرَكَ اللهُ مِنهُمُ بالتِّرَاتِ
قتلُوهُ في فِتيَةٍ غَيْر عُزلٍ يُسْرِعُونَ الرُّكُوبَ فِي الدَّعوَاتِ
نَصَرُوا السَّيِّدَ المُوفَّقَ ذَا العَدْ لِ ودَانُوا بذاكَ حتَّى المَمَاتِ
لَعَنَ اللهُ مَعْشَراً قتَلُوهُ وَرَمَاهُم بالخِزي والآفَات[2]

في أثناء انقسام المؤمنين إلى فرق ومذاهب أصبح الشعر يحمل معاني البغض ، ويفيض بدعوات الهلاك والخزي ، ولم يعد شعر الرثاء عند النساء يحمل تلك القيم السامية التي لمسناها في شعر الصحابيات في رثاء الشهداء في الأعوام الأولى للبعثة المحمدية .

وقتلَ بسرُ بن أرطأة ابنين لجويرية بنت قارظ ؛ لأن والديهما كانا من شيعة على بن أبي طالب ، فبكتهما أمهما بكاءً حارا وهي تتلمس صور الحزن ومعانيه ، فقالت في رثائها :

ألا مَن بيَّنَ الأخْوَيـ ـن أمُّهُمَا هي الثكلى
تُسائِلُ مَنْ رأى ابنَيهَا وَتَستَشفِي فمَا تُشْفى
فلَمَّا استيأسَتْ رَجَعَتْ بعَبْرَة والهٍ حَرَّى
تُتَابـــعُ بَيـــْنَ وَلوَلَـــةٍ وَبَيـــْنَ مَدَامِـــعِ تَثْرَى[3]

(1) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، جـ 2 ، ص 340 .
(2) ابن أبي حديد ، شرح نهج البلاغة ، جـ 8 ، ص 42 - 43 .
(3) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 16 ، ص 265 .

ثم كانت وفاة علي بن أبي طالب سنة 40 هـ ، وقد قيل بعض شعر الرثاء من قبل نساء الشيعة، بكت فيها الشواعر عليا ، ومن ذلك ما قالته أم سنان بنت جشم :

أمَّا هَلَكتَ أبَا الحُسَينِ فَلَمْ تَزَلْ ... بالحَقّ تُعْرَفُ هَادِيَاً مَهديًّا
فاذهَب عَليكَ صَلاة رَبِّكَ ما دَعَت ... فُوقَ الغُصُونِ حَمَامَةٌ قُمْرِيًّا
قدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلَفاً لَنَا ... أوْصَى إليكَ بنَا وكُنْتَ وَفِيًّا
واليَوْمَ لا خَلَقٌ يُؤَمَّلُ بَعْدَهُ ... هَيْهَاتَ نَأمُلُ بَعْدَهُ إنسِيًّا[1]

بكت الشاعرة عليا بالأفكار الشيعية التي ترى وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالخلافة لعلي من بعده ، وفي ثنايا شعرها معاني تعكس ضياع الحقّ ومطاردة الأمان وإثارة الأحقاد والظغائن ، وقالت أم البراء بنت صفوان ترثي عليا :

يَا للرِّجَالِ لِعُظْمِ هَوْلِ مُصِيبَةٍ ... فَدَحَتْ فَلَيْسَ مُصَابُهَا بالهَازِلِ
الشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِفَقدِ إمامِنَا ... خَيْرِ الخَلائِق والإمَامِ العَادِلِ
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ ومَنْ مَشَى ... فُوْقَ التُّرابِ لِمُحْتَفٍ أو نَاعِلِ
حَاشَا النَّبيّ لَقَدْ هَدَدْتَ قُواءَنَا ... فالحقّ أصْبَحَ خَاضِعَاً للبَاطِلِ[2]

بكت النساء ضياع الحقّ واشتكن من هول المصائب التي حلت بالمسلمين لفقد الإمام العادل ويبقى لهذه الشواهد على قلتها دلائلها الكافية على دور الشعر الذي قيل في حقبة صدر الإسلام في كشف الأبعاد النفسية للشواعر ورصد الأحداث التي مرت بالمسلمين .

وعلى كثرة الأحداث والحروب والفتوحات لم تمدنا المصادر إلا بشعر كان قد قيل في الغزوات الأولى لصدر الإسلام وما كان في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان قد قيل في موت الخلفاء الراشدين ، ونتف من رثاء ذوي الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي ، في حين توارت رثائيات النساء من عامة الناس عبر هذه السنوات في منطقة الظل .

---

(1) أبوالعباس أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (د . ت) ، جـ 1 ، ص 258 .
(2) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 79 .

المبحث الثاني:

مظاهرالرثاء عند الشواعر في

زمن الخلافة الأموية

أولاً : شعر الرثاء النسائي في خلافة البيت السفياني

ثانياً : شعر الرثاء النسائي في خلافة البيت المرواني

ثالثاً : شعر الرثاء النسائي في خلافة آخر الخلفاء الأمويين

مروان بن محمد

عرفنا في المبحث السابق كيف أن حقبة صدر الإسلام قد واجهت شعراً جاهليا ، كانت الشواعر الجاهليات قد نظمنه قبل إسلامهن في حين أخذ شعر النساء المسلمات يلتمس طريقه نحو الشعر الهادف متأثرا بروح الإسلام في معانيه وأساليبه وألفاظه .

وأود أن أوضح هنا الرثاء النسائي في ظل السلطة الأموية ، بما تخللها من أحداث وما حدث فيها من صرعات بين المسلمين .

ويمكن القول إن الفتن **والنزاع** على السلطة كان قد بدأ منذ مقتل **عثمان** بن عفان رضي الله عنه ، ثم تتابع ظهور الفتن وازداد مع تولي علي بن أبي طالب الخلافة ، ورأينا كيف أن الشعر في خلافة علي قد أصبح شعراً شيعياً وخارجياً ، وكان ذلك الصراع تمهيداً للصراعات التي حدثت في العصر الأموي .

أولاً: شعر الرثاء النسائي في خلافة البيت السفياني

1 - شعرهن في خلافة معاوية بن أبي سفيان (41 هـ - 60 هـ)

في عهد معاوية ظلت فرقة الشيعة تبكي علي بن أبي طالب ، وقد تأثرت شواعر الشيعة بموته ، وهذه سودة بنت عمارة تقول :

صَلَّى الإلَهُ عَلَى جِسْمٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأصْبَحَ فِيه العَدْلُ مَدْفُونَا
قَدْ حَالفَ الحَقَّ لا يَبْغِي بهِ بَدَلاً فَصَارَ بالحَقِّ والإيمَان مَقرونَا[1] .

وفي عهد هذه الخلافة وبقيام معاوية بمحاربة الشيعة والتنكيل بهم ظهرت قصائد ومقطوعات الرثاء النسائي التي أفرزتها الوقائع السياسية .

---

(1) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 36 .
(2) ينظر أبوحنيفة أحمد بن داوُد الدينوري ، الأخبار الطوال ، تح عبدالمنعم عامر ، ط 1 ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، 1960 م ، ص 223 .

قتل حجر بن عدي بن جبلة الكندي ، بأمر من معاوية وكان حجر قد تعرض لعمروبن حُرَيث العَبَدي والي الكوفة حين كان يخطب على المنبر، ورماه حجر وأصحابه بالحجارة ، وحين علم معاوية بذلك أتاه جرير بن عبدالله بحجر فقتله سنة 51هـ [2] ، فكان مقتله الشرارة الأولى

في الكوفة ضد الحكم الأموي ، ولما جاء نعي حُجر قالت هند بنت زيد الأنصاري :

تَرَفَّعْ أيُّهَا القمَرُ المُنِيرُ ... تَبَصَّرْ هَلْ تَرى حُجراً يَسِيرُ
يَسِيرُ إلى مُعَاوية بن حَرْبٍ ... لِيقتُلَهُ كَمَا زَعمَ الأمِيرُ
وَيَصْلُبهُ عَلَى بَابي دِمَشْق ... وتَأكُلُ مِنْ مَحاسِنَهُ النُّسُورُ
تَجبَّرَتِ الجَبَابرُ بَعْدَ حُجْرٍ ... وَطَابَ لَهَا الخَورنَقُ والسَّدِيرُ
وَأصْبحَتِ البلادُ لَهَا مُحولاً ... كَأنْ لَمْ يُحْيهَا مُزنٌ مَطِيرُ
ألا يا حُجْرُ حجْر بني عَديٍّ ... تَلَقتْكَ السَّلامَةُ والسُّرُورُ
أخاف عَلَيْكَ مَا أرْدَى عَدِيَّاً ... وشيخَاً فِي دِمَشق له زَئِيرُ
يَرى قَتْلَ الخِيار عَلَيْهِ حَقاً ... لَهُ مِنْ شرّ أمَّتِهِ وَزِيرُ
ألا لَيْتَ حُجْرَاً مَاتَ مَوتاً ... وَلَمْ يُنْحَرْ كَمَا نُحِرَ البَعِيرُ
فَإنْ يَهْلِك فَكُلُّ زَعِيمِ قومٍ ... مِنَ الدُّنيا إلى هُلكٍ يَصِيرُ[1]

نستطيع أن نلحظ في شعرها التأثر الكبير لمقتل المرثي بهذه الصورة ، ولكأنما عادت الحياة القبلية والعصبية الجاهلية من جديد ، وستظل الشاعرة تبكيه كما صرحت قائلة :

دُمُوعُ عَيْنِي دِيمَةً تَقْطُرُ ... تَبْكِي عَلَى حُجْرٍ ولا تَفْتُرُ
لو كَانَتْ القُوْسُ عَلَى أسْرِهِ ... مَا حُمِّلَ السَّيفَ لَهُ الأعْوَرُ [2]

وفي قتله قال الجاحظ " وليس قتل حجر بن عدي ... من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة " [3].

---

(1) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص223 .
(2) الموضع نفسه .
(3) رسائل الجاحظ ، جمعها ونشرها حسن السندوبي ، ط1 ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية بمصر ، 1352هـ - 1933م ، ص294 ، (من رسالته في بني أمية) .

فالشاعرة اعتصرها الألم ونحن "... نجد هند شديدة التأثر بشخصية حجر ذاتها ، وهي شخصية دينية ، فمع الحزن يوجد الإيمان القدري بأن هذا المصير هو مصير زعيم قومه غير أن الأسى واضح في طريقة الموت "[1] .

2- شعرهن في خلافة يزيد بن معاوية (60 هـ - 64 هـ)

في سنة 61 هـ ، قتل الحسين بن علي بن أبي طالب بالطف من أرض كربلاء ، بعد اشتباك مع أهل العراق بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص ، وكان قد خرج مع الحسين من مكة من بني أبيه وبني أخيه الحسن ، واثنان من بني عبدالله بن جعفر ونفر من بني عمه عقيل[2] ، فقتل الحسين ومن معه وأسروا النساء والصبيان ، وقيل كان قاتل الحسين سنان بن أنس بن عمرو النخعي[3] ، وكانت الرباب بنت امرئ القيس بن عدي زوجة الحسين ، فقالت ترثيه :

إنَّ الَّذي كَانَ نُوراً يُسْتَضَاءُ بهِ ... بكَرْبَلاءَ قتِيلٌ غَيْرُ مَدفُونِ
سِبْطُ النَّبيِّ جَزاكَ اللهُ صَالحِةً ... عَنَّا وجُنِّبتَ خُسْرَانَ المَوَازِينِ
قدْ كُنْتَ لِي جَبَلاً صَعْبَاً أَلُوذ بهِ ... وَكُنْتَ تَصْحَبُنَا بالرُّحْمِ والدِّينِ
مَنْ لليتَامَى ومَنْ للسَّائِلينَ ومَنْ ... يُغنى وَيأوي إليه كُلّ مِسْكِينِ
واللهِ لا أبتَغِي صِهْرَاً بصِهْرِكُمُ ... حتَّى أغَيَّبَ بَيْنَ الرَّمْلِ والطّينِ[4]

بدت مقطوعة الرباب لديها أقرب إلى باب الشكوى والعتاب للمواقف العدوانية التي نشبت بين المسلمين .

كذلك بعد مقتل الحسين ، خرجت نساء بني هاشم إلى البقيع يبكين القتلى ، فقالت زينب بنت عقيل بن أبي طالب ترثيهم :

---

(1) د. محمد حسن عبدالله ، صورة المرأة في الشعر الأموي ، ط 1 ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، 1427 هـ - 1987 م ، ص 184 .
(2) ينظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ 4 ، ص 348 - 352 .
(3) ينظر تاريخ الطبري ، جـ 4 ، ص 648 .
(4) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 16 ، ص 142 .

مَاذا تَقُولُونَ إنْ قالَ النبيُّ لكم : مَاذا فَعَلتُمْ وَأنتُمُ آخِرُ الأمُمِ ؟

بعِتْرتِي وَبأهلِي بَعْدَ مُفتقدي نصْفٌ أسَارَى وَنِصْفٌ ضُرّجُوا بدَمِ
مَا كَانَ هَذا جزَائِي إذْ نَصَحْتُ لكُمْ أنْ تخلفُوني بشرٍّ في ذوي رَحمي[1] .

وهو شعر يكشف لنا عن عمق رثائي آخر لدى الشواعر ، فيه توبيخ وحثّ المسلمين بالخروج من هذا الضلال الذي هم فيه ، ولم تأت الشاعرة بألفاظ البكاء والعويل في شعرها "ولكنه يتصف بالعاطفة التي تتفجر حزنا وبكاءً والتياعاً وتفجعاً على شهداء آل البيت من الهاشميين ، الذين لاقوا مصرعهم على يد الأمويين" [2] .

وفي سنة 62 هـ قتل عمران بن **الحارث** الراسبي ، أحد قادة الخوارج الأزارقة ، يوم د **دولاب** ، حيث التقى مع الحجاج بن باب الحميري من أصحاب عبدالله بن الزبير ، وبعد مواجهة عنيفة عدة أشهر التقى الحجاج وعمران فضرب أحدهما الآخر فوقعا ميتين ، وكان يوم دولاب بين الخوارج وأهل البصرة[3] ، فقالت أُمّ عمران ترثيه :

اللهُ أيّدَ عِمْرَانَاً وَطهّرهُ وَكَانَ عِمْرَانُ يدعُو اللهَ فِي السّحَرِ
يدعُوهُ سِرّاً وإعلاناً لِيَرْزُقهُ شَهَادَةً بيَدَيْ مِلحَادَةٍ غُدَرِ
وَلى صَحابتهُ عَنْ حَرّ مَلْحَمَةٍ وَشَدّ عِمْرَانُ كالضّرغامَةِ الذكر
أعنِي ابنَ عَمْرَةَ إذ لاقى مَنِيّتَهُ يَوم ابن باب يُحَامِي عَوْرَةَ الدُّبر[4]

---

(1) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تح قاسم الشماعي الرفاعي ، ط1 ، بيروت ، دار القلم ، 1989 م ، جـ 3 ، ص 72

(2) د. سجيع الجبيلي و د. قصي الحسين ، الفنون الأدبية في العصر الأموي ، ط1 ، بيروت ، دار مكتبة الهلال ، دار البحار ، 2005 م ، ص 279 - 280

(3) ينظرالمبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، جـ3 ، ص206 - 207 ، والأصبهاني ، الأغاني ، جـ 6 ، ص144 - 145

(4) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 6 ، ص145 - 146 ، ونايف محمود معروف ، ديوان الخوارج ، ط1، بيروت ، دار المسيرة ، 1983م ، ص28 ، وفي ديوان الخوارج (ابن ناب) .

فقد أخذت الفتنة تطل على المسلمين ، كما أخذت العصبيات القبلية تتجمع لتشعل الحرب بينهم ، واتضح ذلك في مقطوعات شواعر العصر الأموي على نحو ما قالته أم عمران فقد صورت آلام الأمة الإسلامية وفتنها .

وفي سنة 63 هـ وقعت مناوشات بين يزيد بن معاوية وأهل قريش والأنصار ، وتقاتل الطرفان قتالا عنيفا سمي ذلك اليوم بيوم الحرة[1] ، ولسارة بنت معاذ رثاء في قتلى الأنصار، قالت :

صَبَرَتْ بنو النَّجار أنفُسَهَا حَتَّى اسْتَقَرّ بقاعِهَا الضُرُبُ

قتلتهُمُ أفناءُ ذي يَمَنٍ والمُعجمونَ وألَّبَتْ كَلْبُ

وَبَنُو أمية تَحْتَ رَايَتهمْ وبنُو فَزَارَةَ مِنهُمُ رُكُبُ

آليتُ أنسى مَعْشَرِي أبداً حتَّى يزولَ بأهلِهِ الهُضُبُ[2]

في شعر سارة الذي مثل تعصب فئة دون أخرى جسم شيوع الظلم والغدر والجشع ، الذي حرك أحاسيس الشواعر وألهب مشاعرهن ، وأظهر الكثير من مفاسد العصر الأموي بسبب تلك الفتن التي قامت بين المسلين .

1ثانيا : شعر الرثاء النسائي في خلافة البيت المرواني

1 - شعرهن في خلافة مروان بن الحكم (64 هـ - 65 هـ)

في أواخر سنة 64 هـ وقعت معركة مرج راهط ، كانت بين الضحاك بن قيس وبين مروان ابن الحكم ، وكان الضحاك مع عبدالله بن الزبير بعد أن بايعه وخلع بني أمية[3] ولم يكن لأشعار الرثاء غزارة في هذه المعركة بالرغم من كثرة القتلى فيها .

وكانت موقعة مرج راهط في ظاهرها بين الأمويين وبين الزبيريين ، وإنما في حقيقتها كانت بين قبيلتي قيس وكلب ، وما يؤيد ذلك حث عميربن الحباب ـ أحد فرسان بني سليم القيسية ـ

---

(1) ينظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ4 ، ص354 - 357 ، وينظر تاريخ الطبري ، جـ5 ، ص16 - 17
(2) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص181
(3) ينظر تاريخ الطبري ، جـ5 ، ص50 - 51 ، وفيه ذكر الواقدي أنها سنة 65هـ

على أخذ ثأر قتلى المرج من كلب ، فقد أغارعليهم " ونادى يا لثأرات المرج! "[1] . فقتل منهم الكثير، فقالت هند الجُلاحية ترثي قومها وتحرضُ كلبا[2] :

ألا هَلْ ثائِرٌ بدمَاءِ قوْمٍ أصَابَهُمُ عُمِيرُ بنُ الحُبَابِ

وَهَلْ فِي عَامِرٍ يَوْمَاً نَكِيرٌ وحَيّى عَبْدِ وُدٍّ أو جَنَابِ

فإنْ لَمْ يَثأرُوا مَنْ قد أصَابُوا فكَانُوا أعبُداً لبني كِلابِ

أبَعْدَ بني الجُلاح وَمَنْ تركتُمْ بجَانبِ كَوْكَبٍ تَحْتَ التُّرَاب

تَطِيبُ لِغَائِرٍ مِنْكُم حياة ألا لا عيشَ للحيِّ المُصَاب[3]

من الشعر نلمح بداية حركة المد للعصبيات القبلية التي كانت بين القبائل في العصر الجاهلي ، التي توارت أحقادها بعد ظهور الإسلام ، ويبدو أن آثارها لازالت قائمة بينهم ، فقد اتسعت معاني الرثاء في إطار العصبيات القبلية في الشعر ومنازعات القبائل في ظل البيئة البدوية التي عاشتها بعض الشواعر .

2 - شعرهن في خلافة عبدالملك بن مروان (65 هـ - 86 هـ)

في خلافة عبدالملك بن مروان مازلنا نلتمس المشاركات الرثائية في الشعر السياسي للشواعر ، ففي سنة 71هـ قتل مصعب بن الزبير ، في إحدى المعارك التي دارت بين الدولة الأموية وأنصار الشيعة وبين الزبيريين في الكوفة ، بعد أن طعنه رجل يدعى زائدة بن قدامة ، ثم قطع عبيد الله بن زياد رأسه ثأرا لأخيه النابيء بن زياد[4] ، فكان لزوجته سكينة بنت الحسين رثاء بكت فيه زوجها ومن قبله أباها الحسين ، قالت :

---

(1) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، جـ 3 ، ص 190 .
(2) ينظر الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 24 ، ص 27 .
(3) الموضع نفسه .
(4) ينظر تاريخ الطبري ، جـ 5 ، ص 262 .

فإنْ تقتُلُوهُ تقتُلُوا المَاجِدَ الذي ... يَرَى المَوْتَ إلا بالسُّيُوفِ حَرامَا
وقبلَكَ مَاخَاضَ الحُسَيْنُ مُنيَّة ... إلى القوْمِ حتَّى أوردُوهُ حِمَاما[1] .

هذا الموقف على قلة الشعر الذي دون لسكينة ، يكشف لنا عن شدة تفجعها على قتل أبناء الصحابة الكرام من قبل إخوانهم المسلمين ، وقد " دخل نساءٌ من أهل الكوفة إلى سُكَيْنَة بنت الحُسين يعزينها في زوجها مُصعب فقالت : لا جَزَاكُمُ الله خيراً يا أهل الكوفة أيتمتموني صغيرة ، وأرملتموني كبيرة "[2] .

وتزداد اللوحة الرثائية في شعر النساء بشاعة حين تصف أسماء بنت أبي بكر الصديق مصرع ابنها عبدالله بن الزبير ، وقد قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بعد أن حاصره في مكة سنة 73هـ ، وكان عبدالله يواجه الأمويين وأنصارهم من القبائل العربية الأخرى[3] ، وقبل موته قال لأمه "... فإن هلكت فلا يشتد جزعك علي ، فإن ابنك لم (يتعمد) ببغي على ايثار دينه عملاً بفاحشة ، ولم يسع بغدر ، ولم يجر في حكم ، ولم يكن شيء أكبرَ عنده من رضا ربه ، اللهم إني لا أقول هذه تزكية لنفس ؛ أنت أعلم بي ، ولكني أقولها تعزية ، ليسلى عني "[4] ، وبعد موته قالت أسماء :

لَيْسَ للهِ مُحْرِمٌ بَعْدَ قوْمٍ ... قُتِلُوا بَيْنَ زَمْزَمٍ والمُقَامِ
قَتَلتهُمْ جُفاة عَكٍّ ولَخْمٍ ... وَصُداءٍ وَحَمْيرٍ وَجُذَامِ[5]

فقد بكت أسماء بنت أبي بكر الصديق ابنها عبدالله واصفة بذلك الصراع الذي نشب بين المسلمين في تلك الفترة ، وذكرت في شعرها عدة قبائل رأت أنها قد ساهمت في مقتل ابنها ، يبين شدّة العداوة التي كانت بين القبائل العربية .

وفي سنة 85هـ قتل الشاعر توبة بن الحمير فرثته ليلى الأخيلية بأشعار كثيرة جمعت في

---

(1) الحصري ، زهر الآداب ، جـ 1 ، ص 102 .
(2) التوحيدي ، البصائر والذخائر ، جـ 1 ، ص 535
(3) تاريخ الطبري ، جـ 5 ، ص 286
(4) المدائني ، التعازي ، جـ 1 ، ص 47 - 48
(5) ابن طيفور، بلاغات النساء ، ص183 .

ديوانها ، ولكثرتها سنختار منها بعض الأبيات في رثاء توبة بحكم التتبع التاريخي للشواعر في هذا البحث ، فالشاعرة قد أفردت لحياتها وشعرها بحوث مستقلة وضحت خصائص شعرها بصورة منفردة لوجود ديوان لها (*) ، قالت ليلى ترثي توبة :

لِتَبْكِ العَذارَى مِنْ خفاجة كُلّهَا شِتَاءً وَصَيفاً ذَائِبَاتٍ وَمَرْبَعَا
عَلى نَاشِيءٍ نَالَ المَكَارمَ كُلّها فَمَا انْفَكّ حَتّى أحْرَزَ المَجْدَ أجمَعَا (1)

وقالت :

... ...
وَنِعْمَ الفتى ياتَوْبَ كُنْتَ لخائِفٍ أتاكَ لِكي يُحمَى وَنِعْمَ المجامِلِ
ونعم الفتى ياتَوْبَ جَاراً وَصَاحِباً وَنِعْمَ الفتى ياتَوْبَ حِين تُفاضِلِ(2)

وقالت :

ياعَيْنُ بَكّي بدَمْع دَائِمِ السّجمِ وَأبْكِي لتَوْبَةَ عِنْدَ الرّوْعِ والبهم
عَلى فَتىً مِنْ بَنِي سَعْدٍ فُجِعْتُ بِهِ مَاذا أجنّ بِهِ فِي الحُفرَةِ الرّجم
مِنْ كُلّ صَافِيةٍ صِرْفٍ وَقَافِيةٍ مِثْلِ السّنَانِ وَأمرٍ غَيْرِ مُقتَسم
وَمُصدرِحِينَ يُعيي القَوْمَ مصدرهُم وَجَفنَةٍ عِنْدَ نَحْسِ الكَوْكَبِ الشّبم (3)

وشعر ليلى في رثاء توبة كثير وتكفي هنا هذه اللوحة لتؤكد شاعريتها التي نالت استحسان العديد من النقاد والرواة ، فقد ظهرت في جل قصائدها أحاسيسها المرهفة في التصوير ، وعبر رثاؤها عن شعورها الصادق ولوعتها الحقيقية تجاهه.

(*) للشاعرة ليلى الأخيلية دراسة عن حياتها وشعرها ، قامت بها الباحثة ربيعة أبو القاسم الواعر بعنوان (الرثاء بين الخنساء وليلى الأخيلية) .
(1) ديوانها، تح خليل إبراهيم العطية وجليل العطية ، بغداد ، دار الجمهورية ، 1397هـ - 1977 م ، ص 86 ، وابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 171 .
(2) ديوانها ، ص 93 .
(3) ديوانها ، ص115 ، الشّبم : البارد

3ـ شعرهن في خلافة الوليد بن عبدالملك (86 هـ - 96 هـ)

ظلت الأبعاد السياسية مسيطرة على الشعرالرثائي لدى نساء العصر الاموي ، وما زالت أصوات النساء الشواعر تتردد بشعر خرج بين التفجع والاستنكار على النحوالذي مرّ بنا في رثاء نساء الخوارج والشيعة ، الذي واكب الأحداث الكبرى التي شهدها عصر الخلفاء الأمويين ، فقد قتلَ عاملُ الوليد بن عبدالملك عثمانُ بن حيان ، بهدلَ بن قِرْفة الطائي ، بعد أن حبسته طيئ ونفته إليه [1] ، فقالت ابنته :

فيَاضيعَة الفِتيان إذ يعتِلُونَه ببَطنِ الشَّرَى مِثلَ الفَنيق المُسَدَّم
دعا دعوة لَما أتَى أرضَ مالك ومن لا يُجب عند الحَفيظة يَسلَم
أما كانَ في قيسٍ مِنْ ابن حفِيظةٍ مِنَ القومِ طَلَّابُ التِّراتِ غشمشَم
قيقُتلُ صَبْرَاً بامرِيءٍ لَمْ يَكُنْ بهِ بَوَاءً وَلَكن لا تَكَايُل بالدَّم[2]

جسدت الشاعرة في أبياتها الصراعات السياسية في العصر الأموي ، والنزاعات التي دارت بين المسلمين فيما بينهم .

4 - شعرهن في خلافة يزيد بن عبدالملك (101 هـ - 105 هـ)

تكاد خيوط الشعر التي مدنا بها تراثنا القديم من أشعار النساء أن تنقطع في عهد يزيد ، إلا من بعض الأبيات التي قيلت من قبل بعض الشواعر ، ففي عهد يزيد ، حُكي عن قصة عاشقين في المدينة ، وحين وفاة العاشق الذي لم يتمكن من الزواج بابنة عمه ، رثته قائلة :

عَدَانِي أنْ أزورك يا حَبيبي مَعَاشِرُ كُلّهُمُ وَاشٍ حَسُودُ
أشَاعُوا مَا سَمِعْتَ مِنَ الدّوَاهِي وَعَابُونَا وَمَا فِيهِم رَشِيدُ
وَأمّا إذ ثَوَيْتَ اليَوْمَ لَحْدَاً فَدُورُ النّاس كُلّهُمُ لحُودُ
فلا طابت لي الدنيا فواقاً ولا لهم ولا أثرى العبيد[3]

---

(1) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ21 ، ص 243
(2) نفس المصدر ، جـ 21 ، ص 245
(3) أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، تح محمد الإسكندراني ، ط1 ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1414هـ ، 1994م ، جـ4 ، ص413 .

ثالثا : شعـر الرثـــاء النسائي في خلافة آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد (127هـ - 132 هـ)

ازدادت وفرة القصائد والمقطوعات الرثائية عند النساء في عهد آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد في الحروب التي نشبت بين الأمويين وبين بعض القبائل العربية .

فقد قامت بين ـ أحد القادة ـ الضحاك بن قيس الحروري وبين بعض الخوارج [1] حروب تقاتل فيها الفريقان وفي إحدى هذه الحروب سنة 129هـ قتل الضحاك بعد أن التقى بمروان بن محمد بكفرتوتا من أرض الجزيرة [2] فقامت نساء بني شيبان يرثين الضحاك ومن كان معه من ذويهن ، قالت غزالة الحرورية :

مَنْ لقلبٍ شقَّهُ الحَزَنُ ... وَلِنَفسٍ مَالَهَا سكَنُ
ظَعَنَ الأبرارُ فانقلبُوا ... خَيْرَهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ ظَعَنُوا
مَعشَرٌ قضَّوا نُحوبَهُمُ ... كُلُّ مَا قدْ قدَموا حَسَنُ
صَبَرُوا عِنْدَ السِّيوفِ فلم ... يَنْكُلوا عَنْهَا ، ولا جُبنُوا
فِتية بَاعُوا نُفُوسَهُم ... لا ـ وربِّ البيت ـ مَا غُبنُوا
فأصابَ القَوْمُ مَا طلبُوا ... مِنَّةً ، ما بعدها مِنَنُ[3]

عبرت المرأة بهذه الأبيات عما كانت تحسه تجاه ذويها ، والبوح بما تعانيه من ألم يعتصر فؤادها ، وإزاء هذه الجودة في التعبير ، قال باحث "... وعلى قلة النساء في صفوف الخوارج ، إذ كانت حياتهم قلقة كثيرة المخاطر، فإننا لم نعدم بعض المقطوعات تقولها امرأة لم تعرف الشعر، ولكن عواطفها تحركت لتسجل مناسبة مستفزة أو تعبر عن انفعال جياش" [4] .

وقالت مُلَيْكَة الشيبانية في رثاء الضحاك بن قيس وأصحابه :

---

(1) ينظر الجاحظ ، البيان والتبيّن ، جـ1 ، ص342 - 343
(2) ينظر تاريخ الطبري ، جـ6 ، ص301 - 302
(3) نايف محمود معروف ، ديوان الخوارج ، ص 239 - 240 .
(4) محمد حسن عبدالله ، صورة المرأة في الشعر الأموي ، ص 257 .

قُولِي مُليكَ : عَلَيْكِ بالصَّبْرِ تستوجبين فُضَائِلَ الأجْرِ
قُولِي - فإنَّكِ غيْرُ كاذِبَةٍ يا عُدَّتِي لِنَوائِبِ الدَّهْرِ
أوْرَثْتَنِي كَمَداً يُؤرِقُنِي وتلهُّفاً وحَرارةَ الصَّدرِ
ومَرَارةً فِي العَيْشِ دائِمةً وحَرَارةً كَحَرَارَةِ الجَمْرِ
دْهَبَ الذي قدْ كَانَ يَأمُرُنا بالخَيرِ والمعروفِ والذِّكرِ[1]

ظهرت الحرقة واضحة في أبيات مليكة وهي ترثي الضحاك بلغة الرثاء المعبرة عن شدة الحزن ، ولمليكة رثاء في عمها قالت فيه :

أصَبَرْتُ عَنْ عَمِّي الذي قدْ كَانَ بالمَعْرُوفِ آمِرْ ؟
أصَبَرْتُ عَنْ عَمِّي الذي كَانَ المُؤَمِرِ والمُؤَازِرْ ؟
إخوانُهُ النَّفَرُ الشُّرا ة ذُوُو الفضِيلةِ والبصَائِرْ
يا عَمُّ كُنتَ لِسَانَ قوْ مِكَ حِينَ يَجْتَمِعُ المَعَاشِرْ
فَلا بَكيْتُكَ بالغَداةِ وبالأصَا ئِـــــلِ والهَـــــــوَاجِرْ
ولئَنْ بَكِيتُ لَقد رُزِئْـ تُ بفارسٍ بَطلٍ مُغاورْ[2]

وهذه المقطوعات من شعر الشواعر الخارجيات تمثل المعاني الذائبة فيها ، فهو نموذج يصورحياة الأمة الإسلامية في آخر العهد الأموي ، فقد ورد في شعرهن نعوت تتصل علاقتها بالدين وتميزالطوائف الدينية ، والذي يميزأدب الخوارج " تخير للفظ ، وقوة في السبك ، وفصاحة في الأسلوب "[3] ، وقد ضم ديوان الخوارج لنايف محمود معروف جملة من أشعارنساء الخوارج ، وقد لاقت النساء من الظلم والغبن الشيء الكثير ، نتيجة تشتت المسلمين وتعصب كل حزب لمذهبه وتمسكه بالأفكار والاعتقادات التي شب عليها أفراد تلك الفرق ، وفي رثاء مليكة محاولة لذكر أفكار الخوارج وإصرارهم على الدفاع عن مبادئهم المتمثلة في حب الموت والسعي إليه ولها عدة مقطوعات في ديوان الخوارج منها ما قالته في رثاء عمها :

مَا بَالُ دَمْعكِ يا مُليكة جَارِي أمْ مَا لِقلبكِ لا يقرُّ قرَار ؟

(1) نايف محمود معروف ، ديوان الخوارج ، ص 26
(2) نفس المصدر ، ص203
(3) أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص264.

أم مَا لِنَفسِكِ لَيْسَ يَسكُنُ حُزنُها	ليلاً وَلَيسَ نَهَارُها بنَهَار ؟
جزعَاً على مَنْ كَانَ يَجْمَعُ شَملنَا	وَنَعِدّهُ لنوائِبٍ وعِثَار
لَو كُنتُ أملِكُ دفعَ ذلِكَ لم تكُنْ	يا عَمِّ بَيْنَ نضائدٍ وَغُبار
ألقيتُ جِلبابي لِعِظمِ رَزِيّتِي	وَبَرَزْتُ سَافرةً بغير خِمَار
زُرْتُ المَقَابرَ كَي أسَلِّيَ عَبْرَتِي	هَيْهَاتَ مِمَّن زُرتُ بعد فِرار
فلتبكِ المَوالي وطالب حَاجةٍ	عند العِشاء وكُلُّ ضيفٍ طاري
أينَ الذين إذَا ذكرتَ فِعالهُمْ	عُرفوا بحُسنِ عفافةٍ ووقار ؟
أينَ الذين إذَا ذكَرنَا دِيْنَهُمْ	قالتْ عشائِرُهم : هُمُ الأخيَارُ[1]

ومن هنا ومن الظروف العصيبة التي شهدها المجتمع الإسلامي كانت المحاولة في استجلاء صور الصراع وأثر الحياة السياسية في شعر الرثاء لدى نساء العصر الأموي ، ومدى الحرص على المشاركات في رصد قضايا الصراع الذي أتاح للدولة الأموية القضاء على ثورات العلويين وإخمادها ، وإن كانت الشواهد مقطوعات قلائل ، إلا أنها ظلت شاهدة على الألم والقهر الذي لحق بالأمة الإسلامية ، إذ أن شعرهن واكب تلك الأحداث فاتسم بحزن أعمق على أبناء أمة واحدة متفرقة ، وكان اختيارالرواة لشعرالرثاء النسائي محصورا في رثاء المناسبات والأشخاص المشهورين ، فشواعرالخوارج مثلا "... عرفن من خلال ذويهن ، فأم حكيم كانت مع زعيم الأزارقة قطري بن فجاءة ، ... وأم عمران الراسبي هي والدة أحد قادة الأزارقة "[2] .

(1) نايف محمود معروف ، ديوان الخوارج ، ص202 ، وفي الأبيات إقواء وهو عيب قافوي .
(2) نايف محمود معروف ، الخوارج في العصر الأموي ، ط 2 ، بيروت ، دارالطليعة ، 1401 ، 1981م ، ص250

المبحث الثالث:

آراء النقاد حول تأثرالشواعر بالإسلام

أولاً : تأثير الإسلام في شعر الرثاء عند الشواعر

ثانياً : اختلاف آراء الباحثين حول تأثير الإسلام في شعر النساء

أولاً : تأثير الإسلام في شعر الرثاء عند الشواعر

بعد هذه الدراسة لشعر الرثاء عند النساء في العصر الإسلامي يتبين أن تأثير الإسلام في شعر النساء المسلمات كان أعمق عند الشواعر المخضرمات القريبات من الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء بصلة القرابة التي تربطهنَّ به أو بحكم النشأة القريبة منه عليه الصلاة والسلام أو من أهل بيته الكرام من الصحابيات اللائي تأثرن بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه .

وقد انجلى هذا التأثير في شعر النساء في الغزوات الأولى التي قامت بين المسلمين والمشركين ، قالت امرأة عثمان بن مظعون ترثيه وقد استشهد في غزوة بدر :

يا عَيْنُ جُودي بدَمْعٍ غَيْر ممنُون عَلَى رزيَّة عثمَان بن مظعون
على امرىء بَاتَ فِي رضوان خالِقِهِ طوبى له مِنْ فقِيدِ الشّخْص مَدفون[1] .

فزوجها لم يمت بل هو حيٌّ يرزق عند الله ، قال تعالى :{ **ولا تَقُولُوا لِمَنْ يّقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ أمْوَاتٌ بَلْ أحْيَآءٌ وَلكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (153)}**[2] ، وقد تأثرت الشاعرة بهذه المعاني السامية للقرآن الكريم .

كذلك نلمح تأثير الإسلام في معركة أحد عند الشواعر اللائي رثين الشهداء ، لفظاً ومعنى كقول صفية بنت عبدالمطلب في رثاء أخيها حمزة :

دعاهُ إلهُ الحقِّ ذو العَرْشِ دَعْوَةً إلى جَنَّة يَحْيَا بهَا وَسُرُور
فذلكَ مَا كُنّا نُرجى ونرتجى لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرُ مَصِير[3]

وعد اللهُ المجاهدين في سبيله جنات عدن ، قال تعالى : {**إنّ الّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّلحِتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنّتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً (102) خَلِدِينَ فيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (103) }**[4].

---

(1) اليافعي ، مرآة الجنان ، ص 5 - 6 .
(2) سورة البقرة ، آية 153 .
(3) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 167
(4) سورة الكهف ، آية 102 - 103

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم رثته ابنته فاطمة رضي الله عنها ، قالت :

أغبَرّ آفاقُ السَّمَاءِ وَكُوّرَتْ شَمْسُ النَّهار ، وأظلمَ العَصْرَان[1]

آخذة قوله تعالى : **{ إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وإذَا النّجُومُ انكَدَرَتْ (2) }[2]** .

وهذا ما قالته صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم في رثائه :

إنَّ يَوْمَاً أتَى عَلَيْكَ لَيَوْمٌ كُدّرَتْ شَمْسُهُ وَكَانَ جَلِيًّا[3]

ثم أخذت بالمعنى قوله تعالى **:{يأيُّهَا المُدَّثِّرُ(1) قُمْ فَأنذِرْ(2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3) وَثِيَابَكَ فَطهِّرْ (4)}[4]** **فقالت :**

عَيْنُ جُودِي بدَمْعَةٍ تَسْكَاب للنَّبيِّ المُطهَّرِ الأوَّاب
فَاتِحِ خَاتِمٍ رَحِيمٍ رَؤُوفٍ صَادِقِ القِيلِ طيبِ الأثوَاب[5]

ومما جاء من أثر الإسلام في شعرها قولها :

فلو أنَّ ربَّ النَّاس أبْقَاكَ بَيْنَنَا سَعِدنَا وَلكنْ أمْرُنَا كَانَ مَاضِيا
عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلامُ تحيَّةً وأدخِلتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيا[6]

لقوله تعالى :**{ إنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّلِحَتِ أوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيئَةِ (7) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا أبَداً رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ(8)}[7] ، وقولها :**

---

(1) ابن سيد الناس ، منح المدح ، ص 358 .
(2) سورة التكوير ، آية 1 - 2 .
(3) الأصبهاني ، الزهرة ، جـ 2 ، ص 35 .
(4) سور المدثر ، آية 1 - 4 .
(5) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 329 .
(6) نفس المصدر، جـ 2 ، ص 326 .
(7) سورة البينة ، آية 7- 8

وسِرَاجَاً يَهْدِي الظلامَ مُنِيراَ وَنَبيّاً مُسَـــوّدَاً عَرَبِيـــّـــا[1]

قوله تعالى :{ * تَبَرَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً (61)}[2]

كما جاء تأثيرالإسلام في شعرعاتكة بنت عبدالمطلب في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

فَادْهَبْ حَمِيداً جَزَاكَ اللهُ مَغْفِرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَالنَفخ فِيالصّور[3]

آخذة **قوله تعالى : { وَيَوْمَ يُنفخُ فِى الصُّورِ فَفزِعَ مَن فِى السَّمَوَتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ وَكُلٌّ ءاتُوهُ دَخِرِينَ (89)}[4] .**

أما في عصر الخلفاء الراشدين ، فقد استمر ورود أثر الإسلام في بعض قصائد الشواعر في رثاء الصحابة ، ففي خلافة أبي بكر الصديق ذكرت عاتكة بنت زيد لفظة الجهاد وطلب الصبر حين رثت عبدالله بن أبي بكر، فقالت :

فللّهِ عَيْنَاً مَنْ رَاَى مِثلهُ فتىً أكرَّ وأحمَى في الجِهَادِ وَأصْبَرَا[5]

وهذا عزاء يمنح المؤمن طمأنينة ، ويجعله يتحلى بالصبر ، فالموت حقٌّ لكل الأحياء ، وقد وجدت الخنساء عزاء في الصبر حين قالت :

وَلَكِنَّي وَجَدْتُ الصَّبرَ خَيْرَاً مِنَ النعلين والرَّأسِ الحَلِيق
ألا هَلْ تَرْجِعَنّ لنا الليالي وأيَّامٌ لنا بِلِوَى الشَّقِيق[6]

فعلى المسلم أن يتحلى بالصبر ويحتسب الأجر في مواجهة مصائب الحياة ، وهذا ما ذكرته حفصة بنت عمر بن الخطاب في رثاء أبيها :

أكظمُ الغلة المخالطة القَلْـ ـبِ وأعزّى وفي القرآن عزائِي[7]

---

(1) الأصبهاني ، الزهرة ، جـ2 ، ص35
(2) سورة الفرقان ، آية 61
(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ2 ، ص326
(4) سورة النمل ، آية 89
(5) المدائني ، المردفات من قريش ، ص62
(6) ديوانها ، ص103
(7) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص30 .

فالقرآن الكريم هو البلسم الشافي للقلوب المؤمنة ، بورود آيات الصبر والعزاء فيه ، وفي ذلك تخفيفاً لمن يعاني آلام الحزن والفقد .

وقالت امرأة شِعْرَ رثاء تذكر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم :

قدْ كُنْتَ قوَّامَاً بَكِيّ الأسْحَار يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالمَنَايا أطوَارْ[1]

آخذة قوله تعالى عن عباده القائمين بالأسحار قياماً وسجوداً ، وهو ما كان يقوم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عبادة ومناجاة لله عزَّ وجلَّ ، **قال تعالى : { الصّبرينَ والصّدِقِينَ والقَنِتِينَ والمُنفِقِينَ والمُسْتَغْفِرِينَ بالأسْحَار(17) }**[2] .

وحثت الجُعْفِيَّة زوجة عمرو بن مَعْدِ يَكْرِب قومَها على التماس الصبر من الله ، فقالت :

فإنْ تَجْزَعُوا لا يُغن ذلِكَ عنكُمُ ولكنْ سَلوا الرّحمن يُعْقبكُمُ صَبْرا [3] .

آخذة **قوله تعالى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُم بشيءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَتِ وَبَشِّرِالصَّبرينَ (154) الذِينَ إذَا أصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قالُوا إنّا لِلهِ وَإنّا إلَيْهِ رَجِعُونَ (155)}**[4]

وفي بداية خلافة علي بن أبي طالب ، وبظهور الانقسام بين المسلمين لتفرقهم إلى شيع وأحزاب ، فإن شعر الرثاء اتّخذ مَنْحنىً آخر جراء الصراع والتفرقة ، نتيجة اللهث وراء أفكار منحرفة عملت على تمزيق وحدة المسلمين .

وبعد الوقوف على القصائد التي قيلت في عهد علّي يلاحظ أنها باتت تسيطر عليها أحداث الفتن التي مروا بها ، ولكن هذا لا ينفي وجود التأثر بالإسلام من قبل بعض الشواعر، كما في شعربنت خزيمة بن ثابت :

---

(1) محمد يوسف الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، جـ2 ، ص376
(2) سورة آل عمران ، آية 17 .
(3) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 15 ، ص225 .
(4) سورة البقرة ، آية 154 - 155 .

قتَلُوا ذَا الشَّهادَتِين عُتُوّاً أدْرَكَ اللهُ مِنْهُم بالتِّرات[1]

قوله تعالى : { *وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أنزلَ عَلَيْنَا المَلَئِكَةُ أوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِى أنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً (21)}[2].

وعلى هذا ، فإن الرثاء كان قد واجه الصراع النفسي في آخر عهد الخلفاء الراشدين ، باستثناء ما ورد في شعر النساء من أساليب قرآنية كانت شاهدة على أثر الإسلام في شعرهن .

أما الرثاء في ظل الخلافة الأموية ، فإنه كاد أن يكون صورة أخرى للرثاء الجاهلي عند بعض الشواعر لما لاقته من معاناة وظلم أمثال هند بنت زيد وسارة بنت معاذ وغيرهن ، ولا نبعد كثيراً حين نذكر أن شعرالرثاء الذي قيل في أواخر الدولة الأموية ظل يرضخ تحت ظلال النعرة العصبية ، وكأن المواقف صدمت تفكيرالشواعروشتتها، وقد ظهرت بوضوح في شعر الرثاء عند غزالة الحرورية ومليكة الشيبانية .

ومن الشعرالذي تأثر بالمباديء الإسلامية قول الرباب بنت امرىء القيس في رثاء الحسين :

إنَّ الذي كَانَ نُوراً يُسْتَضَاءُ بهِ بكرْبلاءَ قتِيلٌ غيْرُ مَدْفون
سِبْطُ النبيِّ جزاكَ اللهُ صَالِحَةً عَنَّا وجُنِّبتَ خُسْرَانَ المَوَازين[3]

من **قوله تعالى : { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (5) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (6) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(7) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (8)}[4] .**

والجدير بالذكر أن بعض القصائد ، وإن لم تذكر فيها الألفاظ القرآنية فإنها تضمنت معاني قيم الإسلام ، كما في شعر زينب بنت عقيل ، وأسماء بنت أبي بكرالصديق وسكينة بنت الحسين ، أما عند البعض الآخر فإن الرّثاء كان يبتعد كثيراً عما قالته بعض الشواعر في العصرالإسلامي .

---

(1) ابن أبي حديد ، شرح نهج البلاغة ، جـ 8 ، ص 42 .
(2) سورة الفرقان ، آية 21.
(3) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ16 ، ص142
(4) سورة القارعة ، آية 5 - 8

ثانيا : اختلاف آراء الباحثين حول تأثير الإسلام في شعر النساء

للنقاد آراؤهم حول تأثر الشاعرات بالإسلام ، فمنهم من يرى أن الرثاء في حقبة صدر الإسلام تضمن تعاليم الدين الجديد بعيداً عن القيم والعادات الموروثة في العصر الجاهلي[1] ، ولكن لا يمكن التسليم بهذا الرأي ، لأن الرثاء النسائي في فترة الخضرمة كان يتفاوت في قوة تأثير الإسلام عليه عند بعض الشواعر المسلمات ، فقد كان الشعر خليطاً بين البداوة وما فيها من حوشية وأنماط شعرية ـ لم تتمكن النساء من الحياد عنها ـ وبين الشعر الذي تجاوب مع تعاليم الإسلام في روحه وبواعثه .

أما الرثاء الذي واكب الروح الإسلامية في ألفاظه ومعانيه فهو الذي قيل في ميادين الجهاد وكان زاخراً بالمعاني الإسلامية وارتبط الحديث عن المثل التي نادى بها الإسلام بما فيها الدفاع عن الدين وبذل النفس في سبيل الله ، وقال إبراهيم النعانعة في دراسته لشعر قبيلة غطفان " فالشعر المخضرم جاهلي في أصله ، ولكنّ فيه خصائص جديدة منها : تطور في اللغة ، ورقّة في الألفاظ ، وهذا ناتج عن التأثير الإسلامي في شعر هذه القبيلة "[2] .

ويؤكد السيد تقي الدين أثر الإسلام في الشعر عند الشعراء فيقول : " وهنا يجب أن يقف المؤرخ والأديب وقفة طويلة فيدرك أثر الإسلام في تحويل النفس العربية من الجزع إلى الصبر ومن الظلام إلى النور فلا شك أن الابن أعز من الأخ ولكن الأخ حين قتل تقبلت مصرعه نفس جاهلية حساسة فتقبلته بالجزع والعويل ... أما اليوم فقد عمر الإيمان قلبها وعلمت أن الجهاد باب من أبواب الجنة وأن موتى المسلمين مثواهم الجنة ... هذا لون من ألوان التحوُّل ... الذي أحدثه الإسلام في النفس العربية فإذا بها تحرص على الموت في سبيل الله لا في سبيل القومية والعصبية "[3].

---

(1) ينظر محمود حسن أبوناجي ، الرثاء في الشعر العربي ، ط2 ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1402هـ ، ص111

(2) إبراهيم عبدالرحمن النعانعة ، شعرغطفان في الجاهلية وصدر الإسلام ، ط1 ، عمّان ، دار جرير ، 1428م - 2007هـ ، ص262

(3) من أدب الجاهليين والإسلاميين ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، (د . ت) ، ص 139 - 140 .

والبعض الآخر يرى أن الرثاء في معانيه ظل على ما كان عليه في العصر الجاهلي عند شواعر الإسلام[1] ، ويُعزى عدم تأثرهن عند أحدهم إلى "... أن شعرهن في أكثره قد تناول جانباً خاصاً وهو رثاء الشهداء ، وندب الموتى ، والبكاء على صرعى المسلمين ، ومن الطبيعي أن لا تظهر في هذا المجال النزعة الدينية واضحة بارزة ، وضوحها عند الشعراء من الرجال ، الذين طرقوا موضوعات أعم وأشمل وفيها حيوية وتمثيل لوجهة نظر المسلمين "[2] .

ويذهب آخر إلى أن أشعار الخنساء في الرثاء لم يظهر عليها أي تأثير بالإسلام[3] ، وقد بنى رأيه هذا على حياة الخنساء التي عاشتها في بكاء لم ينقطع على أخويها ، فظن أن الشاعرة ظلت بعيدة عن الأجواء الإسلامية ، ولكن هذا الظن الذي ذكره لا يمكن الركون إليه ، لأن ديوان الخنساء فيه العديد من القصائد التي تحمل الروح الإسلامية وفيها وقفات تغيرت بها أساليب الرثاء عند الخنساء .

ويزعم أحد المستشرقين أن "... الميل للفخر وعجز الشاعر المتأصل في مقاومة دوافعه يفسران تأثير الإسلام الخفيف في موضوعات الرثاء ، ولا ريب في أنه كان على الشاعر أو الشاعرة التخلص من أثر الماضي ... "[4] .

وكان رأي أحد الباحثين أن التأثير الحقيقي للإسلام كان عند الشعراء الذين كانوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد تأسوا بأخلاقه وبمباديء الإسلام ، في حين لم يظهر هذا التأثير في شعر الشواعر الذي قيل في الشهداء المجاهدين في الحروب ، واستشهد على ذلك بشعر هند بنت أثاثة في رثاء عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب حين قالت :

لقدْ ضُمِنَ الصفراءُ مَجْدَاً وَسُؤدُدَا وَحِلمَاً أصِيلاً وَافِرِ اللُّبّ والعَقل[5]

---

(1) ينظر د. أحمد كمال زكي ، شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، 1389هـ - 1969 م ، ص 208 .
(2) يحيى الجبوري ، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، ص 107 .
(3) ينظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة خنساء ، (د . ب) ، المطبعة العربية ، (د . ت) ، جـ 8 ، ص 466 .
(4) بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، جـ 2 ، ص 328 .
(5) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 41 .

ثم ذكر أن خلو قصيدتها هذه من التعابير الدينية ، يعود إلى أنها لم تكن قد أسلمت حين نظمها لهذه الأبيات ، أو أنها لم تنصهر مع العقيدة الإسلامية[1] .

تلك كانت آراء بعض الدارسين في معرفة حقيقة تطورالرّثاء عند الشواعر في صدرالإسلام ، والكيفية التي نظمت بها المخضرمات من الشواعر القصائد الرثائية .

وعلى الرغم مما ذكر من آراء ، فإن المتمعن في شعر النساء المسلمات في بداية ظهور الإسلام يجد أن عدداً من الشواعر قد جاءت قصائدهن على النمط الجاهلي في استخدامهن للألفاظ والمعاني والأساليب ، لعل البعض منهن لم تتحرر من النظم المتعارف عليه في عصرها ، فبجانب هند بنت أثاثة نجد جملة من الشواعر منهن أم سعد بن معاذ ، نعم بنت سعيد ، أم سلمة ، جاءت أبياتهن على شاكلة الشعر الجاهلي ، وهو يعود لقدرة الشاعرة ومدى تأثير الإسلام على الشواعر القريبات من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لاسيما في الشعر الرثائي ، فقصائد هند بنت أثاثة في رثاء رسول الله وعلى الرغم من مرور السنوات في تلك الحقبة ظلت على ما كانت عليه في بداية الدعوة ، وسارت هند بنت الحارث وعاتكة بنت زيد على الطريق نفسه في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبجانب هذه القصائد التي خلت من التعابير الإسلامية ، كانت هناك قصائد أخرى لبعض الشواعراتَّسمت بنوع خاص يناسب أحداث الدين الجديد في فترة مبكرة ، لاسيما عند الشواعر من قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في شعر ابنته فاطمة وعماته أروى وصفية وعاتكة رضى الله عنهن .

هكذا كانت مرثيات النساء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما في عصر الخلفاء الراشدين ، فإن شعر الرثاء لديهن لم يتميز على سابقه من الشعر في شيء ، ففي خلافة عمر بن الخطاب ، جاءت أبيات أم خالد بن الوليد وعفراء بنت عقال جاهلية الأسلوب والألفاظ والمعاني وكذلك أبيات نائلة بنت الفرافصة في رثاء عثمان بن عفان ، ثم رثاء عاتكة بنت زيد في الزبير بن

(1) ينظر عبدالرحمن خليل إبراهيم ، دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1971 م ، ص 297 - 298 .

العوام ، ويكاد شعر ابنة عمر بن يثربي وأخت الأشتر أن يكون شعراً جاهلياً خالصاً بما فيه من شبه كبير بينه وبين شعر النساء في العصر الجاهلي ، بالإضافة إلى ما قالته جويرية بنت قارظ في رثاء ابنيها ؛ لأن مقطعات هؤلاء النسوة تمثل شعر البداوة الذي ظل في كثير من جوانبه بمنأى عن الإسلام .

ومما سبق يظهر أن الرثاء في شعر النساء بعضه واكب الإسلام في تعاليمه وكاد أن ينسلخ عن موروثات الشعرالرثائي الجاهلي والبعض الآخر توارى عن مواكبة التطور الذي جاء به الدين الإسلامي .

الفصل الرابع:

الخصائصُ الفنية في شعرالرّثاء عند الشواعر في العصرين الجاهلي والإسلامي

المبحث الأول: الأساليب

أولاً : الصورة الشعرية

ثانياً : وحدة الموضوع

ثالثاً : المطالع

أولاً : الصورة الشعرية

يتناول هذا المبحث دراسة الصورة الشعرية في شعر الرثاء النسائي ، وكيفية التعبير عمّا يدور في مخيلة الشواعر من انفعالات وعواطف ، وكيف تم توظيفها في البيئات المختلفة على مرّ العصرين الجاهلي والإسلامي ، وكيف تم اعتماد الشواعر رسم الصورة على التشبيهات والاستعارات والكنايات بما يحدد ملامح تلك البيئات التي عايشتها المرأة .

إذا أمعنا النظر بحثاً عن الصورة الشعرية في شعرهن ، نجدها لا تكاد تختلف كثيراً عند النساء الشواعر سواء في الجاهلية أو الإسلام ؛ لأن التعبير عن المشاعر لدى النساء ، ما كان إلا من البيئة المحيطة بهن ، ومن الملاحظ كثرة استخدام الشواعر للصور الحسية من الطبيعة والبعد عن الخيال ، وقد اتخذت الشاعرة من النماذج المحسوسة مثالاً لتجسيد مكانة المرثي في أشعار الرثاء .

1- التشبيه :

يمثل التشبيه واحداً من أجمل مراتب الإبداع الفني في الشعر" والتشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها : تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهُه به حركةً ، وبطؤا [*] (كذا) وسُرعة ، ومنها تشبيهه به لوناً ، ومنها تشبيهه به صوتاً .

وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض ، فإذا اتّفق في الشيء المشبه بالشيء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه وتأكد الصدق فيه ، وحسن الشعر به للشواهد الكثيرةالمؤيدة له "[1] وعلى هذا يكون " التشبيه : صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته "[2]

(*) الصواب : بطء أ .
(1) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، تح طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، (د . ط) ، (د. ب) ، (د . ن) ، 1956 م ، ص 17
(2) ابن رشيق ، العمدة ، جـ 1 ، ص 286 .

نجد في قول جليلة بنت مرة حركة استطاعت العبارة الشعرية تمثيلها لنا على أفضل وجه ، قالت :

وَرَمَانِي قتْلُهُ مِنْ كَثَبٍ رمْيَةَ المُصْمى بِهِ المُسْتَأصَل[1]

وتصورلنا دختنوس بنت لقيط بن زرارة فرار أعدائها خوفاً من قومها ، وقد شبهتهم بسر عة حركة الطائر وركض الفأر قالت :

فَرّتْ بَنُو أسَدٍ فِرَا رَ الطّيْر عَنْ أربَابِهَـا
وَهَوَازنٌ أصحَـــابُهُمُ كَالفَــأر فِي أذنَابِهَــا[2]

وشبهت جنوب أخت عمرو ذي الكلب مشي النسور بمشي العذارى وهن يمشين في أمان ، قالت :

تَمْشِي النُّسُورُ إليه وَهيَ لاهِيَة مَشْيَ العَذَارَى عَلَيْهِنَّ الجَلابيبُ [3]

وقد أكثرت الشواعرمن التشبيه التمثيلي فشبهن المرثي بكل ما يحمل من معاني القوة ، واتخذن من محيطهن شواهد على ما يصورعمق الحدث خير تصوير ، فهذه ميّة بنت ضرار تصور القوة الجسدية لأخيها وهو يطعن الخصم ، قالت :

الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ كَأنَّهَا قَبَسٌ باللَّيل مَسْعُورُ[4]

وربما كانوا أسوداً في ساحات القتال ، تقول ريطة بنت عاصم :

كَأنَّهُمْ تَحْتَ الخَوَافق إذ غدوا إلى المَوْتِ أسدُ الغَابَتَيْن الهَوَاصِر[5]

وقول أم حكيم بنت عبد المطلب :

وَلَيْثاً حِينَ تَشْتَجِرُ العَوَالي **تَرُوقُ لهُ عُيُونُ النَّاظِرَاتِ[6]**

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ1 ، ص171
(2) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ1 ، ص525 .
(3) ديوان الهذليين ، جـ 3 ، ص 126 .
(4) البحتري ، الحماسة ، ص 434 .
(5) أبوتمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 460 .
(6) ابن هشام ، مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 171 .

ومن جانب آخر اتخذت بعض الشواعر من الحيوان الأليف نموذجاً لهجاء الأعداء أو تعيير أبناء قومهن بالتخاذل والجبن ، فكان التشبيه بالكائن الذي يتسم بالضعف ، ومن ذلك ما قالته كبشة بنت معد يكرب :

فَإنْ أنْتُمُ لم تَثْأرُوا واتَّديْتُمُ فَمَشُّوا بآذانِ النَّعَامِ المُصَلَّمِ[1]

وعيرت بنت حكيم بن عمرو العبدي قومها حيث شبهتهم بدميمات المعزى ، فقالت :

وَقولُوا رَبيعٌ رَبّكم فاسْجُدوا لَهُ فَمَا أنتُمُ إلا كَمِعْزَى الجَبَلَّق[2]

ومن التشبيه التمثيلي في شعر النساء ، تشبيه أم بسطام ابنها وسط قومه بالهلال وهم كنجوم السماء قالت :

لِيَبْكِ ابنَ ذي الجدَّين بكرُ بنُ وائلٍ فقدْ بَان مِنْهَا زَيْنُهَا وجَمَالُهَا
إذَا مَا غَدا فِيهِم غَدوا وكأنّهُمُ نُجُومُ سَمَاءٍ بَيْنَهُنَّ هِلالُهَا[3]

أما جنوب الهذلية ، فإن أخاها كان هلالا في دجى الليل وشمسا في النهار ، قالت :

وَكَنْتَ النّهَار به شَمْسُهُ وَكُنْتَ دُجى اللَّيل فيه الهلالا[4]

ومن التشبيه الذي اختصت به النساء ، تشبيه دموعها وقد انحدرت في ألم فتكونت وأخذت شكلاً من أشكال الأحجار الكريمة التي تتزين بها النساء ، ونجد ذلك في قول تخمر بنت قُصَي بن كلاب :

فَنَعَى المُهَذَبَ مِنْ لؤيّ كُلّها فانْهَلَّ دَمْعِي كالجُمَان المفرَد[5]

فدموع الشاعرة انحدرت على وجهها كحبات الجمان المفرد وهو يتقاطر دون انقطاع منها ، وقريب من ذلك قول صفية بنت عبد المطلب وقد فاض دمعها انحدارا :

---

(1) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 71 .
(2) البحتري ، الحماسة ، ص 35 .
(3) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ 1 ، ص 551 .
(4) ديوان الهذليين ، جـ 3 ، ص 123 .
(5) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 1 ، ص 53 .

فَفَاضَتْ عِنْدَ ذٰلِكُمُ دُمُوعِي عَلَى خَدِّي كَمُنْحَدِرِ الفَرِيد[1]

فالشواعر يتجهن إلى هذه اللغة التشبيهية إذا ما أردن تصوير حزنهن بما يتسق مع آلام واقعهن النفسي المرير .

وفي عصر صدر الإسلام ظلَّ استخدام التشبيه عند الشواعر كما كان عليه في العصر الجاهلي لاسيما عند الشواعر اللائي بقين على الشرك في السنين الأولى من البعثة ، كما في شعر هند بنت عتبة التي تشبه المشركين وهم يهجمون على المسلمين كأنهم الأسد في قوتهم وبطشهم :

والحَرْبُ تَعْلوكم بشُؤْبوبٍ بَرد تُقْدِم إقداماً عَلَيْكُم كالأسَد[2]

ونجد عمرة بنت مرداس تحن حنين البعير تحسراً حين سمعت نعي أخيها ، وأرادت أن تعبر عن حزنها وجزعها لمقتله ، قالت :

أعَيْنيّ لَمْ أخْتِلْكُمَا بخِيَانَةٍ أبى الدَّهْرُ والأيّامُ أنْ أتَصَبَّرَا
وَمَا كُنْتُ أخشى أنْ أكُونَ كَأَنَّني بَعِيرٌ إذَا يُنْعى أخَيَّ تَحَسَّرَا[3]

وقد شبهت فاطمة رضي الله عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بالبدر ، قالت :

قدْ كُنْتَ بَدْرَاً وَنُورَاً يُسْتَضَاءُ بهِ عَلَيْكَ تُنْزَلُ مِنْ ذي العِزَةِ الكتُبُ[4]

وشبهت صفية بنت عبدالمطلب قلبها بمن أصابه الرعب من شدة ألم الفراق للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت :

أوْرَثَ القَلْبَ حُزْناً طويلاً خَالَط القَلْبَ فُهْوَ كالمَرْعُوب[5]

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ 1 ، ص 170 .
(2) نفس المصدر ، جـ 1 ، ص 92 .
(3) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 1 ، ص 458 .
(4) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 332 وفيه نُسبت الأبيات لهند بنت أثاثة والذي يظهر أنها لفاطمة الزهراء .
(5) نفس المصدر ، جـ 2 ، ص 327 .

وفي عهد الدولة الأموية أخذ التشبيه يتأثر بالأحداث التي كان وقعها شديداً بين المسلمين ، فالشاعرة هند بنت زيد ترسم صورة تشبيهية لحجر بن عدي وهو يساق إلى القتل ، قالت :

ألا ليْتَ حُجْراً مَاتَ مَوْتاً وَلَمْ يُنْحَرْ كَمَا نُحِرَ البَعِيرُ[1]

وللشاعرة ليلى الأخيلية العديد من التشبيهات وضح فيها التأثر بالبيئة من حولها ، وقد أتى ابن طباطبا بتشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة في قول ليلى الأخيلية :

قوْمٌ ربَاطُ الخَيْلِ وَسْطَ بُيُوتِهِمْ وَأسِنَّةٌ زُرقٌ يُخَلْنَ نُجُومَا[2]

فيظل التشبيه من الأساليب الشعرية التي ترد كثيراً في شعر الشعراء من الرجال والنساء ، وتظل هذه التشبيهات دلائل تصبغ على الممدوح ، يقول الجاحظ :

" وقد يشبّه الشعراءُ والعلماءُ والبلغاءُ الإنسانَ بالقمر والشمس ، والغيثِ والبحر، وبالأسد والسيف ، وبالحيَّة وبالنَّجم ، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدِّ الإنسان "[3] .

2- الاستعارة

وبعد تلك التشبيهات في شعر النساء في رسم الصورة الحسية من البيئة ، تستوقفنا صور أخرى من الاستعارات تنم عن عمق القدرة لدى الشواعر في تجسيد تلك المحسوسات في عالم المرأة ، وتمكنها من تصوير حزنها بلغة الاستعارة " وهي من محاسن الكلام إذا وقعت مَوْقِعَهَا ، ونزلت موضعها ، والناس مختلفون فيها : منهم من يستعير للشيء ما ليس منه ولا إليه ، ... ومنهم من يخرجها مخرج التشبيه "[4] ، ومن التوظيف الاستعاري للصورة ما نجده عند أميمة بنت أمية حين قالت :

أبى لَيْلُكَ لا يَذْهَبْ وَنِيطَ الطَّرْفُ بالكَوْكَبْ
أحَالَ عَلَيهِمُ دَهْرٌ حَدِيدُ النَّابِ والمِخْلَبْ[5]

فاستعارت للدهر بعضاً من صفات الحيوان المفترس .

---

(1) تاريخ الطبري ، جـ4 ، ص664.
(2)عيار الشعر ، ص 56 - 58
(3) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، تح عبدالسلام محمّد هارون ، بيروت ، دار الجيل ، (د . ت) ، جـ 1 ، ص 211 .
(4) ابن رشيق ، العمدة ، جـ 1 ، ص 268 - 269 .
(5) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 22 ، ص 74 .

ولتسبغ أم بسطام على ابنها معاني الشجاعة وقت الحرب ، رأت في ابنها بناء حصيناً عالي المكانة لا يُهد فقالت :

عَزِيزُ المِكَرِّ لا يُهَدُّ جَنَاحُهُ وَلَيْثٌ إذَا الفِتْيَانُ زَلَّتْ نِعَالُهَا[1]

ومن الاستعارات التي جاءت بها شواعر صدرالإسلام قول نعم بنت سعيد :

يا عَيْنُ جُودِي بفَيْضٍ غير ابْسَاس عَلَى كَرِيمٍ مِنَ الفِتْيَان أبَاس[2]

فقد استعارت الشاعرة لفظ الإبساس الذي يعني المسح على ضرع الناقة لدرّ اللبن ، فعيونها تبكي بدموع غزار كلما تذكرت فقيدها دون حاجة للإبساس .

أما في العصر الأموي ، فإن الرثاء النسائي واكب الأحداث بما فيها من مذاهب متصارعة فيما بينها ، منها قول هند بنت زيد :

أخَافُ عَلَيْكَ ما أرْدَى عَدِيًّا وَشَيْخَاً في دِمَشْق لَهُ زَئِيرُ[3]

إذ تجعل هند لوالي دمشق زئيراً تشبيهاً له بالأسد الذي يرهبه الناس .

3- الكناية

يقول الجرجاني :

" والمراد بالكناية ... أن يريدَ المتكلم إثباتَ معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه / فى الوجود ، فيوميء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ... "[4]

وجاء في شعر النساء كنايات تعبر عن رؤية خاصة في رسم صورة التقارب بين الموجودات وبين ما تشعر به المرأة من تشابه في الصفات المادية والمعنوية للأشياء من حولها ، ومن ذلك قول

---

(1) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ 1 ، ص 376 .
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 168 .
(3) تاريخ الطبري ، جـ 4 ، ص 664 .
(4) عبدالقاهربن عبدالرحمن محمد الجرجاني النحوي ، دلائل الإعجاز ، تح محمود محمد شاكر ، ط 3 ، القاهرة ، مطبعة المدني ، 1413 هـ - 1992 م ، ص 66 .

أميمة بنت أمية :

أَبَى لَيْلُكَ لا يَذْهَبْ وَنِيط الطرْفُ بالكَوْكَبْ
وَنَجمٌ دُونَهُ الأَهْوَا لُ بَيْنَ الدَّلْوِ والعَقْرَبْ[1]

في البيت الأول تكني الشاعرة بتعلق طرفها بحركة الكواكب والنجوم ، عن السهر والأرق وطول الليل ثم تذكر أن النجم لا يكاد يبرح مكانه وأن الليل لا ينجلي .

وقول سعدى الجهنية :

أمِنَ الحَوَادث والمَنُون أَرَوَّعُ وَأبيتُ لَيْلِي كُلَّهُ لا أَهْجَعُ
وَأبيتُ مُخليةً أبكِّي أسْعَداً وَلِمثلهِ تبكي العُيُونُ وتَهْمَعُ
مُتَحلِّب الكَفَّين أَمْيَثُ بارعٌ أَنِفٌ طُوالُ السَّاعِدين سَمَيْدَعُ[2]

متحلب الكفين : كناية عن كثرة الجود والعطاء الوفير وطول الساعدين كناية عن الشجاعة والكرم ، ومنها قول مية بنت ضرار :

ما باتَ مِنْ لَيْلَةٍ مُذْ شدّ مِئْزَرَهُ قبيصَة بنُ ضِرَارٍ وهو مَوْتُورُ[3]

شدّ مِئزَرَهُ : كناية عن استعداده للحرب وملاقاة العدو .

أما الكناية عند شواعر العصر الإسلامي ، فإنها أتت مناسبة لحالات الحزن والأسى عند الرثاء ، لاسيما في عصر الدولة الأموية .

وفي صدر الإسلام نجد الكنايات تستخدم للتعبير عن عوز المرثي والحديث عن كرمه للأحياء وهو ما عرف عند الجاهليين في رثائهم لأن بعض النساء الحديثات العهد بالإسلام بكين الشهداء كما كن يبكين ذويهن في الجاهلية حيث إن الرثاء كان يكثر فيه المدح والفخر على عادة الكثير من الشعراء ، ومن ذلك قول هند بنت أثاثة حين عبرت بالمستنبح كناية عن الضيف الطارق ليلاً :

---

(1) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 22 ، ص 74 .
(2) الأصمعي ، الأصمعيات ، ص 101 .
(3) البحتري ، الحماسة ، ص 434

لَقدْ ضُمِنَ الصَّقْراءُ مَجْدَاً وسُؤْدداً وَحِلْماً أَصِيلاً وَافِرِ اللُّبِّ والعَقْل
لِطارق لَيْلٍ أو لِمُلْتَمِسِ القِرَى وَمُسْتَنْبح أضْحَى لَدَيْهِ على رسْل[1]

أما الشواعرالائي تأثرن بالإسلام فقد اختلفت كنايتهن عن كناية شواعر العصر الجاهلي ، كقول فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أغْبرَّ آفاقُ السَّمَاءِ وكُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَار وَأظْلَمَ العَصَران
يا خَاتِمَ الرُّسْلِ المبارك ضَوْؤهُ صَلَّى عَلَيْكَ مُنْزِّلُ الفُرقان [2]

فإن منزل الفرقان : كناية عن ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى .

وقول نائلة بنت الفرافصة ترثي عثمان بن عفان :

أيَا قبْر النبيِّ وصاحبيه عذيري إنْ شكوتُ ضِياعَ ثوْبي[3]

ضياع الثوب : كناية عن فقد الزوج .

فلم تختلف أساليب الشواعر في استخدامهن للكنايات إلا في بعض الأبيات التي تميزت بالأسلوب الإسلامي ، وعند البعض من الشواعر تبالغ النساء في مدح المرثي مثلما يفعل بعض الشعراء ، حتى أن الواحد منهم" ... لا يتقيد بالإطار الواقعي لشخصية المرثي وإنما ينحو إلى رسم الصورة المثالية له[4] .

ثانياً : وحدة الموضوع

يمكن القول إن السبب في وحدة الموضوع عند النساء الشواعر يعود إلى طبيعة المرأة التي جبلت عليها ، فليس لائقاً بها أن تبدأ القصيدة أوالمقطوعة بالغزل والحديث عن الأطلال كما كان يفعل الشعراء الرجال ، إذ أن العادات والتقاليد على حد سواء في الجاهلية والإسلام لا تسمح لها

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 41 - 42 .
(2) فخر الدين النجفي ، المنتخب في المراثي والخطب ، ص 18 .
(3) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 72 .
(4) حسني عبدالجليل يوسف ، الإنسان والزمن في الشعر الجاهلي ، ص 79 .

بذلك ، ثم أنها وإن وصفت في شعرها ، فإن الوصف يكون مقتصراً على المرثي وما يتصل به ، ولم يكن المجال متاحا للمرأة بالقيام بالرحلات التي خاضها الشعراء ووصفوا من خلالها ما شاهدوه في تنقلاتهم المستمرة ، فالنطاق الذي كانت تعيش فيه الشاعرة نطاق ضيق جدا ، وهو ما جعل شعرها يكاد ينعدم فيه الخيال ولا سبيل لها إلا وصف ما اعتادت على رؤيته في الإطار المحدود لحياتها ، وهذه المحدودية لم تكن عند المرأة في جاهليتها فقط ، بل ظلت ملازمة لها في كل العصور ، وهو أمر بديهي وفطري بالنسبه لها ، لاسيما إذا كانت من البدو .

فقد كانت لبعض الشواعر قصائد اشتملت على عدة أغراض شعرية في قصائد الرثاء كأن تأتي في بعض شعرها بالمدح والهجاء والفخر والحكمة مجتمعة في قصيدة واحدة ويظل الموضوع واحداً لا يتعدى معاني الرثاء ومن ذلك قول سعدى بنت الشمردل الجهنية ترثي أخاها أسعد بن مجدعة الهذلي :

أمِنَ الحَوادثِ والمَنُون أروَّعُ ... وَأبيتُ لَيْلِي كُلَّهُ لا أهْجَعُ
وَأبيتُ مُخْلِيَةً أبَكِّي أسْعَداً ... ولِمِثْلِه تَبْكي العُيونُ وَتَهْمَعُ
وَتَبَيَّنُ العَيْنُ الطَّليحَةُ أنَّها ... تَبْكي مِنَ الجَزَعِ الدَّخِيلِ وَتَدْمَعُ

وبعد هذا الرثاء جاءت بأبيات عن الحكمة فقالت :

وَلَقد بَدا لي قَبْلُ فِيمَا قَدْ مَضَى ... وَعَلِمْتُ ذَاكَ لَوْ أنَّ عِلْماً يَنْفَعُ
أنَّ الحَوادِثَ والمَنُونَ كِلَيهِمَا ... لا يُعْتِبَان وَلَوْ بَكَى مَنْ يَجْزَعُ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأنَّ كُلَّ مُؤَخَّرٍ ... يَوْماً سَبيلَ الأوَّلِينَ سَيَتْبَعُ
وَلَقَد عَلِمْتُ لَوْ أنَّ عِلْماً نَافِعٌ ... أنْ كُلُّ حَيٍّ ذَاهِبٌ فَمُوَدَّعُ
أفَلَيْسَ فِيمَنْ قَدْ مَضَى ليَ عِبْرَةٌ ... هَلَكُوا وَقَدْ أيْقَنْتُ أنْ لَنْ يَرْجِعُوا

وفي أبيات أخرى تفتخر بقومها وتصف مصرعهم على أيدي أعدائهم فتقول :

وَيل امِّ قتلى بالرّصافِ لَو انَّهم ... بَلغوا الرَّجاءَ لِقومهم أو مُتِّعوا
كَمْ منْ جَميعِ الشَّمل مُلتئمِ الهَوى ... كانُوا كذَلكَ قبلهم فتصدّعُوا
فلتبكِ أسعدَ فِتيةً بسَبَاسِبٍ ... أقووْا وأصبَحَ زَادُهُم يُتمزَّعُ

ثم تأتي في قصيدتها بأبيات للفخر ومدح بالمرثي فتقول :

جادَ ابنُ مِجْدَعَةَ الكَمِيُّ بنَفْسِهِ ... ولقدْ يَرَى أنَّ المَكَرَّ لأشْنَعُ
ويلمِّهِ رجلاً يُليدُ بظهرهِ ... إبلاً ونسَّالُ الفيافِي أرْوَعُ
يَردُ المياهَ حضيرةً ونفيضَةً ... ورْدَ القطاةِ إذا اسمَألَّ التُّبعُ
وبه إلى أخرى الصِّحابِ تلفُّتٌ ... وبه إلى المَكْرُوبِ جَريٌ زَعزعُ
ويكبِّرُ القِدْحَ العُنُودَ وَيَعْتَلِي ... بألى الصِّحابِ إذا أصاتَ الوَعْوَعُ
سبَّاقُ عاديةٍ وهادِي سُرْيَةٍ ... ومُقاتلٌ بَطَلٌ وداعٍ مِصْقَعُ
ذُهَبَتْ بهِ بَهْزٌ فأصْبَحَ جَدُّهَا ... يَعلو وأصْبَحَ جَدُّ قوْمِي يَخْشَعُ

وتستنكر في أبيات آخرى قتل أخيها فتقول :

أجعلتَ أسعدَ للرِّماح دَريئة ... هَبَلَتْكَ أمّكَ أيَّ جَرْدٍ تَرقعُ
يا مُطْعِمَ الرّكبِ الجِّياع إذا هُمُ ... حَثُّوا المطيَّ إلى العُلى وَتَسَرّعُوا
وتجاهدُوا سَيْرَاً فبعضُ مَطِّيهِمْ ... حَسْرَى مُخلّفة وبعضٌ ظُلَّعُ

ثم تبدأ في مبالغة المدح والثناء على أخيها فتقول :

جَوّابُ أوديةٍ بغير صَحَابَةٍ ... كشّافُ داويِّ الظلامِ مُشيّعُ
هذا على إثر الذي هُو قبْلَهُ ... وهيَ المَنَايا والسَّبيلُ المَهْيَعُ
هذا اليقينُ فكيفَ أنسَى فقدَهُ ... إن رَابَ دَهْرٌ أو نَبَا بيَ مَضْجَعُ
إن تَأتهِ بَعْدَ الهُدوءِ لحاجةٍ ... تَدعُو يُجِبْكَ لها نجيبٌ أرْوَعُ
مُتَحَلِّبُ الكفَّين أميثُ بَارعٌ ... أنفٌ طُوَالُ السَّاعدين سَمَيْدَعُ
سَمْحٌ إذا ما الشَّوْلُ حَارَدَ رسْلُهَا ... وَاسْتَرْوَحَ المَرَقَ النِّساءُ الجُوّعُ
مَنْ بَعْدَ أسعدَ إذ فجِعْتُ بيومهِ ... والمَوْتُ ممَّا قدْ يَريبُ وَيَفْجِعُ
فوَدِدْتُ لو قُبلَتْ بأسْعَدَ فِدَيةً ... ممَّا يضنُّ به المُصابُ المُوَجَعُ
غادرْتَهُ يَوْمَ الرِّصافِ مُجَدّلاً ... خَبرٌ لَعَمْرُكَ يَوْمَ ذَلِكَ أشْنَعُ[1]

فمع ما تحمله قصيدتها من وصف ومدح وفخر وحكمة مع الرثاء فإن الفكرة هي ندب الميت وتعدد مناقبه ولا تفارق إطار الرثاء ، وهذا ما وجدته عند جلّ الشواعرفي الجاهلية والإسلام

ثالثاً : المطالع

تشابهت مطالع شعر الرثاء لدى المرأة ، فكانت تبدأ قولها في أكثر شعرها بمخاطبة العين وحثها على البكاء ، فالدّمع هو أول شيء يدل على الرّثاء ومن ذلك فهي تارة تذكر في مطلع الشعر بكاء العين وتارة تحثها على ذرف الدموع والبكاء وقد جاء ذلك عند الكثير من الشواعر في الجاهلية والإسلام ، تقول أروى بنت عبد المطلب وهي ترثي أباها :

(1) الأصمعي ، الأصمعيات ، ص 101 - 104 .

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقّ لها البُكَاءُ عَلَى سَمْحٍ سَجِيّتُهُ الحَيَاءُ[1]

وقول الشفاء بنت هاشم :

عَينُ جُودِي بعَبْرَةٍ وَسُجُومِ واسْفحِي الدّمْعَ للجوادِ الكريمِ[2]

وقول الخنساء ترثي أخاها صخراً

يا عَيْنُ مَالكِ لا تبكينَ تَسكابا؟ إذ رَابَ دَهْرٌ وكانَ الدّهْرُ ريَّابا[3]

وقول سبيعة بنت عبد شمس :

أعينيَّ جُودا على المُطَّلِب بوبلٍ وماءٍ لهُ مُنسكب[4]

وقول أم حكيم بنت عبد المطلب :

ألا ياعينُ جُودِي واستهلّي وبكّي ذا النَّدَى والمَكُرمَات[5]

وقول عاتكة بنت عبد المطلب :

أعينيّ جُودَا وَلاتبخلا بدَمْعِكُمَا بَعْدَ نوْمِ النيام[6]

ولم تتغير المطالع في قصائد ومقطعات الشواعر في العصر الإسلامي سواء في ذلك عند الشواعرالمسلمات أو الشواعر اللائي كن على الشرك في صدر الإسلام ، وظلت المرأة تذكر العين وتحثها على البكاء كقول هند بنت عتبة :

أعينيَّ جُودا بدَمْعٍ سَرب عَلَى خَيْرِ خندف لَمْ يَنْقَلِبْ[7]

وقول صفية بنت مسافر :

يامَنْ لِعَيْنٍ قذَاهَا عَائِرُ الرّمَد حَدُّ النَّهار وقَرْنُ الشّمْس لَمْ يَقِد[8]

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 ، ص 173 .
(2) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ1 ، ص60
(3) ديوانها ، ص7
(4) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص187
(5) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق1 ، ص171
(6) الموضع نفسه
(7) نفس المصدر ، ق2 ، ص38
(8) نفس المصدر ، ق2 ، ص40

بكت هاتان الشاعرتان قتلاهما في غزوة بدر، وفي معركة أحد بكت نعم بنت سعيد تحث عينها على البكاء فقالت :

ياعَيْنُ جُودِي بدَمْعٍ غَيْرِ إبْسَاسِ عَلَى كَرِيمٍ مِنَ الفتيان أبَّاس[1]

وقول أم سلمة :

يا عَيْنُ بَكِّي للوليـــــد بن الوليد بن المغيرة[2]

وقول صفية بنت عبد المطلب ترثي الرسول صلى الله عليه وسلم :

عَيْنُ جُودِي بدَمْعَةٍ تَسكَاب للنبيِّ المُطهَّر الأوَّاب[3]

وقول عاتكة بنت زيد في رثاء عمر بن الخطاب :

عَيْنُ جُودِي بعَبْرَةٍ وَنَحِيب لا تَمَلَّي عَلَى الإمام النَّجيب[4]

وقول امرأة في رثاء أولادها الثلاثة قتلوا يوم الجمل :

أعينيَّ جُودا بدَمْع سَرب عَلَى فِتيَةٍ مِنْ خيار العَرَب[5]

وقول ضبيعة بنت خزيمة ترثي أباها وقد قتل في صفين :

عَيْنُ جُودِي عَلَى خزيمة بالدَّمْـ ـع قتيل الأحْزَاب يَوْمَ الفرات[6]

أما في العصرالأموي فقد تضاعف الحزن ؛ للأمور المستحدثة فيه ، فابتدأت النساء الشواعر بمخاطبة العين تحثها على مزيد من الدّمُوع ، ومن ذلك قول هند بنت زيد :

دُمُعُ عَينِي دِيمَةً تقطرُ تَبْكِي عَلَى حُجْرٍ ولا تفتُرُ[7]

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق2 ، ص168
(2) الواقدي ، المغازي ، جـ 2 ، ص 629 .
(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 329 .
(4) المدائني ، المردفات من قريش ، ص 63 .
(5) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، جـ 2 ، ص 343 .
(6) ابن أبي حديد ، شرح نهج البلاغة ، جـ 8 ، ص 42 .
(7) تاريخ الطبري ، جـ 4 ، ص 500 .

المبحث الثاني : المعجم اللغوي

أولاً : الألفاظ

ثانياً : الاستفهام الاستنكاري

ثالثاً : من الاستفهامية

رابعاً : حرف الاستفتاح والتنبيه

خامساً : الضرورات الشعرية

سادساً : الحوار الشعري

سوف نتابع في هذا المبحث المحيط المعجمي اللغوي الذي تتحرك داخله الشاعرة الراثية في جاهليتها وإسلامها ؛ لنتبين مدى الاختلاف الذي طرأ على لغتهن من خلال شعر الرثاء ، وما الحوار الشعري الذي تحدثت به الشواعر؟ ، وما التعابير التي استخدمت عند الحزن ؟، وهل كان للنساء أسلوب خاص في إبداء عواطفهن؟ ، وهل تقاربت الألفاظ والمعاني في أشعارهن ؟ ، حتى نقف على بعض خصائص الرثاء عندهن فيما يتعلق بالكيفية التي سار عليها الشعر النسائي في هذا الغرض الشعري .

وعن القاموس اللغوي في الرثاء قيل إن هناك ما يسمى بالأنيما وهي الخصائص الأنثوية وبالأنيموس وهي الخصائص الذكورية [1] " ومن خصائص الأنيما أن تبرز إلى السطح مفردات خاصة منها الحزن والضيق والخوف والجزع واللهفة والاحساس بالفقد ، والأرق والهموم ، والتوجع وما يصاحب ذلك من الندب والولولة والعويل وشق الجيب وحلق الرأس ولطم الخد "[2] ، والغالب على النساء سيطرة الجزع والخوف على نفوسهن ، ولا يجدن سبيلاً لتخفيف حزنهن إلا بذرف الدموع في كثير من مواقف الحياة .

أما التعابير ، فقد تختلف بحسب الأوضاع من ألفاظ يتحدث بها الراثي في شعر الرثاء عند نزو ل المصائب ، فتأتي أكثر حرقة وأشد ألماً في ذكر ما يصاب به حين يأتيه نعي من كان يُعنى برثائه ، وأخرى تأتي في صورة تأبين مواساة لغيره رغبة منه في مشاركة الآخرين أحزانهم ، وقد تأتي للرد على الآخرين حين يلوم الناس الراثي على رثاء الميت والحزن عليه ، ففي الرثاء كما في التعزية تعابير يقولها المعزي الراثي تخفيفاً عن مصابه ومصائب الآخرين ، وبالنظر إلى شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الجاهلي والإسلامي يتضح مسار اللغة لديهن .

أولاً : الألفاظ

تدور أشعار النساء في معجمها اللغوي في شعر الرثاء حول ما يناسب هذا الغرض من ألفاظ عن الموت والفراق والنواح ووصف اللحد ، وفي الجاهلية كانت لغة الشواعر أكثرغرابة وحوشية وفيها من الألفاظ البدوية الكثير التي عبرت بها المرأة من خلال البيئة الصحراوية القاسية ،

(1) ينظر مصطفى الشوري ، شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، ص 242
(2) الموضع نفسه

وفي بداية صدر الإسلام كانت لا تزال اللغة عند البعض منهن كما كانت عليه في العصر الجاهلي وقد تغيرت فيما بعد تدريجياً حتى أصبحت لغة سهلة سلسلة بعيدة عن التعقيد تحمل ألفاظاً إسلامية واضحة الدلالة لتصل في العصر الأموي إلى أبعد مدى في السهولة والوضوح باستثناء الشواعر الائي عشن في البادية وظلت ألفاظهن أقرب إلى لغة الجاهلية .

والصيغ المسيطرة في شعر الرثاء عند النساء الحديث عن القبر وأحجاره ، وهو ما تردد بكثرة في شعرهن من باب تصوير معاني الموت وأثره في حياتهم ، فتزيد الصورة من تأثير المشهد في نفس السامع لهذا الرثاء ، ومنه قول أميمة بنت عبد المطلب :

سَقاهُ وليُّ النَّاس في القبْر ممطراً فسَوف أبكيه، وإنْ كَانَ في اللحد[1]

فالشاعرة لن تنسى أباها وستظل على ذكراه والبكاء عليه حتى وإن واراه التراب .

ونجد مثل هذه التعابير في شعر النساء في صدر الإسلام ، ومن ذلك قول أروى بنت عبدالمطلب في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

أفاطِمَ صَلَّى اللهُ ربُّ مُحمَّدٍ على جَدَثٍ أمْسَى بيثربَ ثاويا[2]

فاللغة الرثائية بدت واضحة في شعر النساء ويطول بنا الحديث إذا أردنا الاستشهاد بما ورد في أبياتهن من تلك الألفاظ والتعابير التي تختص بذكر الموت والقبر والمعاني الأليمة التي تقاسيها الراثية .

ثانياً : الاستفهام الاستنكاري

من أكثر الأساليب ترددا في شعر النساء ما نجده من صيغ الاستفهام الاستنكاري ، كرد فعل سريع للمواقف التي استوقفت الشواعر لبعض الأمورالتي تصدر من الآخرين وتؤلم مشاعرهن ، على طريقة سعدى بنت الشمردل حين تساءلت كيف يجعل قاتل أخيها من أخيها أسعد حلقة لرمي الرّماح ويخرق ثوباً يصعب ترقيعه ، وقد كان أخوها الفارس الذي لا يغلب فقالت :

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق1 ، ص 173 .
(2) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 325 .

أجَعَلتَ أسعدَ للرِّمَاح دَرِيئَةً؟ هَبلتكَ أمُّكَ أيُّ جَرْدٍ تَرقعُ[1]

وكذلك تستنكر بنت حكيم العبدية على قومها عدم أخذ الثأر لأبيها ، فكيف سيعود وقد أطبق عليه القبر قالت :

أيرجُو رَبيعٌ أنْ يؤوبَ ؟ وَقدْ ثَوَى حُكِيمٌ وَأمسَى شِلوُهُ بمُطبَق[2]

ونجد هند بنت عتبة وهي تستقصى أركان فخرها بأبيها بين قومه قالت :

أبَعْدَ قتِيلٍ مِنْ لُؤي بنِ غالِبٍ يُراعُ امروٌ إنْ مَاتَ أو مَاتَ صَاحِبهْ؟[3]

وتقول أخت الأشتر النخعي :

أبَعْدَ الأشتر النّخعِيِّ نَرجُو مُكاثرةً ونَقطعُ بَطنَ وادِ[4]

فبعد الراثي تفقد الحياة معناها وقيمتها عند الشواعر ، بسبب خطوب الزمن ، وكأن الراثية لا ترى المحاسن إلا في القتيل الذي ترثيه .

ثالثاً : مَنْ الاستفهامية

استخدمت الشواعر (**مَنْ**) الاستفهامية استجابة لإلحاح النفس التي لا تكف عن بكاء ذوي المحامد ، والنساء بطبيعة الحياة التي عايشها الإنسان وعان قسوة ظروفها ، تولد لديهن شعور عميق بالابتعاد الحتمي الذي ينشأ بين المعوزين وبين من كان يعولهم من أصحاب السيادة في القبيلة " فهذا الاستفهام يكشف عن حيرة الشاعر الحقيقية أو النموذجية عند رثائه عزيزاً أو عظيماً ، فالإنسان النافع لابد أن يمثل خسارة جسيمة في قومه حين يفقدونه "[5] ، تقول الخنساء :

---

(1) الأصمعي ، الأصمعيات ، ص 101 .
(2) البحتري ، الحماسة ، ص 35 .
(3) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 ، ص 39 .
(4) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، جـ 2 ، ص 340 .
(5) حسني عبدالجليل يوسف ، الإنسان والزمن في الشعر الجاهلي ، ص 80 .

وَمَنْ لِكُربة عَانٍ في الوثاق ، ومَنْ يُعطي الجزيلَ على عُسرٍ وميسُور[1]

فالخسارة جسيمة لفقد من تبكيه ، وقد كان يفكّ وثاق الأسرى ويعين المعوزين في الشدة والرخاء حتى أن لا أحد يقوم مقامه كما تقول :

مَنْ ذا يَقُومُ مَقامَهُ بَعْدَ ابن أمِّي إذ رُمس[2]

وقول أميمة بنت عبد المطلب :

وَمَنْ يُؤلِفُ الضَّيفَ الغَريبَ بُيوتَهُ إذا مَا سَمَاءُ النَّاس تَبخلُ بالرَّعْدِ[3]

وقول امرأة نائحة :

فَمَنْ للمَنَابر والخافِقاتِ وَللجودِ بَعْدَ زمَامِ العَرَبْ
ومَنْ لِلعُناة وَحَمْلِ الدِّياتِ وَمَنْ يفرجُ الكَرْبَ حِينَ الكُرَبْ
ومنْ للطعاةِ غَدَاةَ الهياج وَمَنْ يَمْنَعُ البيضَ عِندَ الهَرَبْ[4]

رابعاً : حرف الاستفتاح والتنبيه

من الشواعر من بدأن شعرهن بحرف الاستفتاح والتنبيه (**ألا**) مثلما فعلت صفية بنت مسافر في رثاء قومها قالت :

ألا يا مَنْ لِعَينٍ للتْ تَبكِّي دَمعُهَا قان[5]

تستفتح الشاعرة المقطوعة الشعرية بألا التنبيهية وكأنها تقول لمَنْ تركت بعد قتل قومها .

ومنه قول جويرية بنت قارظ في رثاء ولديها :

ألا مَنْ بيَّنَ الأخويـ ـن أمُّهُما هِيَ الثَّكْلى[6]

وكثير هوحرف الاستفتاح (ألا) في مطالع شعر النساء الشواعر .

---

(1) ديوانها ، ص65 .
(2) نفس المصدر، ص86 .
(3) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 ، ص 172 .
(4) المبرد ، التعازي والمراثي ، ص 301 - 302 .
(5) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق 2 ، ص 40 .
(6) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 16 ، ص 265 .

خامسا : الضرورات الشعرية

ورد في شعر المرأة تخفيف الحروف للضرورات الشعرية ، إذ تحاول عرض الموقف الرثائي وتصويره بما يناسب وقدرة الشاعرة على الإبداع ، تقول عاتكة بنت عبدالمطلب في رثاء أبيها :

وَسَهْلِ الخَلِيقَةِ طلق اليدين وفٍ عُدْمليٍّ صَميمٍ لهَام[1]

حيث جاءت عندها لفظة وفٍ بدل وفِي .

ومن التخفيف أيضا ما ورد في شعر سعدي بنت الشمردل :

وَيُكبِّرُ القِدحَ العَنُودَ وَيَعتلى بألى الصِّحَاب إذا أصَاتَ الوَعْوعُ[2]

وردت لفظة ألى مخففة من أولى .

وفي المقابل أتت الشواعر ببعض الزيادات في الحروف والحركات ومن ذلك ما قالته قتيلة بنت النضر بن الحارث :

أمحمَّدٌ يا خَيْرَ ضِنءِ كَرِيمَةٍ فِي قَوْمِهَا والفحْلُ فحْلٌ مُعرق[3]

نونت الشاعرة اسم محمد وهو منادى مفرد للضرورة الشعرية ، وزادت أم البراء الهمزة في كلمة قوانا فقالت ترثي على بن أبي طالب :

حَاشَا النّبي لَقَدْ هَدَدْتَ قُوَاءَنَا فالحَقّ أصْبَحَ خَاضِعَاً لِلبَاطِلِ[4]

سادساً : الحوار الشعري

أما في مجال الحوار الشعري في رثاء الشواعر، فقد جاء عند البعض منهن في نسيج قصصي تروي من خلاله الشاعرة عمق الألم " ويبدو أن اللغة الحوارية ـ بهذه الخصوصية ـ قد

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 171 .
(2) الأصمعي ، الأصمعيات ، ص 101 .
(3) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق 1 ، ص 42 .
(4) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 79 .

تكررت في باب الرثاء "[1] ، ونجد صورة من هذا الحوار في شعر جليلة بنت مرة من خلال مخاطبتها لثلاثة أطراف في قصيدة بينت مدى الحيرة التي وقعت فيها " وفزعت جليلة إلى شعرها تعكس من خلاله صراعاتها القاتلة ، من خلال الحوار اكتسبت المأساة أبعاداً إنسانية متميزة ، منذ قولها موجهة خطابها إلى أخت كليب :

يا ابنَة الأقوَام إنْ لمت فلا تَعْجَلِي باللوم حَتّى تَسْأَلِي

... ...

وهي لغة تنقلها إلى مجالات مختلفة باختلاف الأفراد الذين تتحاور معهم ، وإن كان الخط النفسي مازال واحداً متماسكاً من خلال إيقاع الحزن الذي يعكسه تنوع هذا الحوار الذي تنتقل به من أخت كليب إلى حوارها من خلال زوجها القتيل :

يا قتِيلاً قوّضَ الدّهْرُ بهِ سَقْفَ بَيْتَيَّ جَمِيعَاً مِنْ عَلِ

... ...

لتمتد الظاهرة عبر تلك اللوحة الحوارية الثالثة ، بما تحمله من تعميق معاني هذا الأسى وذلك من خلال الطرف الثالث ، ممثلاً في أولئك النسوة اللائي رحن يوجهن إليها اللوم ، ويحرضن عليها أخت زوجها ، وكأنها راحت تجمع أطراف القصة التي روتها الروايات حول الحدث ، فتقول :

يا نِسَائِي دُونَكُنّ اليَوْمَ قدْ خَصّتِي الدَّهْرُ برُزْءٍ مُعْضِلِ "[2]

وفي هذه القصيدة خاطبت جليلة الأطراف الثلاثة بلغة حاولت من خلالها محاورة هؤلاء ، لعلها بذلك تجد عزاء فيما هي فيه من عظم المصيبة ، وقد مرّت بنا قصيدتها كاملة عند الحديث عن أسباب شعر الرثاء عند النساء ، وهي قصيدة جمعت معاني وافرة من المواقف الإنسانية .

---

(1) د. مي يوسف خليف ، العناصر القصصية في الشعر الجاهلي ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1988 ، ص 93.

(2) نفس المرجع ، ص 94 - 95

والأبيات في التعازي والمراثي للمبرد ، ص 291 - 292 ، برواية أخرى .

المبحث الثالث:

الأوزان والقوافي والموسيقا

بما أن الشعر الجاهلي شعر غنائي ذاتي يتحدث عن المشاعر والانفعالات الفردية الخاصة في كل أغراضه ، فسوف نبحث في شعر الرثاء عند النساء عن الترابط بين هذا اللون من الشعر الغنائي والأوزان التي نظمت عليها الشواعر أشعارهن مبتدئين الدراسة بشعر النساء في الجاهلية ، ثم تتبع الأوزان التي ظهرت في شعر النساء في الإسلام منذ عصر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية للوقوف على التغييرات التي طرأت على أوزان الشعر في الرثاء خلال الحقبتين في الشعر النسائي .

أولا : الأوزان

إن أكثر الأوزان دوراناً في شعر الرثاء عند المرأة في العصرين الجاهلي والإسلامي كان وزن الطويل ثم يليه البسيط ، وتتدرج باقي الأوزان في القلة تباعاً في شعرهن لتصل إلى أقصاها عند المنسرح والهزج والرمل .

وربما كان ورود هذه البحور في شعر النساء واعتمادهن على مثل هذه الأوزان في الرثاء ، يعود لنوع الإيقاع الذي تنسجم معه نفسية الشواعر ، لاسيما البحر الطويل ومن بعده البحر البسيط ؛ لطول مقاطعهما ، ثم يأتي كل من البحرين الوافر والمتقارب " فالربط يكون بين الحالة النفسية والإيقاع وليس بين هذه الحالة والوزن " [1]

والذي يبدو أن شعرالرثاء عند النساء مقطوعات نظمت في وقت الهدوء الرثائي ، بمعنى أن شعرهن كان في أغلبه وصف المرثي وهجاء الأعداء ، وتصويركل ما كان يتصل بالفقيد في **حياته** ، ولم تأت مقطوعات شعر الرثاء عندهن بما يمكن أن يستشف منه الحرقة والهلع وحرارة البكاء التي تميز بها شعر الرثاء .

وفي ذلك يقول إبراهيم أنيس " على أننا نستطيع ونحن مطمئنون أن نقرر أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزناً طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه

---

(1) د . عزالدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ط 3 ، (د.ب) ، دار الفكر العربي ، 1974م ، ص 277
(2) موسيقى الشعر ، مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1978 م ، ص 177 - 178 .

وجزعه فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية "[2].

فما دام الإيقاع هو المحرك للعواطف وهذه البحور تتسم بأنها ذات طول مناسب للحزن ، فإن النساء لم يتخيرن هذا البحر لذاته ، إنما لمناسبة إيقاعه لما تشعر به ؛ لأن " ... الشاعر حين يريد أن يقول شعرا لا يحدد لنفسه بحراً بعينه ، وإنما هو يتحرك مع أفاعيل نفسه ، فيخرج الشعر في الوزن الذي يصدف [كذا] له من الأوزان "[1] ، وبذلك يمكن أن نؤيد قول أحد الباحثين ممن يرى عدم ربط الشاعر بين البحر والغرض الشعري في الشعر وذلك "... لأن له من إحساسه الجياش ما يصرفه عن هذه الإرادة الواعية "[2] ، ومدار الاختيار يكون تبعاً للحالة النفسية للراثي ، فيختار الطويل أو الخفيف ؛ ليحاكي الإيقاعُ ما بداخله ، ومن ثم نرفض القول بتخصيص البحر المناسب للغرض الشعري كقول القرطاجني " ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجدّ والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير ، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيّلها للنفوس "[3] ، وما قاله جرجي زيدان " ثم وضعوا الأوزان والبحور حسب الاقتضاء كل منها لحال من الأحوال ، بعضها يوافق الشعر الحماسي والبعض الآخر يوافق الرثاء أو الغزل ، فالبحر الطويل يوافق نظم الشعر الحماسي ويوافق الوافر الفخر والرمل الحزن والفرح ، ويلائم السريع العواطف ... "[4] ، بل نقول كما علق شوقي ضيف على ما ذكره جرجي زيدان " هذا الرأي لا يتمشى وحقيقة الموضوعات التي دارت فيها أبحر الشعر العربي قديماً وحديثاً ، فإن العرب لم يصطلحوا على تخصيص الأبحر

(1) عزالدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص 377 - 378
(2) أحمد كمال زكي ، شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، ص 235 .
(3) أبو الحسن حازم القرطاجني ، منهاج البُلغاء وسراج الأدباء ، تح محمد الحبيب ابن الخوجة ، ط 3 ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، (د . ت) ، ص 266 .
(4) تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ 1 ، ص 66 - 67 .
(5) نفس المرجع ، جـ 1 ، ص 67 .

بموضوعات معينة ، لكلّ بحر موضوعه الخاص ، بل جعلوا الموضوعات كلها شركة بين الأوزان يختار الشاعر منها ما يشاء لشعره في أي موضوع ينظم فيه "[5] .

وما يؤيد ذلك أن الرثاء عند النساء جاء بمختلف الأوزان ولم تقتصر الشواعر على بحر بعينه في شعرهن كثرت بعض الأوزان في أشعارهن وقل بعضها بحسب ما وافق ظروفهن في التعبيرعن الرثاء وكما قيل إن "... الشاعر استطاع أن يبرز من خلال إيقاع هذا البحر والإيقاع لداخلي للأبيات إيقاعا نفسياً ، يبرز الفكرة **المسيطرة** عليه ، والإحساس الذي صاحب التجربة"[1] .

وبحر الطويل بالنظر إلى شعر الرثاء عند النساء جاء في المرتبة الأولى وأكثر ما كان في العصر الجاهلي وصدر الإسلام وقل في العصر الأموي ، ثم بحر البسيط وكان في العصر الجاهلي وصدر الإسلام وقل في العصر الأموي أيضاً ، ثم بحرا الوافر والمتقارب نظمت عليهما بعض شواعر الجاهلية وصدر الإسلام ولم يستخدما في العصرالأموي ، أما بحرا الكامل والخفيف فقد كثرا في العصر الأموي وقلا في الجاهلية وصدر الإسلام عند الشواعر .

وبما أن هذه البحورالتي اختارتها الشواعر تناسب حالة الهدوء وتستكين لأوقات الحزن العميق ، فهذا يؤكد أن أشعار النساء لم تكن مقطوعات من بعض الأبيات القلائل ، وربما كانت قصائد طويلة تناسب تلك البحور والأوزان كما صرح بذلك إبراهيم أنيس على أن البحور الطويلة تكون في القصائد لا المقطوعات ، وربّما أغلب قصائد الشواعر قد تم بترها من قبل الرواة ، ولم تنظمها الشواعر في أوقات الفزع والصدمة الأولى .

ثانياً : القوافي

تنوعت قوافي شعر الرثاء النسائي ، فمنها ما هو مقيد ومنها ما هو مطلق ، لقول ابن رشيق " إن الشعر كله مطلق ومقيد ، فالمقيد ما كان حَرْف الروى فيه ساكناً ، وحرف الروى الذي يقع عليه الإعراب ، وتبنى عليه القصيدة ، فيتكرر في كل بيت وإن لم يظهر فيه الإعراب لسكونه "[2] .

ويهمنا هنا أن نأتي بأمثلة عن عيوب القافية التي وردت في شعر النساء ، فقد وردت في أشعارهن بعض هذه العيوب كالإقواء والإيطاء والتضمين .

---

(1) أبو ناجي ، الرثاء في الشعر العربي ، ص 86
(2) العمدة ، جـ 1 ، ص 154 .

1- الإقواء :

ذكر ابن رشيق أن الإقواء هو الإكفاء ثم قال " واصله من (أكفأت الإناء) إذا قلبته ، كأنك جعلت الكسرة مع الضمة وهي ضدها "[1] ، ومن أمثلة ذلك قول مليكة الشيبانية :

أيْنَ الذين إذا ذُكِرْتَ فِعَالهُمْ ... عُرفوا بحُسْن عَفافةٍ وَوَقار؟
أيْن الذين إذا ذُكِرْنا دِينهمْ ... قالتْ عَشَائِرُهُمْ : هُمُ الأخيارُ؟[2]

2- الإيطاء :

وهو"... أن يتكرر لفظ القافية ومعناهما واحد" [3] ، ومنه قول عاصية البولانية :

أعَاصِيَ جُودِي بالدُّمُوع السَّوَاكِب ... وَبَكِّي لَكِ الْوَيْلاتُ قَتْلَى مُحَارب
صَبَرْنَا لِمَا يأتِي به الدَّهْرُ عَامِداً ... وَلكنما أثْآرُنَا في مُحَارب[4]

3- التضمين :

ومعنى التضمين هو " أن تتعلق القافية أو لفظة مما قبلها بما بعدها "[5] ، ويعده النقاد عيباً من عيوب القافية ، وفي عده عيباً نظر واعتراض عندهم .

يرى ثعلب أن الأبيات الكاملة بتمامها تسمى" ... الأبيات المرَجَلة ، التي يَكْمُلُ معنى كل بيت منها بتَمامه ، ولا ينفصل الكلام منه ببعضٍ يَحْسُن الوقوف عليه غير قافيته ، فهو أبعدُها من عمود البلاغة ، وأذمُّها عند أهل الرواية ، إذ كان فهمُ الابتداء مقروناً بآخره ، وصدرُه منوطاً بعَجزه ، فلو طرحت قافية البيت وَجَبَتْ استحالته ، ونسب إلى التخليط قائِله "[6] .

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ، جـ1 ، ص166
(2) نايف محمود معروف ، ديوان الخوارج ، ص 202 .
(3) ابن رشيق ، مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 169 .
(4) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 2 ، ص 248 .
(5) ابن رشيق ، مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 171 .
(6) أبو العباس أحمد بن يحيي ثعلب ، قواعد الشعر ، تح رمضان عبدالتواب ، ط1 ، القاهرة ، دار المعرفة ، 1966م ، ص 88 .

أما ابن الأثير، فلا يرى التضمين عيباً ، يقول "... وهوعندي غيرمعيب ؛ لأنه إن كان سبب عيبه أن يُعَلق البيتُ الأول على الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيبا إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تَعَلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنثورفي تَعَلق إحداهما بالأخرى"[1] .

ومن **التضمين** في شعر النساء ، ما أتت به دختنوس بنت لقيط :

فَلَو أنَّكُم كُنْتُم غَدَاةَ لَقِيتُمُ لَقيطاً صَبَرْتُمْ لِلأَسِنَّةِ والقَنَا
غَدَرْتُمْ ولكن كُنْتُمُ مِثْلَ خُضَّبٍ أَصَابَ لها القَنَّاصُ مِنْ جَانب الشَّرَى[2] .

فقد جاءت بالشرط في بيت وجوابه في البيت الذي يليه ، ومنه قول عاصية البولانية :

فلو أنَّ قَوْمي قَتَّلتَهُمْ عِمارةٌ من السَّرَوات والرُّؤُوس الذوَائِب
صَبَرْنَا لِمَا يأتي به الدَّهْرُ عامِداً ولكِنَّمَا أَثْأَرْنَا في مُحَارب[3]

وقول هند بنت حذيفة :

فَإنْ أنتُمُ لَمْ تُصْبِحُوا القَوْمَ غارةً يُحَدّثُ عَنْهَا واردٌ بَعْدَ صَادِرِ
وتَرْمُوا عُقَيْلاً بالتي لَيْسَ بَعْدَهَا بَقَاءٌ فَكُونُوا كالإِمَاء العَوَاهِرِ[4]

جاءت بالشرط في البيت الأول وجوابه في البيت الثاني

ومن **التضمين** أيضا قول أروى بنت عبد المطلب :

إذَا هَابَ الكُمَاة المَوْتَ حَتَّى كَأَنَّ قُلوبَ أكثرِهِمْ هَوَاءُ
مَضَى قُدُماً بذي رُبَدٍ حَشِيبٍ عَلَيْهِ حِينَ تُبْصرُهُ البَهَاءُ[5] .

فقد جاءت الشاعرة بالشرط في البيت الأول وجوابه في البيت الثاني

---

(1) المثل السائر ، ق3 ، ص201
(2) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 11 ، ص 145 .
(3) أبو تمام ، ديوان الحماسة ، جـ 2 ، ص 248 .
(4) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 17 .
(5) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 1 ، ص 173 .

ومنه قول صفية بنت عبدالمطلب :

فلو خَلَد امْرُؤٌ لِقَدِيمِ مَجْدٍ وَلَكِنْ لا سَبِيلَ إلى الخُلُود
لكَانَ مُخلَّداً أخْرَى اللَّيالي لِفَضْلِ المَجْدِ والحَسَبِ التَّلِيد[1]

جاءت بالشرط في البيت الأول وجوابه في البيت الثاني .

ثالثاً : الموسيقا

ظهرت الموسيقا في شعر الرثاء عند النساء من خلال اعتمادهن على الترانيم الحزينة التي تناسب المواقف الانفعالية التي عبرت فيها النساء عن الحزن ، متمثلة في تكرار الألفاظ والحروف واستخدام أسلوب التصريع والترصيع والمجانسة .

1 ـ تكرار الألفاظ والحروف

ورد التكرار للألفاظ والحروف في شعر النساء بكثرة ، ربما لغرض التنفيس ، والتعبير عن الجزع والألم " فإلى جانب كون التكرارظاهرة أسلوبية ، فإنه كأية أداة لغوية يعكس جانباً من الموقف الشعوري والانفعالي ، وهذا الموقف تؤديه ظاهرة أسلوبية تشكل لبنة أساسية من لبنات العمل الأدبي "[2] ، ومن ذلك قول أم حكيم بنت عبدالمطلب :

ألا يا عَيْنُ جُودِي وَاسْتَهِلِّي وَبَكِّي ذا النَّدَى وَالمَكْرُمَاتِ
ألا يا عَيْنُ وَيْحَكِ أسعفيني بدَمْع مِنْ دُمُوع هَاطلات[3]

وقول امرأة من بني حنيفة :

ألاَ هَلَكَ ابنُ قُرَّانَ الحَمِيدُ أخُو الجُلَّى أبو عَمْرٍو يَزِيدُ
ألا هَلَكَ امْرُؤٌ هَلَكَتْ رجَالٌ فَلَمْ تُفْقَدْ وكَانَ لَهُ الفقدُ
ألا هَلَكَ امْرُؤٌ حَبَّاسُ مَالٍ على العِلَّاتِ مِتْلافٌ مُفِيدُ

---

(1) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق1 ، ص170
(2) موسى ربابعة ، "التكرار في الشعر الجاهلي ـ دراسة أسلوبية " ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، ع 1 ، ذو القعدة ، 1410 هـ ـ حزيران 1990 م ، الأردن ، جامعة مؤتة ، ص 160 .
(3) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق1 ، ص 171 ـ 172 .

ألا هَلَكَ امْرُؤٌ ظَلّتْ عَلَيْهِ بشَطّ عُنَيْزَة بَقَرٌ هُجُودُ
سَمِعْنَ بمَوتِهِ فظَلِلْنَ نَوْحَاً قِيَامَاً مَا يَحِلُّ لَهُنَّ عُودُ[1]

وشاعرة مشركة في صدر الإسلام جاء في شعرها هذا التكرار الدال على الحزن حين قالت :

فَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتَ عَنْهُمْ وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمْ التَّرَاقي
وَرُبَّ كَرِيمَةٍ أَعْتَقْتَ مِنْهُمْ وَأُخْرَى قَدْ فَكَكْتَ مِنَ الوثاق
وَرُبَّ مُنَوِّهٍ بكَ مِنْ سُلَيْمٍ أَجَبْتَ وَقَدْ دَعَاكَ بلا رَمَاق[2]

وقد استخدمته الشاعرة المسلمة عاتكة بنت زيد في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

أَمْسَتْ مَرَاكِبُهُ أَوْحَشَتْ وَقَدْ كَانَ يَرْكَبُهَا زَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ تُبَكِّي عَلَى سَيِّدٍ تُرَدِّدُ عَبْرَتَهَا عَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ نِسَاؤُكَ ما تَسْتَفِيقُ مِنَ الحُزْنِ يَعْتَادُهَا دَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ شَوَاحِبَ مِثْلَ النِّصَا لِ وَقَدْ عُطِّلَتْ وَكَبَا لَوْنُهَا[3]

2 ـ التصريع

عرّف ابن رشيق التصريع فقال: " فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه : تنقص بنقصه ، وتزيد بزيادته..."[4] ، ويقول التنوخي " والتصريع مأخوذ من مصرعي الباب ، والأصل في ذلك صرعا النهار وهما الغداة والعشى "[5] ومنه قول آمنة بنت وهب :

عَفَا جَانِبُ البَطحَاءِ مِنْ إبن هَاشِمِ وَجَاوَرَ لَحْدَاً خَارِجَاً فِي الغَمَائِمِ[6]

---

(1) المفضل الضبي ، المفضليات ، جـ1 ، ص273 - 274
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق 2 ، ص 454 .
(3) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 332 .
(4) العمدة ، جـ 1 ، ص 173 .
(5) أبو يعلي عبدالباقي بن المحسن التنوخي ، القوافي ، تح عمر الأسعد و محيي الدين رمضان ، ط 1 ، بيروت ، دار الإرشاد ، 1389 هـ ، 1970م ، ص 65 .
(6) ابن سعد ، مصدر سابق ، جـ 1، ص 82 .

ومنه قول ناجية بنت ضمضم ترثي أخاها هرماً :

يَا لَهْفَ نَفْسِي لَهْفَةَ المَفْجُوع إذْ لا أرَى هَرِمَاً على مَوْدُوع
مِنْ أجْلِ سيِّدنَا وَمَصْرَع جَنْبِهِ عَلِقَ الفُؤَادُ بحَنْظَلٍ مَصْدُوع[1]

وقول صفية بنت عبدالمطلب ترثي الرسول صلى الله عليه وسلم :

لَهْفَ نَفْسِي وَبتُّ كالمَسْلُوب آرقُ الليلَ فِعْلَة المَحْرُوب[2]

3- الترصيع :

معنى الترصيع " وهو أن يكون حشو البيت مسجوعا "[3] ، ومنه قول الخنساء :

المَجْدُ حُلّتُهُ والجُودُ عِلَّتُهُ والصِّدْقُ حَوْزَتُهُ إنْ قرْنُهُ هَابَا
خَطَّابُ مَحْفِلَةٍ فرّاجُ مظلمَةٍ إنْ هَابَ مُعْضِلة سَنَّى لهَا بَابَا[4]

وقول فارعة المرية :

شَهَّادُ أنديةٍ رُقَّاعُ أبنيةٍ شَدَّادُ ألويةٍ فتَّاحُ أسْدَاد
نَحَّارُ رَاغِيةٍ قتَّالُ طاغِيةٍ حَلَّالُ رَابيةٍ فكَّاكُ أقياد
قوَّالُ مُحْكَمةٍ نقَّاضُ مبْرَمَةٍ فرَّاجُ مُبْهَمةٍ حَبَّاسُ أوراد[5]

تعدد في مثل هذه الأبيات استخدام الترصيع ، وقد ذكر العسكري أن الترصيع إذا "... كثر وتوالى دلَّ على التكلف ... "[6] ، ويرى ثعلب أن أبيات الخنساء والفارعة من " الأبيات المُوَضَّحَة : وهي ما استقلت أجزاؤها وتعاضدت وصُولها ، وكثرت فِقرُها ، واعتدلت فصُولهَا

(1) أبو عبيدة ، النقائض ، جـ 1 ، ص 261 .
(2) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص 327 .
(3) أبوهلال العسكري ، الصناعتين ، ص 375 .
(4) ديوانها ، ص 8 .
(5) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 12 ، ص 111 .
(6) الصناعتين ، ص 377 .

فهي كالخيل الموضَّحَةِ ، والفصوص المجزَّعَةِ ، والبُرود المُحبَّرة ... "[1] .

ومن الترصيع قول نعم بنت سعيد :

صَعْب البَدَيهةِ مَيْمُونٍ نَقِيبتُهُ حمّال ألويةٍ رَكّاب أفرَاس[2]

جاءت نعم بالترصيع في بيت واحد من مجموع أبياتها .

4- المجانسة

جاءت المجانسة في شعرالرثاء النسائي بكثرة ، وقد استخدمت الألفاظ بصيغ اشتقاقية وصرفية ، ربما لتأكيد المدح والفخر اللذين امتزجا في شعرهن ، و" التجنيس ضروب كثيرة : منها المماثلة وهي : أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ، ... والتجنيس المحقق : ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن ، رجع الى الاشتقاق أو لم يرجع ... ويقرب من هذا النوع نوع يسمونه المضارعة ، وهو على ضروب كثيرة : منها أن تزيد الحروف وتنقص ... ومنها أن تتقدم الحروف وتتأخر ... "[136] ، ومنه قول أمامة بنت ذي الأصبع العدواني :

كَانُوا مُلُوكاً سَادةً في الذرَا دَهْراً لها الفَخْرُ عَلى الفاخِر[4]

وقول أروى بنت عبدالمطلب :

طويل البَاع أمْلس شَيْظميٍّ أغَرَّ كأنَّ غُرَّتَهُ ضِيَاءُ[5]

وقول أميمة بنت عبدالمطلب :

فَقَدْ كَانَ زَيْناً للعَشِيرَة كُلِّها وكَانَ حَمِيداً حَيْثمَا كَانَ مِنْ حَمْد[6]

---

(1) قواعد الشعر ، ص87.
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق2 ، ص168
(3) ابن رشيق ، العمدة ، جـ 1 ، ص 321 - 325 .
(4) الأصبهاني ، الأغاني ، جـ 3 ، ص 108
(5) ابن هشام ، مصدر سابق ، ق 1 ، ص 173 .
(6) الموضع نفسه

وقول خالدة بنت هاشم :

فلو كانت نُفُوسُ القوم تُفْدَى فَدَيْتُهُمُ وَحَقَّ لَهَا فِدَاها[1]

ومن شعر النساء الشواعر في العصر الإسلامي قول صفية بنت عبدالمطلب ترثي الرسول صلى الله عليه وسلم :

إذ رَأيْنَا أنَّ النبيَّ صَرِيعٌ فأشَابَ القذَالَ أيَّ مَشِيب[2]

وقول حفصة في رثاء عمر بن الخطاب :

أكْظمُ الغلَّةَ المخالطة القلـ بِ وَأعَزّى وَفِي القرآن عَزَائِي[3]

وقول أم سنان ترثي علي بن أبي طالب :

إمَّا هَلَكْتَ أبَا الحُسَيْن فَلَمْ تَزَلْ بالحَقِّ تُعْرَفُ هَادِيَاً مَهْدِيًّا[4]

وتطول بنا الشواهد إذا أتينا بكلِّ الجناس في شعرهن ولعلنا نكتفي بهذا للاستشهاد به .

---

(1) ابن طيفور، بلاغات النساء ، ص186
(2) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ 2 ، ص327
(3) ابن طيفور، مصدر سابق ، ص 30
(4) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ1، ص 258

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة أضع بعض النتائج التي توصل إليها البحث من خلال دراسة شعرالرثاء عند النساء في الجاهلية والإسلام .

لقد حاولت أن أتبين من خلال هذه الدراسة الحياة الأدبية لشواعر العرب ، وأن أقف على الأساليب والتعابير النسائية في قرض الشعر ، من خلال غرض الرثاء الذي اشتهرت به النساء ، وأن أبرز دور المرأة في المجتمع الجاهلي ، وقد أمكن التعرف على كثير من النساء الشواعر في العصرين الجاهلي والإسلامي وماتعلق من أخبار بحياتهن وحياة أسرهن .

كان من أكثر المناهج المسيطرة على البحث المنهج التاريخي ، وذلك للوقوف على التسلسل التاريخي الذي اتبعه الرواة في تدوين قصائد الشواعر ومقطوعاتهن ، وكنت حريصة على معرفة الأحداث والمناسبات التي قيلت فيها أشعار الرثاء ، والذي سهل الأمرذكر المصادر لاسم المرثي ، فعملت على تحديد شيء من معالم الشخصية التي عنت الشواعر برثائها ، وذلك من خلال الرجوع إلى كتب التاريخ في محاولة لاستخلاص بعض المعلومات عن أسرهن وحياتهن .

وقد واجهتني في أثناء الدراسة صعوبة في جمع الأشعارالرثائية للنساء لتناثر الشعرفي عدة مصادر، وفيها من الروايات المخالفة لنفس الشعرلبعض الشواعر، وكان الشعر في بعض الأحيان ينسب لأكثرمن شاعرة ، فكنت أتحقق من ذلك من المصادر الموثوقة ومن الكتب التي اعتنت بجمع شعرهن ومن الدراسات الأكاديمية السابقة .

وكنت أود في أحيان كثيرة أن أضع ترجمة للشواعر وللأعلام الذين وردت أسماؤهم في البحث ، ولكن وجدت أن في ذكر الأحداث والمناسبات التي مرّوا بها والتفصيل فيها أغنى عن ذكر ذلك .

كما كان بالإمكان الإتيان بقصيدة واحدة لكلّ شاعرة والاكتفاء بالإشارة إلى باقي قصائدهن في مصادرها، ولكن رأيت أن من الأفضل ذكر أكثر من قصيدة أو مقطوعة للشواعر حتى يتبين التفاوت في الكم الشعري الذي اعتنى بجمعه الرواة للنساء الشواعر، فالرواة على ما يبدو كانوا قد أهملوا جمع الشعركاملا ، ونجدهم يقولون عند ذكرأشعارهن : ومما قالته ، ومن قصيدتها ، إلخ .

ولا شك أن هذه الدراسة كشفت أن الشعرالرثائي للنساء كان نبضاً صادقاً للحياة الجاهلية والإسلامية ، وإن كان بعض الشعرالنسائي قد اتهم بالنحل ، ولكني كنت أسجل شعرهن في الرثاء على علاته ، ولا أدعي بأن البحث قد جمع كلّ شعر الرثاء عند النساء سواء في الجاهلية أو

الإسلام ولكن هي محاولة لكشف إبداع النساء الشواعر، لأن بعض الشعر الرثائي الذي كان ينسب لشاعرة ، أكتشف بعد ذلك أنه ينسب لأحد الشعراء ، وأتمنى أن يقوم باحث آخر بدراسة شعر النساء الشواعر جمعاً وتحقيقاً وتوثيقاً .

والبحث يشتمل على أربعة فصول ، يتقدمها مقدمة وتمهيد وينتهي بخاتمة .

وفي التمهيد حاولت معالجة مفهوم الرثاء وأشكاله ، وأخذ معانيه من المعاجم اللغوية ، فوجدت أن كلمة (الرثاء) في اللغة كانت تطلق على عدة معان حتى وصلت في الاصطلاح لمعنى المدح في الشعر .

وفي الفصل الأول ناقش البحث قضية مفهوم الحياة والموت في العصرين الجاهلي والإسلامي من خلال الشعر؛ للوقوف على موقف الجاهليين والإسلاميين تجاه حياتهم التي كانوا يحيونها ونظرتهم للحياة الآخرة ، فوجدنا أن حياة الجاهلي كانت في صراع للحصول على الخلود الدنيوي وأن الموت لديه أمر مسلم به ، وأن الإنسان في كلّ العصور يقرّ بحقيقةالموت الذي لا مفر منه وإن تباينت المفاهيم لدى الجاهليين في فهم كنه الحياة الآخرة ، فمنهم من كان يعتقد أن لا حياة بعد الموت والبعض الآخر كان يقرّ بأن هناك آخرة يحشرالإنسان فيها مع اختلاف إدراكهم لكنه حقيقتها .

وفي صدرالإسلام تغيرت تلك النظرة الجاهلية للحياة والموت بعد مجيء الإسلام ، وأصبح الإنسان المسلم يسعد بحياته وبعبادته لربه جلّ شأنه ، وكان يسعى من خلال العمل الصالح والجهاد في سبيل الله إلى جنة الخلد يوم القيامة .

أما في العصر الأموي ، فقد انقسم المسلمون إلى فرق ومذاهب ، واختلفت المفاهيم الدينية لديهم ، فأصبحت كل فرقة لها معتقدها الذي تتمسك به ، فتباينت وجهات النظر عند المسلمين حول حقيقة الحياة والموت .

وفي الفصل الثاني الذي تناول شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الجاهلي، تبين لي أن الحياة في الجاهلية كانت تسيرعلى النظام القبلي ، وسادت فيها الحروب القبلية التي **استمرت** سنين طويلة ، من أجل النزاعات بين القبائل ، وقد أظهر شعرهن تعصب المرأة لقومها وعشيرتها ، وكان جلّ اهتمامها مركزاً على إثارة الحمية والحماس في النفوس لخوض المعارك وسفك الدماء ، فهي قد تناولت كلّ المعاني في رثائها من فخر ومدح لقوة المرثي ، كما أنها كانت العنصرالأهم في تحفيز أبناء القوم على الأخذ بالثأر، سواء بين الأفراد أم بين القبائل في الحروب التي دارت بينهم ،

وبرز لديهن الفخر بمكانة ونسب قبائلهن بين القبائل فأخذن في الهيجاء والتقليل من شأن مَنْ يمس أبناء قبائلهن بسوء ، ومن جانب آخر رصدن المآثر والمشاعرالإنسانية التي كان المرثي يقوم بها تجاه قبيلته ، فظهرت في أشعارهن مناقب المرثي والتغني بخصاله الحميدة ، وظهرالاختلاف النسبي في عدد القصائد والمقطوعات التي اهتم الرواة بتدوينها للشواعر من حيث الكثرة والقلة ، كما اتضح لي أن شعر الرثاء النسائي في الجاهلية كان تجسيداً لمعاني الفخر والمدح الممزوج بالبكاء وذرف الدموع الغزار ووصف شدة الحزن ، وأن شعرهن قد جاء تصويراً لشجاعة المَرْثي ووصف المعارك التي خاضها ، ولم يكن الرثاء الذي دون للنساء إلا لمن قتل في تلك الحروب قتلاً بالرماح والسيوف .

كما لاحظت أن المرأة إذا ما تناولت الغزل ، فهو يأتي في رثاء الحبيب ، وكانت صورته عند الراثية صورة الرجل الفارس والمقدام وقت الحرب .

كما تبين لي عند دراسة مكانة المرأة الشاعرة في العصر الجاهلي وأثرها في شعر الرثاء أن النساء الشواعر كن يتمتعن بمكانة مرموقة في مجتمعهن في الحياة الاجتماعية والحياة الأدبية ، فقد كانت المرأة حرة مصونة تتمتع بنوع من الاحترام والتقدير في أسرتها وقبيلتها ، ورأينا كيف أن المرأة شاركت في مقارعة الرجال الشعراء وتأثرهن بالمحيط الأدبي لأسرهن ، وأثر ذلك قي شخصياتهن .

كما تجلت مكانتها عند الشعراء في الافتنان بها ، فقد كانت باعثاً قوياً للإلهام في روائع أشعارهم ، كما اتضحت مكانتها الأدبية في اهتمام بعض الرواة بتدوين شعرها والاعتداد به ، ووقفنا على مدى اهتمام النساء بالحياة الأدبية ، وقد كنّ من الحكيمات كما فعلت هند بنت الخس وأختها جُمْعَة ، واتضح أن بعض القصائد قد حفلت بالأمثال السائرة والحكم المتناثرة .

وقد استخلصت من النصوص الشعرية للشعر الرثائي للنساء تأثير الطبيعة على نفسية الشواعر وشعرهن ، وتأثرهن بمن حولهن في البيئة الجاهلية وكثرة الحديث عن المظاهر الطبيعية في التعبير عن الحزن والألم في أشعار الرثاء ، ولم تصف الشواعر الطبيعة كما وصفها الشعراء ، بل امتزجت الشواعر معها في بكاء حار على المرثي ، لعلها بذلك تجد السلوى في نوح الحمام ، أو هدير الماء ، أو دموع السحب وفي الفصل الثالث عند الحديث عن شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الإسلامي تبين أن الشعر الرثائي عند النساء في حقبة صدر الإسلام الذي حدثت فيه الغزوات بين المسلمين والمشركين ، كان قد واجه خليطاً من قائلي الشعر ، فالرثاء عند الشواعر

المسلمات تضمن الاعتزاز بالمرثي وهو في ساحات الجهاد والدعاء له بالنصر والاستشهاد والفوز برضوان الله جل شأنه ، والسعي للظفر بجنات النعيم يوم القيامة .

أما الشواعر المشركات فقد جاء شعرهن الرثائي مزيجا بين هجاء المسلمين وتوعدهم بالانتقام وبكاء الموتى بكاء حارا .

أما في ظل الدولة الأموية ، فقد اتجه الشعر عند النساء اتجاهاً آخر وسار في منعطف جديد ، حيث الصراع أصبح بين المسلمين فيما بينهم ، والرثاء كان قد قيل في القتلى الذين كانوا ضحايا الصراع السياسي والمذهبي في العصر الأموي .

ومن ذلك يتضح أن شعر الرثاء الذي دون لشواعر العرب في الإسلام كان جله قد قيل في الأحداث والوقائع ، سواء في رثاء قتلى الحروب والغزوات أم في رثاء قتلى الصراعات والنزاعات السياسية والمذهبية .

كما ظهر في أشعار النساء تأثير الإسلام عليهن ، وكشفت الدراسة مدى تأثر الشواعربالألفاظ والأساليب القرآنية لاسيما النساء القريبات من حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

أما عند دراسة الخصائص الفنية في شعر الرثاء عند الشواعر في العصرين الجاهلي والإسلامي ، فقد وجدنا أن رثاءهن قد اعتمد على الأساليب الشعرية من التشبيهات والاستعارات والكنايات التي جاءت بكثرة في أغلب القصائد والمقطوعات بينت القيمة البلاغية والجمالية لشعرهن ، ولم تختلف الصور الشعرية لدى الشواعر، وذلك لأنها تستمد من البيئة المحيطة بهن .

أما اللغة في أشعار النساء الشواعر ، فقد استخدمن بجانب الشعراء معجماً للألفاظ ؛ لأن المصدرالبيئي المحسوس واحد ، وقد تطورت بتطور الأحداث ، واختلفت لغة شواعر الإسلام عن لغة شواعر الجاهلية للتطور الذي أحدثه الإسلام في الأساليب والمعاني والألفاظ للشواعر، ومن الملاحظ على شعرهن الرثائي أن الشواعر كن يتحركن داخل محيط معجمي قبلي في الجاهلية وديني في صدر الإسلام ، ثم سياسي في العصر الأموي ، وكما هو معروف أن الشعر له نسيج متميز يجمع بين الشعراء ، والفارق بين النساء الشواعر في شعر الرثاء يدخل ضمن التطور الذي يحدث في المجتمعات .

ولا يمكن وصف جميع شعر النساء بالسهولة والوضوح ؛ لوجود بعض القصائد والمقطوعات التي تميزت بالصعوبة في الفهم للألفاظ والمعاني وبخاصة في الشعر الجاهلي ، إلا أنه أصبح في صدرالإسلام يتميز بالسلاسة وعدم التعقيد ، وفي العصر الأموي تركز جمع الشعر على القبائل المتحاربة فيما بينها ، فأصبح الشعر أقرب لما كان عليه في العصر الجاهلي عند بعض الشواعر .

ووقفت في نهاية هذا الفصل على عناية الشواعرالجاهليات والإسلاميات بالموسيقا والأوزان الشعرية والقوافي ، وعالجت بعض عيوب القوافي التي جاءت في الشعر النسائي لشواعر العرب ، وكانت عنايتهن بالترنيمات الموسيقية الحزينة في رثائهن تعبرعن ذوق الشواعر في العصرين الجاهلي والإسلامي .

وبعد فهذا ما تمكنت من تحقيقه في هذه الدراسة وهذا جهدي لم أدّخر وسعاً في إنارة جوانبه ، وأدعو الله عز وجل أن يوفقني وعليه وحده قصد السبيل .

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم (رواية قالون)

أولاً: الكتب

1 - د . إبراهيم أنيس .

- موسيقى الشعر ، مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1978 م .

2 - إبراهيم عبدالرحمن النعانعة .

- شعر بني كنانة في الجاهلية وصدر الإسلام ، ط1 ، عمّان ، دار جرير ، 1428 هـ - 2007 م .

- شعر غطفان في الجاهلية وصدر الإسلام ، ط1 ، عمّان ، دار جرير ، 1428 هـ - 2007 م .

3 - أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري ، القيرواني .

- زهر الآداب ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط 4 ، بيروت ، دار الجيل ، 1972م ، جـ 3 .

4 - أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ، ابنا هاشم .

- الأشباه والنظائر ، تح السيد محمد يوسف ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1965م ، جـ 2.

5 - أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني .

- الزهرة ، تح إبراهيم السامرائي ونوري حمودي القيسي ، منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية ، 1975م ، جـ 2.

6 - أبو تمام حبيب بن أوس الطائي .

- ديوان الحماسة ، (د . ب) ، طبعة محمد سعيد الرافعي ، مطبعة السعادة ،1331هـ - 1913م ، جـ 1 .

- الوحشيات ، تح عبدالعزيز الميمني الراجكوتي ، القاهرة ، دار المعارف ، 1963 م .

7 - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .

- تاريخ الطبري ، تح عبد أ . علي مهنا ، ط 1 ، لبنان ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، 1418 هـ - 1998 م ، جـ 2 .

8 - أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي .

ـ أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء (رسالة نشرت ضمن كتاب نوادر المخطوطات) ، تح عبدالسلام هارون ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1370 هـ - 1954م .

9 - أبو الحسن حازم القرطاجني .

ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح محمد الحبيب ابن الخوجة ، ط 3 ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، (د . ت) .

10 - أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي .

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح قاسم الشماعي الرفاعي ، ط 1 ، بيروت ، دار القلم ، 1989م ، جـ 3 .

11 - أبو الحسن علي بن محمد المدائني .

ـ التعازي ، تح إبتسام مرهون الصفاروبدري محمد فهد ، النجف **الأشرف** ، مطبعة **النعمان** 1971م ، جـ 2 .

ـ المردفات من قريش ، تح عبدالسلام هارون ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1370 هـ - 1951م .

12 - أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري .

ـ الأخبار الطوال ، تح عبدالمنعم عامر ، ط 1 ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، 1960م .

13 - أبو حيّان التوحيدي .

ـ البصائر والذخائر ، تح إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء ، (د . ت) ، جـ 2.

14 - أبو سعيد الحسن بن الحسين السّكري .

ـ شرح أشعار الهذليين ، تح عبدالستارأحمد فرّاج ، القاهرة مكتبة دار العروبة ، (د . ت) ، جـ 2 .

15 - أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي .

ـ الأصمعيات ، تح أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون، ط 3 ، مصر ، دار المعارف ، (د . ت)

16 - أبو عبادة البحتري .

ـ الحماسة ، ط 1 ، المطبعة الرحمانية بمصر ، 1929م .

17 - أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي .

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (د . ت) ، جـ 1 .

18ـ العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب .

ـ قواعد الشعر ، تح رمضان عبد التواب ، ط 1 ، القاهرة ، دار العروبة ، 1966 م .

19 ـ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد

ـ التعازي والمراثي ، تح محمد الديباجي ، دمشق ، مطبعة زيد بن ثابت ، 1396 هـ ـ 1976م .

ـ الكامل في اللغة والأدب ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، بيروت ، المكتبة العصرية ، 1418 هـ ـ 1997م ، جـ 4 .

20 ـ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري

ـ صحيح البخاري ، تح محمد محمد تامر، القاهرة ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، 1323هـ ـ 2004 م ، جـ 1.

21 ـ أبو عبيد ، عبدالله بن عبدالعزيز البكري .

ـ معجم ما استعجم ، تح مصطفى السقا ، بيروت ، عالم الكتب ، (د . ت) ، جـ 3 .

22 ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي .

ـ شرح النقائض جرير والفرزدق ، تح محمد إبراهيم حُوّر ووليد محمود خالص ، ط2 ، أبو ظبي منشورات المجمع الثقافي ، 1998م ، جـ 2 .

23 ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

ـ البيان والتبيّن ، تح عبدالسلام محمد هارون ، ط 1 ، القاهرة ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (د . ت) ، جـ 2 .

ـ الحيوان ، تح عبدالسلام محمد هارون ، بيروت ، دار الجيل ، (د . ت) ، جـ 1 .

ـ رسائل الجاحظ ، جمعها وحققها حسن السندوبي ، ط 1 ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية بمصر ، 1352 هـ ـ 1933م .

24 ـ أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

ـ شرح ديوان الحماسة ، نشر الأستاذين أحمد أمين وعبدالسلام هارون (د . ب) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1965م ، جـ 1 .

25 ـ أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي .

ـ الأمالي ، ط 3 ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 2000م ، جـ1.

ـ ذيل الأمالي والنوادر ، ط 3 ، (د . ب) ، (د . ن) ، (د . ت) .

26 ـ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي .

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط 2 ، (د . ب) ، مطبعة السعادة بمصر ، 1955م ، جـ 2 .

27 ـ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .

ـ العقد الفريد ، تح أحمد أمين وآخرين ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، (د . ت) ، جـ 3 .

28 ـ أبو الفرج الأصبهاني علي بن الحسين .

ـ الأغاني ، (د . ط) ، (د . ب) ، دار إحياء التراث العربي ، (د . ت) ، جـ 6 .

29 ـ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ، المعروف بابن طيفور .

ـ بلاغات النساء ، تح أحمد الألفى ، القاهرة ، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ، 1908م .

30 ـ أبو محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغندجاني .

ـ فرحة الأديب ، تح محمد علي سلطاني ، دمشق ، دار النبراس ، 1980م.

31 ـ أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي .

ـ مرآة الجنان ، ط 2 ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، 1390 هـ ـ 1970م ، جـ 1 .

32 ـ أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .

ـ عيون الأخبار ، تح محمد الأسكندراني ، ط 1 ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1414 هـ ـ 1994م ، جـ 4

ـ المعاني الكبير في أبيات المعاني ، ط 1 ، الهند ، **مطبعة** مجلس دائرة **المعارف العثمانية** ، 1949م ، جـ 2 .

33 ـ أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي .

ـ الأصنام ، تح أحمد زكي ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، 1343 هـ ـ 1924م .

34 ـ أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري .

ـ ديوان المعاني ، القاهرة ، مكتبة القدس ، 1352 هـ ، جـ 2 .

ـ الصناعتين ، تح علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، (د . ب) ، دار إحياء الكتب العربية ، 1952م .

35ـ أبو يعلي عبدالباقي بن المحسن التنوخي .

ـ القوافي ، تح عمر الأسعد ، محيي الدين رمضان ، ط 1 ، بيروت ، دار الإرشاد ، 1389 هـ ـ 1970م .

36ـ ابن أبي حديد .

ـ شرح نهج البلاغة ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 2 ، (د . ب) ، دارإحياء الكتب العربية ، 1385 هـ - 1965م ، جـ 1 .

37ـ ابن سعد .

ـ الطبقات الكبرى ، القاهرة ، مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، 1358 هـ ، جـ 1.

ـ الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادرللطباعة والنشر ، 1376 هـ ـ 1957م ، جـ 2 .

38 ـ ابن سيد الناس .

ـ منح المدح ، تح عفت وصال حمزة ، ط 1 ، دمشق ، دار الفكر ، 1988م .

39 ـ ابن هشام .

ـ السيرة النبوية ، تح مصطفى السّقا وآخرين ، ط 2 ، مصر، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، 1955م ، جـ 1 .

40 ـ د . إحسان عباس .

ـ ديوان شعر الخوارج ، ط 4 ، بيروت ، القاهرة ، دار الشروق ، 1402 هـ ـ 1982م .

41 ـ أحمد أحمد بدوي .

ـ أسس النقد الأدبي عند العرب ، ط 2 ، الفجالة ، مكتبة نهضة مصر ، 1960م .

42 ـ أحمد أمين .

ـ فجر الإسلام ، ط 11 ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1975م .

43 ـ أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري .

ـ أنساب الأشراف ، تح محمد حميد الله ، (د . ط) ، مصر دار المعارف ، (د . ت) ، جـ1 .

44 ـ أحمد كمال زكي .

ـ شعرالهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، القاهرة ، دارالكاتب العربي للطباعة والنشر، 1389 هـ ـ 1969م .

45 - إدريس الناقوري .
- المصطلح النقدي في (نقد الشعر) ، ط2 ، طرابلس ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، 1394 هـ - 1984م .

46 - د . بدوي طبانة .
- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، القاهرة ، مطبعة مخيمر ، 1954م .
47 - بلاشير .
- تاريخ الأدب العربي ، ت إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة ، 1973م ، جـ 2 .
48 - جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري .
- أساس البلاغة ، تح عبدالرحيم محمود ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة أولاد اورفاند ، 1953م .
49 - جرجي زيدان .
- تاريخ آداب اللغة العربية ، (د . ب) ، دار الهلال ، 1957م ، جـ 1.
50 - جمال الدين بن نباته المصري .
- مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، تح عمر موسى باشا ، (د . ب) ، (د . ن) ، 1972م .
51 - جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المعروف بابن منظور
- لسان العرب ، (د . ب) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (د . ت) ، جـ 19 .
52 - د . جواد علي .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط 1 ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1970م ، جـ 4 .
53 - حسان بن ثابت الأنصاري .
- ديوان حسان بن ثابت ، تح عبدالرحمن البرقوقي ، (د . ب) ، مطبعة السعادة ، (د . ت) .
54 - حسني عبدالجليل يوسف .
- الإنسان والزمن في الشعر الجاهلي ، (د . ط) ، (د . ب) ، مكتبة النهضة المصرية ، (د . ت) .
55 - الخرنق بنت بدر بن هفان .
- ديوان شعر الخرنق بنت بدر، تح حسين نصار ، (د . ب) ، مطبعة دار الكتب ، 1969م .
56 - الخنساء ، تماضر بنت عمرو بن الشريد .

ـ ديوان الخنساء ، بيروت ، دار صادر ، دار بيروت ، 1383 هـ ـ 1963م .

57- د. زكي المحاسني .

ـ شعر الحرب في أدب العرب ، ط 2 ، القاهرة ، دار المعارف بمصر، 1970م

58 ـ د. سجيع الجبيلي ، د. قصي الحسين .

ـ الفنون الأدبية في العصر الأموي ، ط 1 ، بيروت ، دار مكتبة الهلال ، دار البحار ، 2005م .

59 ـ السيد تقي الدين.

ـ من أدب الجاهليين والإسلاميين ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، (د . ت) .

60 ـ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، ط 1 ، مصر ، مطبعة السعادة ، 1328 هـ ، جـ 4 .

61 ـ د. شوقي ضيف .

ـ الرثاء ، ط 2، القاهرة ، دار المعارف ، 1955م ، جـ2 .

ـ العصر الجاهلي ، ط 19 ، القاهرة ، دار المعارف ، (د . ت) .

62 ـ صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري .

ـ الحماسة البصرية ، تح عادل سليمان جمال ، 1420هـ ـ 1999م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، جـ 2 .

63 ـ ضياء الدين بن الأثير.

ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تح أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، ط 1 ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، 1380 هـ ـ 1960م ، ق2 .

64 ـ طرفة بن العبد البكري .

ـ ديوان طرفة بن العبد ، تح مكس سلغسون ، شالون ، مطبع برطوند ، 1900م .

65 ـ عائشة التيمورية .

ـ ديوان عائشة التيمورية (حلية الطراز) ـ ط 1 ، القاهرة ، مطبعة الكاتب العربي ، 1952م .

66 ـ عائشة عبدالرحمن .

ـ الخنساء ، القاهرة ، ط 3 ، دار المعارف ، 1963 ـ 1970 م .

67 ـ عبدالحميد الفايد

ـ المرأة وأثرها في الحياة الأدبية ، (د . ط) ، (د . ب) ، جامعة بيروت العربية ، 1977م .

68 ـ عبدالرؤوف مخلوف .

ـ ابن رشيق ونقد الشعر ، ط 1 ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، 1973م .

69 ـ عبدالرحمن خليل إبراهيم .

ـ دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1971م

70 ـ عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي .

ـ دلائل الإعجاز ، تح محمود محمد شاكر ، ط 3 ، القاهرة ، مطبعة المدني ، 1413 هـ ـ 1992م

71- عزالدين أبي الحسن علي بن محمد ، المعروف بابن الأثير.

ـ الكامل في التاريخ ، تح عمرعبد السلام تدمري ، ط 2 ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1320هـ ـ 1999م ، جـ 1 .

72 ـ د . عز الدين إسماعيل .

ـ الأسس الجمالية في النقد العربي ، ط 3 ، (د . ب) ، دار الفكر العربي ، 1974م .

73- علي أحمد الخطيب.

ـ فن الوصف في الشعر الجاهلي ، ط 1 ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، 2004م .

74 ـ فخر الدين أحمد بن علي النجفي .

ـ المنتخب في المراثي والخطب ، طبعة السيد حسين الحائري ، 1311 هـ .

75- كارل بروكلمان .

ـ تاريخ الأدب العربي ، ت عبد الحليم النجار ، ط 4 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1959م ، جـ 1 .

76- كعب بن مالك الأنصاري .

ـ ديوان كعب بن مالك ، تح سامي مكي العاني ، ط 1 ، بغداد ، منشورات مكتبة النهضة ، 1386هـ ـ 1966م .

77- ليلى الأخيلية .
ـ ديوان ليلى الأخيلية ، تح خليل إبراهيم العطية وجليل العطية ، بغداد ، دارالجمهورية ، 1397هـ - 1977م

78 ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي .
ـ القاموس المحيط ، بيروت ، دار الجيل ، (د . ت) ، جـ 1.

79 ـ مجهول .
ـ مجموعة المعاني ، تح عبد المعين الملوحي ، ط 1 ، دمشق ، دار طلاس ، 1988م .

80 ـ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي .
ـ مختار الصحاح ، تح محمود خاطر ، (د . ب) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (د . ت) .

81 ـ محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي .
ـ عيارالشعر، تح طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، (د . ط) ، (د . ب) ، (د . ن) ، 1956م

82 ـ محمد بن سلام الجمحي .
ـ طبقات فحول الشعراء ، تح محمود محمد شاكر ، القاهرة ، مطبعة المدني ، 1974م ، جـ 1 .

83 ـ محمد بن عمر بن واقد ، المعروف بالواقدي .
ـ المغازي ، تح مارسدن جونس ، (د . ب) ، مطبعة جامعة اكسفرد ، 1966م ، جـ1.

84 ـ د . محمد حسن عبدالله .
ـ صورة المرأة في الشعر الأموي ، ط 1 ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، 1407 هـ ـ 1987م

85 ـ محمد الدسوقي النويهي .
ـ ثقافة الناقد الأدبي ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1949م .

86 ـ د . محمد عثمان علي .
ـ دراسات في أدب العرب قبل الإسلام ، (د . ط) ، (د . ب) ، دار الكتب ، 1990م .

87 ـ محمد محمد أبو شهبة .
ـ السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، (د . ب) ، القاهرة الحديثة للطباعة ، (د . ت) ، جـ2.

88 ـ محمد مرتضى الحسيني الزّبيدي .
ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، تح عبد الستار أحمد فرّاج ، (د . ب) ، مطبعة حكومة الكويت ، 1385 هـ ـ 1965م ، جـ1 .

89 ـ محمد المنتصر الريسوني .
ـ الشعر النسوي في الأندلس ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، (د . ت) .

90 ـ محمد يوسف الكاندهلوي .
ـ حياة الصحابة ، القاهرة ، دار النصر للصناعة ، 1390 هـ ـ 1970م ، جـ 2 .

91 ـ محمود حسن أبو ناجي .
ـ الرثاء في الشعر العربي ، ط 2 ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1402 هـ .

92 ـ مصطفى عبد الشافي الشوري .
ـ شعرالرثاء في العصرالجاهلي ، (د . ط) ، بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، 1983م

93ـ مُطهر بن طاهر المقدسي .
ـ البدء والتاريخ ، (د . ب) ، مكتبة الثقافة الدينية ، (د . ت) ، جـ 4 .

94 ـ المفضل بن محمد بن يعلي الضبي .
ـ المفضليات ، تح أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون ، ط 6 ، القاهرة ، دارالمعارف ، 1964م .

95 ـ مي يوسف خليف .
ـ الشعر النسائي في أدبنا القديم ، الفجالة ، مكتبة غريب ، (د . ت) .
ـ العناصر القصصية في الشعر الجاهلي ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1988م .

96 ـ نايف محمود معروف .
ـ الخوارج في العصر الأموي ، ط 2 ، بيروت ، دار الطليعة ، 1401 هـ ـ 1981م .
ـ ديوان الخوارج ، ط 1 ، بيروت ، دار المسيرة ، 1983م .

97 ـ د . نوري حمودي القيسي .

ـ الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ط 1 ، بيروت ، دار الإرشاد ، 1390 هـ ـ 1970م .

98 ـ هبة الله بن علي بن حمزة العلوي ، ابن الشجري

ـ حماسة الشجري ، تح عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة 1970م ، جـ 1 .

99 ـ الهذليون .

ـ ديوان الهذليين ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب في السنوات 64 ـ 67 ـ 1369هـ ،45 ـ

48 ـ 1950م ، القاهرة ، الدارالقومية للطباعة والنشر، 1385هـ ـ 1965م ، جـ 3 .

100- د . يحيى الجبوري

ـ شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، ط 1 ، بغداد ، منشورات مكتبة النهضة ، 1964م .

ثانياً الدوريات :

1- علي مصطفى عشّا ، (جدل العصبيّة القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد 82 ، جمادي الآخرة ، 1428هـ ـ تموز2007م ، جـ 3 .

2- موسى ربابعة (التكرارفي الشعرالجاهلي ـ دراسة أسلوبية) ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ع1 ، ذو القعدة ، 1410 هـ ـ حزيران ، 1990م ، الأردن ، جامعة مؤتة .

ثالثاً دوائر المعارف :

1- دائرة المعارف الإسلامية ، مادة خنساء ، (د . ب) ، المطبعة العربية ، (د . ت) ، جـ8 .

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
المقدمة	د
التمهيد : مفهوم الرثاء وأشكاله	1
أولاً : مفهوم الرثاء	2
1 ـ معنى الرثاء لغة	2
2 ـ معنى الرثاء اصطلاحاً	3
ثانياً : أشكال الرِّثاء	3
1 ـ رثاء النفس	3
2 ـ الرثاء الأسري	4
3 ـ الرثاء القبلي	5
4 ـ الندب	5
5 ـ التأبين	7
6 ـ العزاء	7
الفصل الأول : فكرة الحياة والموت في العصرين الجاهلي والإسلامي	9
المبحث الأول : مفهوم الحياة والموت في الشعر الجاهلي	10
المبحث الثاني : مفهوم الحياة والموت في الشعر الإسلامي	17
الفصل الثاني : شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الجاهلي	23
المبحث الأول : مظاهر شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الجاهلي ومميزاته	24
أولاً : الحث على أخذ ثأر قتلى أيام العرب	25
ثانياً : وصف وقائع أيام العرب وشجاعة المرثي	33
المبحث الثاني : مكانة المرأة الشاعرة في العصر الجاهلي وأثرها في شعر الرثاء	38
أولاً : مكانتها الاجتماعية والأدبية	39

الموضـــــــــــــــــــوع	الصفحة
ثانياً : انتماؤها للأسر الفنية	43
1- شواعر آل الرسول صلى الله عليه وسلم في الجاهلية .	43
2. أخت ربيعة بن مكدم .	51
3 . أخت طرفة بن العبد .	51
4 . ابنة لقيط بن زُرارة .	52
5 . ابنة ذي الأصبع العدواني .	53
6. أم السُّليك .	54
7. أخت عمرو ذي الكلب الهذلي .	54
8. أخت زهير بن أبي سلمى .	57
9. أخت عمرو بن معد يكرب .	57
10. الخنساء .	58
المبحث الثالث : البيئة الجاهلية في شعر الرثاء عند النساء الشواعر	59
أولاً : طلب السقيا .	60
ثانياً : الجدب .	62
ثالثاً : النجوم والكواكب .	65
رابعاً : الحيوان .	67
خامساً: الطيور .	68
الفصل الثالث : شعر الرثاء عند الشواعر في العصر الإسلامي .	69
المبحث الأول : مظاهر الرثاء عند الشواعر في صدر الإسلام .	70
أولاً : شعر الرثاء النسائي في الحروب بين المسلمين والمشركين .	72
ثانياً : شعر الرثاء النسائي في وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .	87

الموضـــــــــــــــــــوع

	الصفحة
ثالثاً : شعر الرثاء النسائي في زمن الخلفاء الراشدين.	97
1 . شعرهن في خلافة أبي بكر الصديق .	97
2. شعرهن في خلافة عمر بن الخطاب .	99
3 . شعرهن في خلافة عثمان بن عفان .	103
4 . شعرهن في خلافة علي بن أبي طالب .	104
المبحث الثاني : مظاهر الرثاء عند الشواعر في زمن الخلافة الأموية .	108
أولاً : شعر الرثاء النسائي في خلافة البيت السفياني .	109
1- شعرهن في خلافة معاوية بن أبي سفيان .	109
2- شعرهن في خلافة يزيد بن معاوية	111
ثانياً : شعر الرثاء النسائي في خلافة البيت المرواني .	113
1- شعرهن في خلافة مروان بن الحكم .	113
2- شعرهن في خلافة عبد الملك بن مروان .	114
3- شعرهن في خلافة الوليد بن عبد الملك .	117
4- شعرهن في خلافة يزيد بن عبد الملك .	117
ثالثاً : شعر الرثاء النسائي في خلافة آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد .	118
المبحث الثالث : آراء النقاد حول تأثر الشواعر بالإسلام .	121
أولاً : تأثير الإسلام في شعر الرثاء عند الشواعر .	122
ثانياً : اختلاف آراء الباحثين حول تأثير الإسلام في شعر النساء .	127
الفصل الرابع : الخصائص الفنية في شعر الرثاء عند الشواعر في العصرين الجاهلي والإسلامي .	131
المبحث الأول : الأساليب .	132
أولاً : الصورة الشعرية .	133
1- التشبيه .	133

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
2 ـ الاستعارة	137
3 ـ الكناية	138
ثانياً : وحدة الموضوع	140
ثالثاً : المطالع	142
المبحث الثاني : المعجم اللغوي	145
أولاً : الألفاظ	146
ثانياً : الاستفهام الاستنكاري	147
ثالثاً : مَنْ الاستفهامية	148
رابعاً : حرف الاستفتاح والتنبيه	149
خامساً : الضرورات الشعرية	150
سادساً : الحوار الشعري	150
المبحث الثالث : الأوزان والقوافي والموسيقا	152
أولاً : الأوزان	153
ثانياً : القوافي	155
1- الإقواء	156
2- الإيطاء	156
3- التضمين	156
ثالثاً : الموسيقا	158
1- تكرار الألفاظ والحروف	158
2- التصريع	159
3- الترصيع	160
4- المجانسة	161
الخاتمة	163
ثبت المصادر والمراجع	169
فهرس الموضوعات	181